

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

العدد: ١٥٦ رجب ١٤٣٤هـ السنة الثالثة والثلاثون

المعطيات الحضارية لهجرة الكفاءات



د. إدريس مقبول د. عبد الرحمن بودرع
د. خالد حربي د. عبد الستار الهيتي
أ.د. محماد بن محمد رفيع

د. إدريس مقبول

المركز التربوي الجهوي، مكناس (المغرب)

د. خالد حربي

كلية الآداب، جامعة الإسكندرية (مصر)

د. عبد الرحمن بو درع

جامعة عبد الملك السعدي، تطوان (المغرب)

د. عبد الستار إبراهيم الهيتي

كلية الآداب، جامعة البحرين (البحرين)

أ.د. محماد بن محمد رفيع

جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس (المغرب)



سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

ص. ب : ٨٩٣ الدوحة - قطر

من شروط النشر في السلسلة

- أن يهتم البحث بمعالجة قضايا الحياة المعاصرة، ومشكلاتها، ويسهم بالتحصين الثقافي، وتحقيق الشهود الحضاري، وترشيد الأمة، في ضوء القيم الإسلامية.
- أن يتسم بالأصالة، والإحاطة، والموضوعية، والمنهجية.
- أن يشكل إضافة جديدة، وألا يكون سبق نشره.
- أن يُوثق علميًا، بذكر المصادر، والمراجع، التي اعتمدها الباحث مع ذكر رقم الآيات القرآنية، وأسماء السور، وتخريج الأحاديث.
- أن يبتعد عن إثارة مواطن الخلاف المذهبي، والسياسي، ويؤكد على عوامل الوحدة والاتفاق.
- يفضل إرسال صورة عن البحث، لأن المشروعات التي ترسل لا تعاد، ولا تسترد، سواء اعتمدت أم لم تعتمد.
- ترسل السيرة الذاتية لصاحب البحث.
- تقدم مكافأة مالية مناسبة.

هذا الكتاب.. مشروع ثقافي جماعي، حاولنا من خلال طرحه استدعاء النظر إلى موضوع هجرة الكفاءات من الوجه الآخر، ذلك أن معظم الكتابات اهتمت برصد الآثار السلبية للهجرة، والقليل الذي توقف عند الوجه الإيجابي.

ولا ندعي أننا أحطنا بعلم الموضوع، وإنما هي محاولة لفتح آفاق جديدة، ومن زوايا إضافية، خاصة في حقبة الانفتاح والعولمة.

فالهجرة سنة النبوة، فهي مدافعة للواقع، وممارسة للتغيير، وهي جهاد؛ والجهاد ماض إلى يوم القيامة، فالهجرة قائمة ودائمة ومستمرة إلى يوم القيامة؛ والهجرة القاصدة تبدأ من داخل النفس، فالأعمال بالنيات، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه، فالمسلم في الأصل مهاجر، وهو مواطن عالمي يحمل رسالة الإنقاذ والرحمة للعالمين؛ والإسلام رسالة إنسانية، والهجرة هي وسيلة البيان والبلاغ.

وللهجرة في تاريخنا الثقافي والحضاري أعماق وآفاق أكبر من أن يحاط بها.

والذي يستوعب بعض مفاعيل الهجرة في تاريخنا، ويستوعب عطاءها الذي كان ولا يزال سبيلاً لفك الحصار وتحقيق الانتشار وحمل قيم الدين إلى الناس، وتوفير حرية الاعتقاد، والحيلولة دون ممارسة الفتنة والإكراه، وصناعة حضارة إنسانية تساهم فيها كل العروق والأجناس والألوان والثقافات، يدرك الأهمية الكبرى لاجتهاد سيدنا عمر، رضي الله عنه، المبكر باعتماد التاريخ الهجري، بأبعاده الشرعية والثقافية والسياسية والاقتصادية والتاريخية والمستقبلية، وأن هذا يعتبر من أهم اجتهاداته المفصلية، التي شكلت رؤية حضارية خالدة.

إن القعود عن الهجرة انطفاء للفاعلية، وتعطيل لسنن المدافعة في الحياة، وخضوع للذل والاستضعاف، الذي لم يرضه الله للمسلم.

ويبقى ملف الهجرة من الملفات المطروحة والمفتوحة للاجتهاد والنظر، فالهجرة ممتدة امتداد الحياة نفسها؛ لأنها من لوازمها.

موقعنا على الإنترنت: www. sheikhali-waqfiah.org.qa

www. Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني : E. Mail:M_Dirasat@Islam.gov.qa

المعطيات الحضارية
لهجرة الكفاءات

مجموعة من الباحثين

الطبعة الأولى
رجب ١٤٣٤هـ
أيار (مايو) – حزيران (يونيو) ٢٠١٣م

مجموعة من الباحثين
المعطيات الحضارية لهجرة الكفاءات.
الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠١٣م.
٢١٦ص، ٢٠سم - (كتاب الأمة، ١٥٦)
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ١٣٨ / ٢٠١٣
الرقم الدولي (ردمك): ٠ / ٥٨ / ٩٢
أ. العنوان ب. السلسلة

موقعنا على الإنترنت : www. sheikhali-waqfiah.org.qa
www.Islam.gov.qa
البريد الإلكتروني: E. Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يقول تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ ... ﴾

(النساء: ٩٧)

قطر - الدوحة - ص.ب: ٨٩٣ -هاتف: ٠٠٤٤٤٤٧٣٠٠(٩٧٤) فاكس: ٤٤٤٤٧٠٢٢

www.sheikhali-waqfiah.org.qa E-Mail:M_Dirasat@Islam.gov.qa

تقديم

عمر عبيد حسنه

الحمد لله، الذي جعل الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، وجعلها واسعة لتشكل فرجاً ومخرجاً لمن ضاقت به نفسه وضاقت عليه الأرض بما رحبت؛ نتيجة لممارسات الظالمين والمتألهين والمستبدين، كما جعلها سبيلاً للسعة والرزق ومراغمة الأعداء والانعتاق من حالة الذل والاستضعاف، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ (النساء:٩٧)، وقال: ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء:١٠٠).

فالهجرة في الأصل حركة إيجابية دينامية، تحمي (الذات) من السقوط، وتضمن لها كسب الرزق واستمرار العطاء، وتفتح لها الآفاق المغلقة، وتحقق الأهداف المرجوة، وهي سنة تاريخية، سنة الأنبياء ووسيلة المصلحين ومعقد

رجاء الرواد والعلماء؛ ذلك أنها تحمل إلى مجالات أرحب، وتبصّر بآفاق أوسع وثقافات أكثر تنوعاً، وتمكّن من الاطلاع على عوالم أغنى وأثرى، وهي ليست بالضرورة تأتي ثمرة للإكراه والاستبداد والاستضعاف والمطاردة، وإن كانت كذلك في الأغلب، أو تكون إجبارية وجماعية، فقد تكون اختيارية، وتكون فردية، وقد تكون سياسية أو اقتصادية...إلخ، وقد تكون رحلة علمية معرفية مقصدها طلب العلم، وقد تكون استشفائية علاجية سياحية، وقد تكون طلباً للرزق والتفتيش عن فرصة أفضل، لكن أبرز الهجرات وأعظمها تأثيراً وتغييراً الهجرات الدعوية التي تهدف إلى إبلاغ الفكرة ونشرها وحمايتها من الجبابرة والمتسلطين؛ والهجرة هي المقابل الإيجابي للمواجهة، فهي بشكل عام سبيل لتحقيق (الذات) والتفتيش عن المناخ المناسب لرعاية وتنمية المواهب والتمتع بالحرية والمساواة والعدل المفقود هنا الموجود هناك.

والهجرة بأبعادها الزمانية والمكانية قد تكون خارجية وقد تكون نفسيه ذاتية داخلية، كالارتحال من الكفر إلى الإيمان، ومن المنكر إلى المعروف، ومن هجر ما نهى الله عنه، فالنيّة في كل الأحوال والحالات هي المرتكز والهدف وهي المعوّل عليه، وهي التي تحوّل الهجرة من صورة سلبية انسحابية هروبية انطفائية إلغائية إلى صورة إيجابية بنائية فاعلة وتغييرية نهضوية، فالهجرة تبدأ من النفس وتنتهي في المحيط، فالمهاجر من هجر ما نهى الله عنه، والهجرة جهاد ومجاهدة ومراجعة وتجديد وتجدد ومراغمة للباطل، وهي بالمعنى العام ليست تولية للدبر وتول عن الزحف وإنما هي تحرف لقتال وتحيز إلى فئة.

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، الذي جعل الأعمال تشرف بشرف أهدافها ومقاصدها، فقال: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**» (أخرجه أبو داود)، فارتقى بمفهوم الهجرة ودلالتها إلى الهدف الأسمى وهو تحقيق مقاصد الدين وحمل رسالة الحق والعدل والمساواة، وتحقيقها في حياة الناس وإلحاق الرحمة بهم.

لقد جعل الإسلام الهجرة مبصرة لمقاصدها و لم يتركها حركة عشوائية أو حركة جسد بلا عقل، وإحساس بلا إدراك ووعي وبصيرة، حتى تكون حركة المسلم قاصدة ويعرف في كل حركة أين يضع قدمه.

فالهجرة في رسالة الإسلام لم تكن حالة طارئة وإنما رافقت النبوة الخاتمة من خطواتها الأولى.

فلقد طلب الرسول ﷺ إلى أصحابه الهجرة عندما اشتد بهم اليأس، وأُحكم الحصار من حولهم، وسدّت منافذ الدعوة، وضاقت بهم السبل؛ طلب إليهم الهجرة إلى أرض الصدق والعدل، إلى الحبشة، حيث فيها ملك لا يظلم الناس عنده «**إِنَّ بِالْحَبَشَةِ مَلِكًا لا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، فَلَوْ خَرَجْتُمْ إِلَيْهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا**» (أخرجه البخاري)؛ فكان شيوع العدل وعدم الظلم هي نفسها القيم والمقاصد التي يسعى الإسلام لترسيخها وتأصيلها.

ولعلنا نقول: إن هؤلاء الرواد من المهاجرين المستضعفين كانوا السبب في إسلام النجاشي، ملك الحبشة.

ثم جاءت هجرته ﷺ بعد ثلاثة عشر عاماً من الصبر والمصابرة وتحمل شتى أنواع الأذى، إلى أن تيقن أن المجتمع المكي في هذه اللحظة التاريخية بات مغلقاً تجاه كل خير، ومع ذلك لم تنقطع بهجرته صلته وعلاقته بمولده وموطنه، فمكة باقية في نفسه، كيف لا وهي أحب بلاد الله إلى الله، ولولا أن أهلها أخرجوه منها ما خرج، لذلك ما لبث أن عاد إليها لتحريرها وفتحها بعد أن أدت الهجرة إلى المدينة مقاصدها من إقامة المجتمع المسلم وامتلاكه الإمكانية للانطلاق والتحرير وتخليص الإنسان من الاستعباد والاستبداد حيثما كان، فعاد إلى مكة نبياً رسولاً، أخاً كريماً وابن أخ كريم.

وتبقى الهجرة على العموم فعلاً اجتهادياً، له ملابساته وظروفه، فقد يدفع إليها الأعداء لتفريغ البلاد من الخصوم، والاستفراد والعبث فيها دون أية خصومة أو معارضة، ففي بعض الحالات قد يكون فعل الهجرة جهاداً والقعود عنها تخلفاً عن الزحف، وفي حالة أخرى قد تكون محرمة إذا كانت تؤدي إلى الانسحاب وتسليم الأرض إلى الأعداء والمفسدين وتمكينهم من السيطرة، وفي هذه الحال قد يحكمها قوله ﷺ: «**لا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ**» (أخرجه مسلم).

والهجرة بشكل عام ماضية إلى يوم القيامة، كما أن الجهاد ماض إلى يوم القيامة؛ لأن سنن المدافعة بين الكفر والإيمان، والحق والباطل، والعدل

والظلم، والعبودية والمساواة، والحرية والاستبداد، والعدالة الاجتماعية والمظالم الاجتماعية ماضية إلى يوم القيامة أيضاً، وهذه جدلية الحياة وسنتها؛ ولعلنا نقول: إن الهجرة هي سنة كونية واجتماعية وديمغرافية وشرعية واقتصادية وسياسية، ذلك أن أبعاد الحياة كلها ومضامينها ومقاصدها ومدافعاتها مركوزة في مفاعيل الهجرة.

والهجرات عبر التاريخ الإنساني موجات بشرية متدافعة ومتداخلة كموج البحر، الذي تتولد عنه طاقات هائلة تحرك السطح والأعماق وتضمن توازن الحياة والبيئة.

وبعد:

فهذا «**كتاب الأمة**» السادس والخمسون بعد المائة: «المعطيات الحضارية لهجرة الكفاءات»، لنخبة من المؤلفين، في سلسلة «**كتاب الأمة**»، التي تصدرها إدارة البحوث والدراسات الإسلامية في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، في سعيها الدائم لغرس خمائر التغيير، وبناء عوامل النهوض، التي ترتكز إلى مرجعية معرفة الوحي والتجربة الحضارية التاريخية، ومحاولة استرداد وظيفة العقل، ليقوم بدوره في تتريل قيم الوحي على واقع الناس، بحسب استطاعاتهم، مستصحباً مسيرة خير القرون وعطاء التراث، والقدرة على توليد رؤية تجديدية من خلال تجريد الاجتهادات التاريخية من ظروف الزمان والمكان ومحاولة توليدها في ضوء ظروف الزمان والمكان والناس.

إن عملية التأسيس والتأصيل تقتضي إعادة بناء ثقافة المراجعة والتقويم والنقد وإدراك أهميتها في تنهيج الفعل ومراجعة النواتج وتجنب العثرات، ذلك أن تشكيل الرؤية الاستراتيجية أو تكوين العقل الاستراتيجي أمر يتطلب إعادة الاعتبار لوضع العقل بعد هذه القطيعة الطويلة والعطالة المزمنة، التي تولدت في الفكر الإسلامي في عصور التخلف بحجة الانتصار للوحي، حيث أصبح لزاماً اليوم تحريك عجلة الاجتهاد وإدراك أهميته لرسم طريق العودة بالأمة إلى قيم الكتاب والسنة وتتريل الوحي على واقع الناس، في ضوء استطاعتهم، التي تعني الإحاطة بالظروف المحيطة والإمكانات المتاحة وتصويب المقابلة المتوهمة بين الوحي كمصدر للقيم والمعرفة الإنسانية وإطار مرجعي لحركة العقل وبين العقل كمصدر للخطط والبرامج، حيث الرؤية الاستراتيجية الغائبة تقتضي تنهيج حركة المسلم لإدراك دور النية: **«إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّات، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُوله فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»** (أخرجه أبو داود)، كرؤية إيجابية استراتيجية وتصور مسبق عن أبعاد الفعل، وتوجيه للفعل الإنساني، واعتماد الفكر، والنظر لأبعاد المستقبل قبل الفعل والحركة، ليفكر كثيراً قبل أن يحدد وجهته، ويدرس جدواها قبل أن يضع قدمه، محاولاً أن يطرح على نفسه مجموعة من الأسئلة البدهية: لماذا؟ ومتى؟ وكيف؟، ومن ثم يسعى لاستكمال الأدوات والوسائل، التي يمكن أن تحقق له مقصده وتبلغ به غاية نيته.

وقبل ذلك كله وبعده معايرة الفعل بكل خطواته بقيم الكتاب والسنة، ولعلنا نقول: إن الخطوة الأولى صوب المهاجرة من الحاضر إلى المستقبل تبدأ بإعادة فحص واختبار ما استقر في العقل كمسلمات ومعطيات ثابتة للفكر الإسلامي أوجدت هذا الواقع البائس، والبدء في تأسيس وتأصيل وطرح حقيقة الحقائق أو مسلمة المسلمات: أن هذه المعطيات وهذه المسلمات هي نتاج فكر ونظر واجتهاد بشري، يجري عليه الخطأ والصواب، كما تجري عليه غربة الزمان والمكان وتبدل المشكلات، وأنه محل للمراجعة والتصويب والتجديد والاجتهاد في ضوء المتغيرات؛ ذلك أن صوابيته في التعامل مع مشكلات عصر معين لا تعني بالضرورة صوابيته للتعامل مع كل الأزمان وملاءمته لكل المشكلات، وإلا توقف الزمن وتجمد النمو وتيبس العقل وأُلغي التفكير والاجتهاد، وتحنطت الملكات الإنسانية، وهذا يخالف سنن الله في الحياة والأحياء، ويحاصر خلود القيم في الكتاب والسنة، ويبطل الدعوة إلى التجديد والتكليف به وهجر الخطأ ونفي نوابت السوء وإعادة البناء وفق معايير الكتاب والسنة، التي تمتلك ثبات النص وخلوده، بمعنى قدرته على الاستجابة وإنتاج الأحكام للتعاطي مع مشكلات الإنسان في كل زمان، ذلك أن القيم المعيارية في الكتاب والسنة خالدة على الزمن، وهي بهذا الخلود قادرة على الإنتاج لكل زمان ومكان بما يلائمه ويصلحه.

وبهذا الخلود فإن هذه القيم تمتلك آفاقاً وطبقات متعددة ومتفاوتة في المعاني تتكشف على الزمن، يبقى الغوص فيها والولوج إليها وإدراك

مقاصدها وأبعادها مطروحاً لكل عصر ومتاحاً لكل مجتهد، كما تمتلك مستويات متعددة من المعنى، بحيث لا يمكن استنفاد معانيها وماهيتها في عصر بعينه، فهي خالدة العطاء.

فهل من سبيل اليوم إلى هجر للواقع وأدواته ومناهجه، التي لم تعد تستطيع انتشاله من حالة التراجع والتخلف؟ وهل من هجر للقوالب الفكرية والمسلمات غير المقدسة الجاهزة، التي تتحكم بثقافتنا وتورثنا ما نحن عليه؛ ذلك أن استخدام المناهج والأدوات نفسها سوف يعيد الإنتاج المتولد منها نفسه؟ وهل من سبيل إلى هجرة ثقافية تعيدنا إلى المنابع الأصيلة في الكتاب والسنة ونستعيد بها فاعليتنا، فلا تسمح للتراث أن يلغي عقولنا واجتهادنا ويحبسنا في قوالبه الجاهزة، كما لا تسمح لنا بهجر التراث والقفز من فوقه وعدم الإفادة من عبرته وتراكم معارفه وتجاربه، وامتلاك القدرة على استصحاب ذلك في إعادة بناء حاضرنا والتطلع إلى استشراف مستقبلنا؟

والهجرة سنة عضوية وسنة كونية وسنة اجتماعية وسنة حضارية -كما أسلفنا- فأبعادها أكثر من أن تحصى، فالتغيير والتطوير هجرة، والتجديد والاجتهاد هجرة، والمدافعة هجرة، والجهاد هجرة، والارتحال هجرة، لذلك نقول: إن الإنسان في حالة هجرة دائمة، على مستوى التفكير والنفس والجسم، فكل لحظة هو في شأن بالنسبة إلى عضويته ونفسيته وتفكيره، فالتوقف عن الهجرة يعني الموت والانطفاء، لذلك نقول: إنه لا بد من تغيير زوايا النظر للهجرة وتنويعها، للوصول إلى آفاق وأبعاد جديدة ومفاهيم حديثة، تبصِّرنا بالهجرة من كل زوايا النظر.

ونسارع إلى القول: إن الهجرة بكل أبعادها ليست حالة سلبية هروبية من الثبات على الحق والتضحية في سبيله، وإنما هي حركة إيجابية بنتائجها، ودليل فاعلية، ووسيلة عطاء وكسب حضاري والتقاط الفرصة المناسبة والحرية المتاحة، التي تشكل المناخ الملائم لنشر القيم والأفكار وانتقال خمائر الدعوة والنبوة إلى العالم، وتحويل ثقافة المسلم من الحرص على الموت في سبيل الله إلى ثقافة الحرص على الحياة في سبيل الله وتطبيق نهجه.

ذلك أن المستقرئ لتاريخنا القديم والمعاصر ولمسيرة حركات العمل الإسلامي وفعلها يدرك أن المواجهة لم تحمل لنا إلا النكبات والكوارث والبلايا ومحاصرة الدعوة وفصلها عن جسم الأمة، في معظم الأحيان، ليسهل اقتحامها والقضاء عليها وشل حركة الدعاة، وأن الهجرة لم تحمل لنا إلا الخير والعطاء والانتصار وإرغام العدو والاستقرار والانتشار وامتلاك التميز والتفوق والتخصص والعلم والرزق، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً...﴾ (النساء:١٠٠).

فحياة الأنبياء ودعوتهم وحركتهم وتاريخهم مطبوع بالهجرة، بعيداً عن المواجهة، فالمواجهة حصار وإغلاق وتعطيل واستدعاء للصد عن سبيل الله واستفزاز للعدو ومجافاة لنهج النبوة؛ لذلك فقد نكون بحاجة اليوم، أكثر من أي وقت مضى، إلى إعادة القراءة لتاريخ النبوة ولتاريخنا وتراثنا بأبجدية صحيحة ومن زوايا أخرى.

فكل تاريخنا هجري، وكل عطائنا هجرة، فنشر الدين هجرة، وامتلاك أسباب القوة والحماية هجرة، ابتداءً من الهجرة الأولى إلى الحبشة، أرض الصدق والعدل ووجود الحاكم الذي لا يُظلم الناس عنده، ووصولاً إلى الهجرات المعاصرة، التي حملت الإسلام إلى العالم وساهمت بإعادة الوعي وصياغة (الذات) المسلمة والتعرف عليها من خلال (الآخر) من جديد في بلاد الاغتراب، سواء في ذلك تلك الهجرات التي تمت بهدف الابتعاث للتحصيل العلمي والتي كثيراً ما أريد لها الإفساد والانحلال للمبتعثين وإخراجهم من دينهم فانقلب السحر على الساحر، وعاد المبتعثون على شاكلة أخرى، أو الهجرات التي تمت بدوافع ومقاصد أخرى.

وما أزال أذكر قولة بعض المسؤولين عندما كانت تناقش في تجمعات الحزب العقائدي الشمولي الحاكم في بعض البلاد العربية قضية الابتعاث وأهميته وضرورة اقتصارها على كوادر الحزب القائد قوله: نحن نرسلهم اليوم حزبيين، لكن السؤال المطروح: هل يعودوا حزبيين ويقبلوا بالحال التي نحن عليها؟

وبالإمكان القول اليوم: لقد تطورت مضامين الهجرة ووسائلها ومعطياتها وفضاؤها، فلقد أتاحت وسائل الاتصال الحديثة أن يهاجر الإنسان إلى جميع أنحاء العالم، ويستكشف ويطلع على كل ما فيها، وتصل إليه وتتواصل معه، وهو في مكانه، فالأشياء والأفكار والأشخاص والحياة

أصبحت في حالة حركة وهجرة دائمة، فكيف نتعامل معها وكيف نقرؤها ونحدد موقفنا منها، وكيف نطور زوايا الرؤية ونتوعها لنبصر موقعنا، ونكتشف مدى حركتنا، ونبصر مقاصدنا، ونمارس هجراتنا المعاصرة بكل مقاصدها المتميزة؟

فقد يكون المفيد هنا أن نذكر بقولة أبي سفيان، رضي الله عنه، في كونها تشكل مفترقاً على طريق الهجرة وتحديد مقاصدها، لندرك التميز بين رسالة النبوة وسطوة الملك، أو رسالة الدعوة ولعبة السياسة، أو بين رسالة النبوة وأهداف الحكم.

عندما رأى أبو سفيان جموع المسلمين يدخلون مكة فاتحين، كثمرة للهجرة، قال للعباس، رضي الله عنه، عم الرسول ﷺ: **«وَاللَّهِ يَا أَبَا الْفَضْلِ، لَقَدْ أَصْبَحَ مُلْكُ ابْنِ أَخِيكَ الْغَدَاةَ عَظِيمًا»**، فكان رد العباس، رضي الله عنه، ملفتاً، بقوله: **«يَا أَبَا سُفْيَانَ، إِنَّهَا النُّبُوَّةُ»**، وليس الملك.

وقد تكون الإشكالية الممتدة في الحياة الإسلامية اليوم تكمن بحضور أبجدية أبي سفيان في قراءة الأمور والحركة والإنجاز وتغييب رؤية العباس، رضي الله عنهما، عن الذهنية الثقافية للمسلم المعاصر، لذلك تجيء القراءات اليوم ثمرة للأبجديات المغلوطة، فتورث النكبات المتتالية، وتفرز القيادات الفاشلة والعاجزة، وتولد الأفكار الملتبسة.

إن هجر الأفكار واختبار مدى صلاحيتها وقدرتها على انتشال الواقع وتغييره كانت ولا تزال هي الدينامية المحرضة والمحركة والرافعة الحقيقية للهجرة والحركة والدعوة، والمؤشر الأول للفعل الإيجابي والاستمرار في صناعة وبناء وامتداد تاريخنا الهجري، والارتكاز إليه، وإبصار المقاصد لكل حركة ولكل هجرة، فالأعمال ينطلق مسارها وتُبصر مقاصدها من النيات، والأفعال تستجيب للأفكار، وتجلّيها في واقع الناس.

وقد لا يتسع المجال للحديث عن دوافع الهجرات المتعددة والمتنوعة وأهدافها وأسبابها ونتائجها وفعلها في المجال السياسي والاقتصادي والاجتماعي بشكل مستوف، فذلك فضاء وسيع ووسيع جداً يستوعب الحياة بكل مكوناتها وتداخلها وحركتها وجدليتها.

وقد نقول هنا بشكل عام ودون استقراء واستقصاء كامل: إن النظر إلى ظاهرة الهجرة وقراءتها جاء جزئياً ومبتسراً ومقتصراً على زوايا للنظر يكاد يصطف وراءها الجميع ويطل منها الجميع، لذلك نراهم يعودون بنتائج واحدة، وهي تكريس الصورة السلبية للهجرة والتحذير من مخاطرها وآثارها السلبية على العقيدة والسياسة والثقافة والاقتصاد والاجتماع والتربية... إلى آخره، حتى وصل الأمر ببعض الفتاوى والأحكام الفقهية إلى تحريم الهجرة والعيش في غير (دار الإسلام) لما يترتب على ذلك من فتن للمسلم عن دينه(!) واستمرت دراسة هذه الفتاوى والأحكام حتى بعد أن

ساد بلاد المسلمين الاستبداد والاستعباد والتخلف وغـاب دور الهجـرة في الاستقواء والمراغمة ونشر الدعوة وإيصال الإسلام إلى الناس كافة.

ولا شك أن طرح الآثار السلبية لظاهرة الهجرة وإصـاباهما مطلـوب للحذر والتوقي، فعموم الصحابة، رضي الله عنهم، كانوا يسألون عن الخير ليفعلوه، وكان بعضهم يسأل عن الشر حتى لا يدركه؛ ولا تتكامل الصورة إلا برؤيتها من الزوايا جميعاً.

لذلك فقد يكون المطلوب بإلحاح الاجتهاد في محاولة لتجديد المنـاهج وتغيير زوايا النظر أو إضافة زوايا جديدة للظاهرة لتكتمل الصورة وتُرى من جميع جوانبها، وإلا فسوف نبقى عاجزين عن فهم الظاهرة وحسن التعامل معها وحسن توظيفها في تحقيق الأهداف المرادة.

وهذا الواقع من التقليد الجماعي بالمناسبة لا يخص النظـر إلى ظـاهرة الهجرة من الزوايا والمناهج المتوارثة، ولا يقتصر عليها، وإنما يحكم العقليـة المسلمة المعاصرة، التي يمكن وصفها اليوم بأنها تعبث بإرثها العظيم، وتعجـز عن وضعه في موقعه الصحيح، ولا تمتلك القدرة على توليد رؤى مبـصرة وإنتاج مناهج نضيجة وإبداع زوايا للنظر جديدة في ضوء طبيعة ومكونات الظواهر ذاتها، وما تستدعيه من النظر والتدبر، وما تمنحه روافـد العلـوم والمعارف والخبرات من إمكانات مساندة وخبرات متراكمة، وما يخضع لـه العالم من التغير السريع، حيث يمسي على حال ويصبح على حال أخـرى، لكن الإشكالية تبقى في المصاب بعمى الألوان، العـامي والغافـل، الـذي

يصعب عليه أن يتجاوز حالة الإحساس، التي تستوي فيها المخلوقات جميعها، إلى حالة الإدراك للتحولات والسنن والقوانين التي تحكمها، وبالتالي يقوده هذا الإدراك إلى إبداع الأدوات والوسائل لكيفية التعامل معها والانتقال من السكونية إلى الدينامية، ومن الخمول والقعود إلى الفاعلية والحركة، ومن العجز والاستسلام إلى الهجرة، ومن العطالة وانتظار السنن الخارقة إلى المدافعة وتسخير السنن الجارية.

وبالإمكان القول: إن الهجرة لم تعد ظاهرة طبيعية عفوية انسيابية إرادية في كثير من الأحيان والأماكن، ذلك أن أرض الله الواسعة ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ (النساء:٩٧) بدأ يحتلها ويعتدي عليها ويحاصرها ويضيقها الظالمون والمستبدون والمستعبِدون، الذين يمارسون عدوانهم واغتصابهم لحقوق الله والعباد، صباح مساء، وليس الأمر مقتصراً على هؤلاء العنصريين الهمج من الخلق، والمتألهين من البشر على بقية الناس بالحديد والنار، وإنما الأمر الأخطر أن التحكم بظاهرة الهجرة أصبح من الأذكياء، الذين يقبضون على ناصية العالم ويسعون للاستحواز على جميع خاماته وخبراته وشعوبه.

فتراهم يتحكمون بالهجرات وكأنهم يحركونها بالريموت، لذلك نراهم يهيئون الفرص المغرية لهجرة الطاقات، من العقول والسواعد معاً، إليها، يغرونها بالمال وبمناخ الحرية المفقود من بلادها الأصلية، لذلك تجدهم يحاولون امتصاص الخبرات والاستحواز عليها وإحضارها حيثما كانت،

أو توظيفها من مواقعها وتجاوز قوانين الهجرة المعمول بها في دخولها وتوطينها وتجنيسها.

فالذين يحاولون قيادة العالم اليوم والتحكم به يبصرون هذه التحولات الاجتماعية ويخططون لها ويتحكمون بحركتها وتحديد مقاصدها، ويتيحون الفرصة لها للاستقرار والاستمرار وإقامة المشاريع والاستثمار في هذه الأوطان البديلة، حفاظاً على الثروات القومية من التحول إلى البلاد الأصلية، وبذلك تتحول الهجرة نتيجة لهذا التحكم الذي تمتد مخططاته إلى المواطن الأصلية حيث صناعة الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي، الذي يترافق مع إتاحة فرص الحرية في المهجر، إلى وسيلة بيد الدولة المهيمنة، تتحكم بها كيف تشاء.

ويزداد الأمر سلبية وسوءاً إذا سبق الهجرة حالة من الفراغ أو التفريغ الثقافي والخواء الروحي والغياب الحضاري والعجز اللغوي والافتنان بالصورة دون إدراك الحقيقة، التي تكمن وراءها.

لقد تغير العالم وما يزال يتغير بوتيرة مستمرة ومتسارعة، كثمرة للعصر الإلكتروني وتطور وسائل الاتصال والإعلام حتى يكاد الإنسان يهاجر يومياً إلى جميع أنحاء العالم وهو في مكانه -كما أسلفنا- وتكاد الهجرة بكل أبعادها ومعطياتها تتحقق لمعظم سكان الأرض، حيث يبنى اليوم عالم فضائي آخر غير العالم الأرضي، تشكل الوسائل الحديثة فيه السفن الفضائية ووسائل النقل والانتقال.

هذه المتغيرات المتسارعة، التي لم تجئ بمنأى عن صنع الأقوى المهيمن حيث تدفعه دائماً إلى التفكير بوسائل التحكم والاحتواء والاختراق، وبدل أن يصبح المهاجر طليعة ثقافية، وحضارية، ودعوية، في بلاد المهجر، ومن ثم يعود بالمال والعلم والمعرفة والتبادل الثقافي إلى بلده لينهض بها أصبح الكثير من المهاجرين رهائن دوائر التحكم والاختراق، وتحولوا إلى أدوات حضارية وجسور ثقافية لمرور (الآخر) إلينا، وبدل أن تأخذ الهجرة بعدها وتكون عامل نهوض تحولت لتصبح عامل قوة لبلاد المهجر، وعامل تكريس للتخلف والتراجع والتبعية للبلد الأصلي، فهل نبصر هذا الأمر، ونفكر بكيفية التعامل مع هذا العالم المتغير بهذه السرعة؟ وكيف ندرك أبعاد هذه الظواهر ونفكر في كيفية الإفادة منها لحاضرنا ومستقبلنا؟

وليس في الأمر مفاجأة من حيث الأصل، فالحقيقة أن العالم لم يكن في يوم من الأيام ساكناً وإنما كان ولا يزال متغيراً متحركاً، وإن كان إيقاع الحركة قد تغير، وكانت الهجرة على مدار التاريخ الإنساني تشكل لوناً من التفاعل الثقافي والحضاري ونوعاً من تبادل الخبرات والتجارب، وتسهم بتقدم الجنس البشري، وكان للمسلم حظ وافر من عطاء الهجرة تاريخياً.

والمسلم بما يحمل من رسالة إنسانية وإيجابية وعقيدة تحاكي الفطرة البشرية كان ولا يزال قادراً على العطاء والإنبات أينما وجد، في مختلف الظروف والبيئات والمناخات، فهو يُنبت أينما يُزرع؛ خاصة وأن المسلم

أصلاً لا يعاني من عقدة الاغتراب؛ ويعتقد أن أخوة الإسلام فوق الجغرافيا وجميع الفوارق، فهو يؤمن بأن الأرض، كل الأرض، لله يورثها من يشاء من عباده، ويعتقد أن وطن الإنسان حيث يوجد لا حيث يولد، ويدرك أن الإنسان حيثما كان هو محل لدعوته وعقيدته، وأن قابلية الإنسان لتلقي الإسلام مركوزة في فطرته، مهما تبدلت الأحوال.

لذلك نرى أن الإسلام ما يزال، وعلى الرغم من كل ما يحيط بأهله وقيمه من المكر السيئ في بلاد المسلمين الأصلية، حيث التمكين لحكم المخافر ومساندة الأنظمة الشمولية، أو في بلدان المهجر من محاولات إيقاظ النزعات العنصرية والتعصب الديني لمحاصرة المسلم، مع ذلك فما يزال الإسلام ينتشر وينتصر ويمتد ويستقر في جميع الدنيا، سواء في ذلك أكثر بلاد الدنيا تخلفاً وبدائية أو أكثرها تقدماً ومدنية، فالأبواب أمام الإسلام كانت ولا تزال مفتوحة، رغم عوادي الدهر، التي لحقت بالمسلمين، ودعوات التشويه الممنهجة لقيم ومبادئ الإسلام.

مع ذلك، فإن الإسلام الخالد يشكل مفتاحاً لكل مغلق إذا أحسنا استعماله، وتجديد شرعية الهجرة، ودراسة مداخلها وأبعادها ووسائلها، الأمر الذي أصبح ملحاً اليوم بعد هذا الانفتاح العالمي، أكثر من أي وقت مضى، فالهجرة نوع من الجهاد، والجهاد ليس بالمواجهة والقتال دائماً؛ لأن ذلك إنما شُرع للضرورة ورد الاعتداء؛ والجهاد بأبعاده كلها

ماض إلى يوم القيامة؛ وتاريخنا الهجري، ابتداءً من الهجرة إلى الحبشة ومن ثم الهجرة إلى المدينة وما بعدها من هجرات فردية وجماعية كانت جميعاً وراء نشر هذا الدين وتوطينه واستقراره وإيصاله إلى جميع أنحاء العالم، لاستنقاذ إنسانه وتخليصه وانعتاقه من الطاغوت، من العبودية والاستعباد والاستبداد.

والذي يتيح للهجرة الفاعلية ويمكّنها من الاضطلاع برسالتها وقبول (الآخر) عنصراً مشاركاً وفاعلاً في أخوة الإسلام، أن أمة الإسلام أمة الفكرة المتعالية على الأجناس والألوان والأقوام، وهي وعاء ومجتمع مفتوح لكل إنسان؛ وأخوة الإيمان بكل حقوقها واستحقاقاتها موجودة في كل أنحاء الدنيا، ولعل الأمر الملفت حقاً أن النبوة بشكل عام اتجهت إلى بناء الأمة، وتمتين روابطها، وعَقْد الأخوة بين أبنائها، بالدرجة الأولى، واعتبرت الدولةَ، حالة وجودها، أحد مؤسساتها، وأن الدولة عرض زائل، وأنها دائلة: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ (آل عمران:١٤٠)، والأمة باقية، فحدود الأمة العقيدة، وحدود الدولة الأرض والجغرافيا، فالخطاب والبناء كان للأمة، وتأتي الدولة إحدى ثمارها -كما أسلفنا- فالأمة أبقى من الدولة، والعقيدة أقوى من السياسة، والقرآن أبلغ أثراً وتأثيراً وعمقاً من السلطان، والمجتمعات والشعوب أقوى وأبقى من الحكومات، والمبادئ والقيم أقوى من روابط الفلسفات، وجوهر الفطرة أطهر من عرض الشهوة والغريزة.

لذلك نرى أن الهجرة وقاية من السقوط في حالة الذلة والاستضعاف، وعلاج وخروج من حالة الهوان، وفي عطائها نبصر خلود مدلول قوله تعالى: ﴿... قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ (النساء:٩٧)، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ (النساء:١٠٠).

إن استقراء تاريخ الهجرات والفتوح يؤكد هذا الخلود، كما أن استمرار حالة الهجرة والحركة والدعوة دليل ذلك أيضاً، وأن سنة التدافع في الحياة، التي تجعل من العسر يسراً، تتجلى أكثر ما تتجلى في صراع ومواجهة الطغاة والظالمين، بشتى الوسائل، حيث تأبى سنة الله أن يتسلط على البشرية ظالم دون أن يُدفع بظالم آخر، فيكون بذلك فرج ونجاة للمستضعفين، وحماية للعدل، ورحمة بالناس، وبقاء واستمرار لمؤسسات العدل والحق، فالله يقول: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ (الحج:٤٠).

وقد يكون من المطلوب أن نتوقف قليلاً عند بعض المفاهيم والاجتهادات الفكرية والفقهية، التي ما تزال تتحكم بثقافتنا الشرعية والتي تولدت تاريخياً نتيجة لظروف معينة ومشكلات عصر بعينه، ذلك أنها في نهاية المطاف لا تخرج عن اجتهاد بشري غير معصوم وغير مقدس، توخى أصحابها المصلحة التي رأوها في عصرهم، وأصبح من اللازم إعادة النظر

والاجتهاد فيها بعد أن تغير الزمان، وتطورت علاقات النـــاس، وتغـــيرت مواصفات محل الحكم وقوانين العلاقات الدولية، وتقاربت المسافات، واتسع نطاق الحريات، وتبلورت حقوق الإنسان إلى حد بعيد، من مثـــل اجتـــهاد تقسيم العالم إلى دار حرب ودار إسلام ودار معاهدة، فأين اليوم دار الإسلام بمواصفاتها، والتي لا يجوز العيش في غيرها، لتتحدد في ضوئها دار الحـــرب والدار المعاهدة؟ وهل بقيت وامتدت دارُ الإسلام دارَ إســـلام أم اغتـــصبها الظالمون والمستبدون والبغاة والطغاة وبعض من لا يؤمن بالله واليوم الآخـــر ويسيم الناس خسفاً، حتى يكاد المسلم يفر منها هرباً بدينه وعرضه ومالـــه، ويجد مأمنه في بلاد أخرى أكثر حرية وعدلاً؟

وهل دار الحرب بقيت دار حرب في كل زمان ومكان أم أن المتغيرات قد تجعل منها دار أمان للمسلم، يهاجر إليها ليجد نفـــسه ويتمتـــع بأمنـــه وحريته وممارسة شعائره، وقد يجد في شوارعها من الحرية والكرامة وحقوق الإنسان ما لم يجده في معابد بعض بلاد المسلمين؟ فهـــل تبقـــى الأحكـــام والاجتهادات متخشبة تحكم البشر وثقافتهم حتى لو أدى ذلك إلى إفـــساد حياتهم وتفويت مصالحهم، أم هي اجتهادات حسب المصلحة، يراها البـــشر ويغيرونها ويطورونها، في ضوء المصالح والمفاسد؟ وليس أقل من ذلك شـــأناً وخطورة أمر الولاء والبراء وأبعادهما، وعدم التمييز في التعامل معهما بـــين الإسقاط والتتريل حسب الاستطاعة وتوفر شروط محل الحكـــم؛ وكـــذلك أيضاً أمر البيعة والطاعة والولاية... إلخ.

هذه الاجتهادات وما قد يترتب عليها من أحكام وسلوكيات وممارسات تدفع أصحابها، في كثير من الأحيان، للقيام بانفجارات هنا وهناك، وتطبيقات محزنة ومنفرة من الإسلام، وتحملهم على الإخلال بعهود الأمان بحجة أن هذه دار حرب، فلا ولاء ولا براء، فتستباح الأموال وتنتهك الأعراض وتتجاوز القوانين ويُعتدى على الأملاك العامة، وكل ذلك يتم باسم الإسلام وتطبيق الشريعة(!)

إن الذين ما يزالون يتناقلون هذه الاجتهادات، التي تولدت في ظروف معينة وعلاقات دولية معينة أيضاً، لا يدركون تغير الزمان ولا المكان ولا الأحكام والقوانين، ولا كيف أن العالم اليوم يكاد يصبح داراً واحدة؛ والمحزن حقاً أننا ما نزال نهدر جهودنا في المكان الخطأ، ونقرأ الأمور بالمقلوب باسم الانتصار لشرع الله، ونظن أننا نحسن صنعاً!

وغير ذلك كثير مما لا مجال للتوقف أمامه وفتح ملفه، حيث يتطلب الأمر نظرات جديدة واجتهادات جديدة وأحكاماً جديدة، في ضوء تلك المتغيرات، في الوقت الذي لم يبق لمثل تلك المصطلحات إلا القيمة التاريخية والتأريخ لتطور الاجتهاد، فالعالم يتغير كل يوم، إن لم نقل كل ساعة، ووتيرة التغيير مستمرة، وكل يوم يتشكل بشكل، فلا يصلح معه عمى الألوان، كما لا يجوز لنا شرعاً ولا عقلاً استمرار اللهاث وراء المجتمع وإصدار الأحكام المتأخرة لمسيرته بعد فوات الأوان، بل أصبح لزاماً علينا

الانتقال إلى أمامه، وإبصار وجهته، وتداعياتها، ووضع الأوعية والأحكام الشرعية لمسيرته.

فهناك الكثير من الإشكاليات والأسئلة المعلقة، التي ما تزال بحاجة إلى اجتهاد وإبصار المصلحة من قبل المتخصصين وأهل العلم والمعرفة والفقهاء، وليس من أهل الحماس والتوثب من الخطباء، فإلى متى نبقى نمارس محاصرة أنفسنا ببعض المفاهيم والمصطلحات والأمثلة، التي ذهبت مع زمانها وأشخاصها؟

وهذا الكتاب، هو في الأصل مشروع ثقافي جماعي، اعتدنا في «مؤسسة الأمة» على إصداره سنوياً، حاولنا من خلال طرحه استدعاء النظر إلى موضوع هجرة الكفاءات أو الهجرة بشكل عام من الوجه الآخر، في محاولة منا لتغيير زوايا النظر التقليدية، ذلك أن معظم الكتابات حول موضوع الهجرة اهتمت برصد الآثار السلبية للهجرة، والقليل القليل منها الذي توقف عند الوجه الإيجابي، أو ما يمكن أن يكون من العطاء الحضاري للهجرة، الذي يتطلب الكشف عن استراتيجية عمل أو خارطة طريق من بعض الوجوه.

ولعل هذه المحاولة تلفت النظر إلى الكثير من الأبعاد، التي تكاد تكون غائبة بالأقدار المطلوبة، سواءً في ذلك البعد الدعوي أو السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو الثقافي... إلخ.

ولا ندعي أننا بهـــذا الطرح أحطنا بعلم الموضـــوع من كل جوانبـــه، وإنمـــا هي محاولة لاستدعاء ملف الهجرة، وفتح آفاق ومجـــالات وملامـــح للنظر جديدة، ومن زوايا إضافية، خاصة بعد هـــذا التـــداخل والتمـــازج والتفاعل والتعايش البشري، من هنا رأينا فتح مجموعة من النوافذ للإطلالـــة منها على الموضوع، قد تتجاوز ما اعتدناه مـــن «التقـــديم» إلى المـــساهمة والمشاركة في تأطير الموضوع ليشكل رؤية للباحثين والدارسين تتطلب مزيداً من النظر والإنضاج.

فالهجرة سنة النبوة، فهي مدافعة للواقع، وممارسة للتغيير، وهي جهـــاد بالوسائل المشروعة وتجنب المواجهة؛ حيث تبقى المواجهة حالـــة اســـتثنائية للدفاع والحماية ورد العدوان وإزالة العوائق من طريق الدعوة إلى الـــدين، وليست لإكراه الناس؛ والجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، فالهجرة قائمة ودائمة ومستمرة إلى يوم القيامة، وكل شيء في هذا الكون في حالة هجرة مستمرة، في حالة تغير وتغيير، تطور وتطوير؛ والهجرة القاصدة تبدأ من داخل النفس، فالأعمال بالنيات، فمن كانت هجرتـــه إلى الله ورســـوله فهجرتـــه إلى الله ورسوله؛ والمهاجر هو المرتحل من الحاضر، الواقع، إلى المـــستقبل الزاهـــر، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه، فالمسلم في الأصل مهـــاجر، والمهـــاجر مواطن عالمي يحمل رسالة الإنقاذ والحضارة للعالم ويضحي بمألوفه ومعروفه في سبيل استنقاذ الناس ودعوتهم إلى الخير.

وللهجرة في تاريخنا الثقافي والحضاري أعماق وآفاق أكبر من أن يحاط بها.. والذي يستوعب بعض مفاعيل الهجرة في تاريخنا الحضاري والثقافي والسياسي والعلمي والدعوي، ويستوعب عطاءها الذي كان ولا يزال سبيلاً لفك الحصار وتحقيق الانتشار والاستقرار وحمل قيم الدين إلى الناس، وتوفير حرية الاعتقاد للأمم والشعوب، والحيلولة دون ممارسة الفتنة والإكراه في الاختيار، وصناعة حضارة إنسانية تساهم فيها كل العروق والأجناس والألوان والثقافات، وما أنتجته من التغيير في منظومة الحياة الإنسانية والاقتصادية وتحقيق السعة في الرزق ومراغمة الأعداء، ابتداءً من الهجرة الأساس من الكفر إلى الإيمان ومروراً بالهجرة الأولى إلى الحبشة وارتكازاً إلى الهجرة إلى المدينة وإقامة المجتمع والدولة وعقد الأخوة وبناء ميثاق المواطنة، ووصولاً إلى هجرات الابتعاث الحديثة ودورها في التعرف على (الذات) من خلال (الآخر)، يدرك الأهمية الكبرى لاجتهاد سيدنا عمر، رضي الله عنه، المبكر باعتماد التاريخ الهجري والتأريخ بالهجرة، بأبعاده الشرعية والثقافية والسياسية والاقتصادية والتاريخية والمستقبلية، وأن هذا لا يقل أثراً عن اجتهاداته المفصلية، التي وافقها الوحي في كثير من الأحيان وشكلت رؤية حضارية خالدة ممتدة تحول دون الحصار والعطالة، لا ينضب عطاؤها وتدفع إلى الاستزادة من المفاعيل الإيجابية.

وقد يكون من الأمور المطلوبة عندما تشتد المحن ويستحكم التقليد وتتداعى الأمم ويكثر التبعثر وتتحكم النظرات الجزئية إدراك أهمية التمحور حول مثل هذا الاجتهاد المقاصدي في رؤيته المبكرة وتداعياته المستقبلية،

وإعطاء الاجتهاد العمري مكانه ومكانته في بناء العقل المسلم، الذي يفقه النص ويفهم الواقع ويستشرف المستقبل ويعيد الأمور إلى نصابها.

والإسلام رسالة إنسانية عالمية، والهجرة هي وسيلة التوصيل والتواصل والبيان والبلاغ ونشر الدعوة وتوطينها في العالم واستنقاذ الناس، فتاريخنا هجري، بكل ما يحمل من أبعاد ودلالات حضارية وتاريخية ومستقبلية، وثقافتنا هجرية، وحضارتنا هجرية، ودعوتنا هجرية؛ والإسلام كعقيدة دين لا يعرف الحدود الجغرافية واللون والعرق اهتم ببناء الأمة، وأمة الإسلام منتشرة في العالم كله اليوم، كل ذلك بسبب الهجرة والسفر، والأمة غير الدولة، فالأمة باقية والدولة دائلة - كما أسلفنا- ولعل الهجرة من بعض الوجوه من أسرار خلود الإسلام واستمراره.

إن القعود عن الهجرة انطفاء للفاعلية، وتعطيل لسنن المدافعة في الحياة، وسكون وعطالة، وخضوع للذل والاستضعاف، الذي لم يرضه الله للمسلم، واستدعاء لسنة الله في القاعدين عن المجاهدة: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ (التوبة:٢٤)، فهل نعيش حالة من الانتظار والتربص لما سوف يحل بنا لقعودنا عن النفرة للفقه في الدين وإبصار المعرفة وتحقيق الوقاية والحذر؟

ونحن لا ندعي أننا بهذا الكتاب، الذي يشكل نواة للموضوع قد استوفينا ما نريد وحققنا النظر من الزوايا المتنوعة لموضوع هجرة الكفاءات، فكثيرة تلك الزوايا المهمة والمعطلة، التي تستدعي النظر والاجتهاد للارتقاء، وإنما الذي قصدنا إليه استدعاء الموضوع إلى مجال التفكير والنظر لعلنا نعاود قراءة الهجرة بأبجدية جديدة صحيحة، ونولد أحكاماً شرعية متجددة في ضوء مقاصد الشريعة ومصالح المسلمين، بحيث تشكل لنا المفاهيم الجديدة التجديدية نقلة نوعية صوب استرداد رسالة المسلم في حقبة العولمة.

ويبقى ملف الهجرة من الملفات المطروحة والمفتوحة للاجتهاد والنظر، فهو ممتد امتداد الحياة نفسها؛ لأنه من لوازمها.

والله غالب على أمره.

الهجرة ومأزق الهوية

د.إدريس مقبول

هناك حاجة من دون شك تدعونا لتأمل حركية «الإنسان العربي والمسلم» على هذه الأرض ودراستها في أي اتجاه؟ وعلى أي أساس تكون؟ وما دور«الواقع» في الدفع إلى هذه الحركية؟ وهل هو «الواقع» فقط من يدفع ويحرك في اتجاه الهجرة أم أن ثمت عوامل جذب خارجي لها نسبتها في هذه الحركية؟ ثم ما هو تأثير هذه الحركية الاختيارية تارة والقسرية تارة أخرى على كينونة ووجود وهوية هذا الإنسان؟

في هذه الورقة سنعمد إلى تحليل ونقد «الوجه المظلم من القمر» كما يقال، أي واقع هجرة قطاع كبير من الشباب العربي في اتجاه «الغرب» تحديداً، هذه الهجرة التي كان لها بالغ الأثر على هذه النوعية الخاصة من طاقاتنا الحيوية وعلى بلدانهم، بما تمثله هذه العملية من تكريس للتخلف عبر

إهدار لكفاءات[1] هؤلاء الشباب في بعض الأحيان ومن تذويب لكياناهم ومن تمزيق لهوياهم التي تمثل رأسمالاً إدراكياً لا يقدر بثمن.. إن بحثنا سيكون عن «كلفة» هذه الهجرة على صعيد«الهوية».

ولعلنا نبدأ في معالجة هذا الموضوع من قضية ذات حساسية معرفية مرتبطة بالعقل العربي، نعتقد أن فهمها كفيل بمنحنا قدرة تفسيرية لجزء من الظاهرة، ذلك أن الظاهرة في كليتها «مركبة» ولا تخلو من وجه إيجابي خصوصاً حين تكون «واعية» و«مؤسسة» وتنحو في اتجاه إرساء تجربة تلاقح واستمداد لعناصر القوة ينتهي بالعودة لاستنبات التجارب الناجحة في البلدان الأصلية والمساهمة في مجريات التنمية الداخلية، أو حين تكون انخراطاً واعياً في اتجاه تشكيل جبهة مختلفة للدعوة والحوار والتأثير فيما يخص قضايا الأمة المصيرية، ذلك أن جوهر فلسفة الهجرة من منظور إسلامي لا ينفك عن قضية التدافع الواجب بجميع ممكناته التي يدفع إليها الحرج والاضطهاد أو طلب منافذ أخرى للإبداع والتوسع.. لكنه لا يكون أبداً من باب «المغلوبية» المنبهرة بسلطان «الغالب»؛ لأن الانبهار تعبير انفعالي غاية في السطحية، والموقف الإيماني فيه عمق يأبى أن يكون سطحياً.

فما حقيقة «الهجرة» اليوم إلى الغرب؟ وكيف تقتات على رصيدنا من الهوية؟

---

(١) يراجع: عبد الجليل التميمي، استمرار هجرة الكفاءات العربية: أحد أبرز مظاهر التخلف العربي، ضمن المجلة التاريخية المغاربية، مركز البحوث والدراسات العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان،١٩٧٤م، ع١٤١، ص٧٥-٨٣.

- الهجرة وعقدة الانبهار:

الانبهار بـ(الآخر) واحد من أهم المعيقات النفسية أمام الإنسان العربي المهاجر والتي تحد من قدرته على الإبداع والعطاء وتجعله أسير سياقه، غير قادر على الفعل والتأثير، حسير البصر، لا يملك أن يجاوز تخوم الضرورات التي فرضها منطق تآكل الذات وتغول الآخر في الواقع السياسي العالمي.

حالة الانبهار هذه هي أول المؤشرات التي يمكن قراءتها عند نفر ليس باليسير ممن اختاروا الهجرة طوعاً أو كرهاً إلى الغرب، وهي عقدة نفسية مركبة تعكس غياب رؤية معرفية لتقدير طبيعة (الذات) و(الآخر) وما يترتب عن التحيز الساذج في رؤية (الآخر) المادية، ويمكن تلخيص هذا الموقف النفسي من الآخر (النموذج الغربي)، أو ما يطلق عليه الأستاذ حسن حنفي ظاهرة التغريب- بما يلي:

- اعتبار الغرب النمط الأوحد لكل تقدم حضاري ولا نمط سواه.
- اعتبار الغرب الإنسانية جمعاء وأوربا هي مركز الثقل.
- اعتبار الغرب المعلم الأبدي واللاغرب التلميذ الأبدي[1].

لاشك أن هذا الوضع الذي عليه كثير من المتأثرين من العرب اليوم، والموجودون في ديار الغرب مأتاه من مسرب تعليمي خطير[2] كرسته مناهج

---

(١) حسن حنفي، موقفنا الحضاري، من بحوث المؤتمر الفلسفي العربي الأول، ص٣٠.

(٢) للمزيد من المعلومات يراجع: العمل المفيد، للدكتور جلال أمين: خرافة التقدم والتأخر، العرب والحضارة الغربية في مستهل القرن الواحد والعشرين، ط١ (دار الشروق، ٢٠٠٥م) ص٩.

التربية والتعليم وبرامجها عبر سائر الأسلاك والمراحل[1] حيث رُتبت مواقف دقيقة على أسطورة الثقافة العالمية واعتبارها مرادفة لكل الثقافات المحلية وبديلاً عنها، لا فرق في ذلك بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية مع أن كل علم هو تعبير عن رؤية للعالم، وجزء من المكون الحضاري. وعلى كل منها التأقلم معها والتخلي عن خصوصيتها العالمية، وهو ما عرف في الانثربولوجيا الثقافية باسم المثاقفة أو التثاقف Acculturation.

الثقافة الغربية عند نفر كبير من المتغربين هي الثقافة العالمية، التي على كل ثقافة أن تتمثلها وتهاجر إليها وتسكن فيها باعتبارها ثقافة العقل والعلم والإنسان والحرية والتقدم والمساواة، ثقافة التنوير وحقوق الإنسان، في حين أن الثقافة المحلية مرادفة للخرافة والسحر والدين والقهر والتخلف والتعصب واللاعقلانية[2].

ومن ينظر ملياً في أسباب هذه الآفة التي دخلت على العقل العربي حتى بات يرى أن التقدم في أن يحاكي الغرب ويتماهى فيه شكلاً ومضموناً لفظاً ومعنى، فإنه لا يلبث أن يتبين أنها ترجع إلى كون السياسات التعليمية والتربوية في وطننا العربي والإسلامي أخلت بالركن الأساسي الذي تقوم

---

(١) يراجع في علاقة التعليم بالهجرة على سبيل المثال: دردة أحمد العلي: النظام التعليمي في الجزائر وهجرة الكفاءات (بيروت: المنارة، ٢٠٠٣م).

(٢) يراجع: حسن حنفي، المشروع الحضاري الجديد، الماضي والحاضر والمستقبل، ضمن مجلة الوحدة، ع١٠٥، ١٩٩٤م، ص١٩.

عليه الهوية وتحتمي به، وهو «مبدأ المحافظة الواعية» والتي تتجلى من خلال تقديم الخاص على العام، والتعريف بالمحلي والقومي قبل الكوني، والتحيز في (الذات) بدل التحيز في (الآخر)، وما يزال الأمر على حاله حتى صرنا في بعض أنظمتنا التربوية إلى تقليد (الآخر) ومتابعته «**حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ**» كما جاء في الحديث، حتى إذا دخل جحر ضب دخلناه. فتجد مناهجنا وبرامجنا التعليمية عبارة عن استنساخ كربوني لبرامج مستعمر الأمس فرنسياً كان أو إنجليزياً. وإذا ضاع المنهج والشكل تلاشى المضمون وتشوهت الأفكار، لأنه لا بقاء لمفردات الهوية مع دوام التقلب في استعارة الأشكال من الخارج من غير النظر في ملاءمتها مع حاجيات (الذات) وخصوصيتها.

وبهذا، يتضح أن النزعة الإمعية التي استحوذت على العقل العربي والمسلم هي أثر من آثار ما يسميه الدكتور طه عبد الرحمن «غياب معنى المعية الرافعة»[1]، التي يعتبر «التعالي» شاهدها الأمثل، المعية التي تستصحب نموذجاً أصيلاً وفطرياً وتاريخياً ممتداً بفروعه للمستقبل، ولا يضر هذه الهوية آنئذ أن تتوسط بالقيم المادية أو تزدوج بها، نظراً لأن هذه القيم تبقى تابعة لها ومسترشدة بها[2]. وينقلب النموذج السالب لعقول المقلدة إلى نموذج

(١) يراجع: طه عبد الرحمن، روح الحداثة، المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، ط١ (المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٦م) ص١٢٠.

(٢) طه عبد الرحمن، م.س، ص١١٨.

نسبي ومحدود، وهي مرحلة أولى ترشح لمرحلة تربوية يرتقي فيها العقل لينظر إلى النموذج باعتباره موضوعاً محل نقد لقصوره ومحدوديته واختزاليته، وبذلك نتخلص من عقدة إسار الغرب أو ما يسميه بعض الدارسين المرض بالغرب أو التغرب.

وإذا تبينا هذا جاز لنا أن نستوعب المقصد المنهجي من تقديم مبحث الانبهار بالغرب[1] في درس أسئلة الهوية عند المهاجر العربي؛ لأن مبحث الانبهار بالآخر هو أحد المفاتيح لمعالجة أزمة (الذات) الهاربة والمهاجرة، هذه (الذات) التي فقدت مناعتها وبوصلتها نتيجة لتضافر عوامل داخلية وأخرى خارجية فباتت تعرف كل شيء إلا اتجاهها في الحياة، وهو أعظم خطر يتهدد وجودها ورسالتها.

هذه الوضعية في الحقيقة هي وضعية أشبه ما تكون بالتيه في تصور الموقع والغاية والطريق، وهو تشويه ينعكس بقوة على مقومات الهوية التي يمكن أن نرصد بعض ملامحها الشائهة لدى المهاجرين العرب من خلال بعض أركان الهوية من قبيل: اللسان والدين والتاريخ والوطن.

لكن دعونا نبدأ القصة من بدايتها، وهي فيما نعتقد بداية الإغراء الذي تجر إليه عقدة الانبهار التي تحدثنا عنها قبل قليل.

---

(١) جلال أمين، خرافة التقدم والتأخر، م.س، ص١٤١، وما بعدها.

- غواية لا تقاوم:

الهجرة التي يستدعيها سياق الانبهار من نوعين:

هجرة معنوية وفكرية، وهي هجرة العقول والنفوس للسكن في هياكل (الآخر) وكل بناءاته وخراباته الفكرية، وهذه لها تأثير غاية في الخطورة خصوصاً حين يجد المرء نفسه متحيزاً في مصالح غيره مدافعاً عن خريطة غير خريطته، «كائن مستلب» بكلمة مختصرة.

وهجرة مادية، وهي هجرة الارتحال من مسقط الرأس وموطن الذكريات إلى موطن الاغتراب، بحثا عن أرض الأحلام، وحينئذ يقع السقوط.

وقبل السقوط كانت غواية الضفة الأخرى، «الفردوس الموعود»، ذلكم الحلم الجميل الذي يدغدغ منامات قطاع كبير من شبابنا اليائس في واقع متردد على سائر المستويات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية،.. حلم بسيارة ومسكن فاخر ورصيد بنكي يضمن استقراراً في هذه الحياة... حلم يمتزج فيه الإحساس بالغربة بصورة العودة للوطن، عودة «الظفر» و«الانتصار» و«الولادة من جديد» لكن بمواصفات «مادية» على الخصوص لا بد أن تكون مختلفة[1].

---

(١) يراجع للمزيد: رزيق المخادمي، الكفاءات المهاجرة بين واقع الغربة والحلم بالعودة، ديوان المطبوعات الجزائرية، ٢٠١٠م.

طبعاً، في واقع تنعكس فيه الفوارق بين المدن والجهات، وتنعدم فيه «العدالة التوزيعية»[1] ترتفع معدلات الغواية الغربية، فتجد المهاجرين إلى ضفة أوروبا أكثر ما ينطلقون من المدن الفقيرة والمناطق المهمشة[2].

في هذه المناطق التي تكاد تنعدم فيها فرص الشغل وظروف الحياة الكريمة بسبب السياسات التنموية المتحيزة لصالح المدن الكبرى والداخلية، تجد تنامياً لموجات الهجرة في صفوف الشباب في اتجاه «الألدورادو»[3]، وهي هجرة تذكرنا بـ«موسم الهجرة إلى الشمال» «للطيب صالح»، يرتفع الطلب عليها في كل صيف عند عودة الجيل الأول السابق من الشباب المهاجر في الإجازات والعطل لزيارة أهله في ظروف يغلب عليها

---

(١) تقتضي العدالة التوزيعية لدى منظرها جون رولز وجود حكومة قادرة على توزيع موارد المجتمع على الأفراد مع مراعاة قدراتهم ومؤهلاتهم العلمية. كما تقتضي منح الناس الخدمات التعليمية والتربوية والصحية والترويحية والاجتماعية التي يحتاجونها بالتساوي، وعدم منح هذه الخدمات لفئات معينة دون غيرها. يراجع: قاسم حسين صالح، نحو نظرية في الإبداع، مجلة العلوم النفسية، بغداد، ع٢، ١٩٩٤م، ص٩٥.

(٢) يراجع: بوناح كمال، هدر وتسرب النخب الجامعية في دول المغرب العربي، ضمن مجلة العلوم الإنسانية، بقسنطينة، ع١٢، ١٩٩٠م، ص٥٧-٦٢.

(٣) هي أسطورة ارتبطت أول الأمر بأدغال الأمازون. وهي تحكي عن مملكة ذهب عظيمة تعرف باسم الدورادو، وبالنسبة للمهاجرين فإنهم يحملون في مخيلاتهم عن الضفة الأخرى ملامح من هذه الأسطورة حيث الثروة متكدسة والذهب في كل مكان. جاء الإسبان إلى هناك في نهاية القرن السادس بحثاً عن الدورادو. لم يعثروا عليها ولكن يعتقد أنها هناك.

«المفاخرة» و«المظهرية» التي تلعب بعقول من لم يتيسر له بعد سبيل للضفة الشمالية.

الغواية هنا هي مجموع ما تمارسه الهجرة من آليات هيمنية وإغرائية بصورها المادية والرمزية على خارطة العقول اليائسة وصفحة النفوس القلقة، فتعمل على تفتيت ما بقي صامداً من أعمدتها، وهي أعمدة الهوية، فتستحيل هوية ضعيفة وخاوية لا تملك الصمود ولا المقاومة فتوشك أن تقع فريسة للاستلاب والاختراق.

غواية «الغرب» كانت بداية قصة المغامرة لدى زمرة كبيرة من شبابنا بمستقبله نظير معانقته لأرض المهجر التي جمعت كل المحاسن في مخيلته، حتى باتت تسكن كل كيانه وتملك عليه كل حركاته وسكناته، وباتت كل تطلعاته مرتهنة بفرصة للعبور إلى هناك بأي وسيلة كانت، شرعية أو غير شرعية.

غواية وإغراء لا تكاد تخطئه العين حين تواجه المهاجرين فتقرأ في عيونهم بريقا يختزل الصورة العجائبية، التي يحملها كل واحد عن الضفة الأخرى، مزيج من الرغبة المحمومة في التخلص من الواقع والارتماء الحر في أحضان الفردوس الأوربي.

وطبعاً بعد الوصول تبدأ حكاية أخرى مؤلمة بما تخلفه جروح الاغتراب ويبدأ معها ضياع الأجزاء وتفكك الأركان وتلاشي الذات وذوبانها.

- المهاجر العربي والتفكك اللساني:

لاشك أن الهجرة هي واحدة من أهم سبل تحقيق التعارف بين الشعوب والمجتمعات[1]، فهي من هذا الوجه ذات بعد حضاري في كل زمن وتحديداً في زمن العولمة التي قلصت المسافات[2]، لكنه يعرض لكثير من المهاجرين العرب بأن يختل أهم ركن من أركان هويتهم، وذلك بأن تتبلبل ألسنتهم الأصلية مع اندماجهم في مجتمعات غير عربية خصوصا مع نفسيات تحمل الهزيمة الحضارية تجاه الغرب، فاضطرارهم لتعلم الألسنة الأجنبية يؤدي إلى ظهور أشكال من الرطانة والفساد اللغوي بحيث يتداخل النسقان اللسانيان لدى المتحدثين الذين لم يخضعوا لتكوين لغوي كاف، فتسمع «رطانة»[3]

---

(١) يراجع: إبراهيم رضا، الهجرة والترحال أساس التعارف والتثاقف بين الشعوب والحضارات، ضمن أعمال ندوة: التراث الشفهي: سؤال الهجرة والترحال، نظمتها كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط بتعاون مع مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود بالبيضاء، ٢٠٠٨م، ص١٣-٣٢.

(٢) يراجع: السليطي مصطفى، المهاجرون في زمن العولمة، بين صدام الحضارات والحنين إلى الهوية (تونس: الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم، ٢٠٠٩م).

(٣) عن الرطانة Pidgin كشكل من أشكال التخليط وارتباطها بتجارة العبيد يراجع:
هدسون، علم اللغة الاجتماعي، ترجمة محمود عياد (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٩٠م) ص١٠٠.

أو قل لغة «خليطاً» من العربية والفرنسية أو العربية والهولندية أو الألمانيـــة على ألسنة المهاجرين من شمال إفريقيا، خليط هو دليل علـــى الاضـــطراب والتمزق والتفكك.

وتظل هذه الحالة ملازمة للمتحدثين حتى بعد عودتهم من بلدان المهجر في فترات العطل والإجازات، إذ لا يجد المستمع عناء في تمييز هذه الفئة مـــن «العائدين» بنصف لسان، لا هو باللسان العربي ولا باللسان الأجنبي.

وقد يرتقي هذا النوع من الســـلوك اللساني لدى البعض ليشكل لديه ما يسمى بالتناشز المعرفي، وهي حالة من التناقض بين المعتقدات التي يحملها الفرد وبين السلوك الذي يصدر عنه، وعادة ما يؤدي التعارض أو التنـــاقض إلى إحداث حالة من التوتر وعدم الارتياح[١].

فكيف يعيش العرب حياتهم مع عربيتهم، تعلماً وتعليماً؟

لابد أن نشير إلى أن العربية باعتبارها لغـــة ثقافـــة وهويـــة لأجيـــال كثيرة من المغـــتربين لا تزال لا تحـــظى بما يلزم من إدماج على الأقـــل في نسق التعليم والتربية بالغرب، فهي على أحسن تقدير ما تزال اختياريـــة وفي إطار التعليم التكميلي بسقف ساعات محدود جداً، بل وفي بعـــض الـــدول ما تزال الجمعيات والنوادي والمراكز الإسلامية والعربية هي وحدها من يقوم

---

(١) L.Festinger,An Introduction to the Theory of Dissonance, in Edwing P Hollander and Raymond G ;Hunt, eds; Current Perspectives in Social Psychology: Readings with Commentry,2ed; Oxford University Press, 1967; p347-348.

بأعباء النهوض بالعربية في إطار برامج حرة وتطوعية، وإن كانت تعرف بعض الإقبال المتزايد في السنين الأخيرة، لكنها تظل دون التطلعات بسبب غياب لوبي عربي إسلامي قوي بما فيه الكفاية لفرضها من باب الحقوق اللغوية وحمايتها من التلاشي والضياع في ظل الصراع والحروب التي بين اللغات[1].

تبين لنا التقارير التي تناولت تجربة تدريس العربية على سبيل المثال في فرنسا أن هذا التعليم كان يواجه صعوبات عديدة ومشاكل لا حصر لها (ومازال يواجهها)، الأمر الذي جعله لا يحقق أهدافه المنتظرة، ومرد ذلك إلى الأسباب و العوامل التالية:

- من جهة هناك قلة الوقت المخصص لتعليم اللغة العربية، فالوقت يتراوح بين ساعتين وساعتين ونصف والباقي يستهلك في أوقات الراحة.

- من جهة أخرى: عدم إدراج نتائج هذا التعليم ضمن تقويم نشاط التلاميذ؛ لأن تعليم اللغة العربية يعتبر مادة اختيارية منذ البداية وهذا ما جعل الكثير من الأولياء يصرفون ويبعدون أولادهم عن هذه الحصص لأنها (كانت حسب رأيهم) على حساب أنشطة رسمية أخرى.

---

(١) للمزيد عن الحروب اللغوية يراجع:

-Ronald Wardhaugh, Language in competition :Dominance, Diversity, and Decline, 1987, Oxford, Blackwel; p10-18

-Louis_ Jean Calvet , La guerre des Langues et les Politiques Linguistiques, Hachette littérature, 2005.p2

- ثالثاً: معارضة مديري المدارس لهذا التعليم ولذلك كانوا يحاولون العرقلة بعدة أشكال منها:

١- برمجة حصص تعليم اللغة العربية في الأوقات المخصصة للنشاطات التي يميل إليها التلاميذ أو في المواد الأساسية.

٢- تحريض الأولياء على تنفير أبنائهم من تعلم لغتهم؛ لأن ذلك يرهقهم ويسبب فشلهم في المواد الرسمية ولاسيما في أوقات الاختبارات الفصلية.

٣ - تخصيص نشاط عمل المعلمين في أوقات غير ملائمة.

ومما يزيد في تضخيم العراقيل «قانون شفنمان»، الصادر في ٢٣ أبريل سنة ١٩٨٥م، الذي جعل كل المواد الملقنة في المدارس الفرنسية مواد إجبارية بما في ذلك الأشغال اليدوية والرسم والموسيقى والرياضة البدنية إلخ.. وفي نفس الوقت كان يمنع أن يتجاوز التوقيت الأسبوعي أكثر من ٢٧ساعة وهذا يعني منع الطفل العربي من تعلم لغته لأنه لا يسمح له بالغياب أو بالوقت الإضافي.

وأخيرًا وليس آخراً: ليس هناك استمرارية في تعليم اللغة العربية في المراحل الموالية للتعليم الابتدائي مما يتعذر على التلميذ أن يواصل تعلم اللغة العربية داخل المؤسسات الفرنسية للتعليم الثانوي[1].

---

(١) محمد الطاهر زرهوني، لمحة عن تعليم اللغة العربية لأبناء الجالية الجزائرية بالمهجر، ص٦-٧، ضمن أعمال المائدة المستديرة التي نظمها المجلس الأعلى للغة العربية بالجزائر تحت شعار: تعليم اللغة العربية بالمهجر: الفرص والعوائق، ص٦-٧.

إن المشكلة كما يقول أحد الباحثين تكمن في صعوبة التنبؤ بمستقبل أبناء الجاليات العربية والإسلامية في الغرب حيث يتضاءل بمرور الوقت وزن الثقافة العربية الإسلامية المحيطة بهم وينكمش بفضل متغيرات كثيرة يصعب التحكم فيها، في الوقت الذي يشتد فيه عنف المناخ الثقافي المقابل وطغيانه في حياتهم.. فالمحيط الذي هم فيه لا يستخدم إلا لغة البلد الذي يعيشون فيه[1].

وليس هذا فحسب ما تعانيه اللغة العربية كجزء من هوية المهاجرين في الغرب، وإنما يزيد من ضعفها الوظيفي طبيعة النظرة الدونية والانتقاصية التي لا تنفك عن الصورة النمطية التي يحملها قطاع كبير من الغرب عن العربية ثقافة وتاريخاً وحضارة وديناً[2]، وما ارتبط بها من فوبيا مصطنعة عن العرب والإسلام، والتي تنسحب على حامل هذه الثقافة ومتكلم هذه اللغة فتكرس إبعاده عنها وتحيزه في غيرها وإهماله لها[3].

---

(١) رشدي أحمد طعيمة: «تعليم العربية لغير الناطقين بها في المجتمع المعاصر: اتجاهات جديدة، وتطبيقات لازمة»، ضمن ندوة اللغة العربية إلى أين؟، الإيسيسكو، ٢٠٠٢م، ص٣٤٩.

(٢) يراجع: الأمين بامبا، «صورة الإسلام في حملات التشويه الغربية»، ضمن سلسلة تصحيح صورة الإسلام، (فاس: مطبعة أنفو برانت ، ٢٠٠٦م) ص٧٥.

(٣) Senac, Philippe, L'Image de l'Autre: histoire de l'Occident médiéval face à l'Islam, Ed., Flammarion, Paris, 1983, p. 24.

- المهاجر العربي وسؤال الجغرافيا:

تطرح قضية هجرة الإنسان العربي عن وطنه أكثر من سؤال في سياق موضوعنا، ذلك أن تفاصيل الحياة في الوطن العربي باتت تدفع الكثيرين في اتجاه المغادرة بعد أن ضاقت سبل العيش الكريم واتسعت الهوة بين طبقات المجتمع، ولسان حالهم يقول كما قال الشاعر:

إنا وجدنا بلاد الله واسعة ... تنجي من المخزاة والذل والهون

فلا تقيموا على ذل الحياة وخز ... ي في الممات وعيب غير مأمون

لقد استحال الإنسان العربي في وطنه إلى مجرد وجود بدون معنى فاقد لركن من أركان الهوية وهو الارتباط بالوطن والولاء له.

إن الولاء للوطن والأمة هما الأساس في تشكيل هوية الفرد؛ لأنها «الذات الجماعية لأفراد الأمة كلهم، والمس بها يمس بكيان الأمة كله ويمس في الوقت نفسه كل فرد منها على السواء؛ لأنه شك في الماضي وطعن في الحاضر ويأس من المستقبل»[1].

لقد أصبح «الوطن العربي» بيئة طاردة بامتياز للإنسان عموماً، للإنسان الذي يرغب في الحرية والكرامة الإنسانية وفي التغيير، كما أنه أصبح أيضاً

---

(١) علي الدين هلال، في الهوية القومية، ضمن مجلة المستقبل العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ع٥٧، المجلد ٦، ١٩٨٤م، ص٧.

طارداً للكفاءات العلمية خصوصاً في اتجاه البحث عن بيئات «تُقَدر» قيمة الجهد الإنساني وتعطي على الإبداع وتشجع عليه[1].

والوطن بهذا الوضع أصبح يفقد مع الوقت جاذبيته في النفوس، بل أصبح يتراجع في خارطة مكونات الهوية لدى جيل عريض من الراغبين في الهجرة أو الذين تيسر لهم طريق العبور إلى الغرب بحثاً عن «بلد آخر»[2]، بل أصبح مفهوم «المواطنة» لا يجد له الإنسان العربي والمسلم معنى ولا طعماً إلا حين يهاجر فيقف على المعاني التي تجعل من المفهوم حياة تملأها الكرامة واحترام الحقوق ورعاية إنسانية الإنسان بموجب القوانين لا المجاملات أو الوسائط الزبونية، التي أفسدت الحياة العربية العامة.

إنه لا جدال في أن مكون الوطن باعتباره «جغرافيا مقدسة» لها حرمتها وقيمها وواجباتها على من ينتسبون إليها تستدعي رعاية هذا الركن بما هو أداة للمحافظة والانفتاح في نفس الوقت، والواقع أن بعض الباحثين

---

(١) أصدرت الجامعة العربية ومؤسسة العمل العربي والأمم المتحدة تقارير متعددة عن التنمية الإنسانية، وتحمل هذه التقارير إلى جانب الوقائع أرقاماً حول هجرة العقول العربية إلى الغرب والتي وصلت إلى ٣١% مما يصيب الدول النامية بما فيها الدول العربية، كما ذكرت هذه التقارير أن أكثر من مليون خبير ولختصاصي عربي من حملة الشهادات العليا أو الفنيين المهرة مهاجرون ويعملون في الدول المتقدمة، بحيث تضم أميركا وأوروبا ٤٥٠ ألف عربي من حملة الشهادات العليا وفق تقرير مؤسسة العمل العربي الذي يمكن تحميله من على موقعها.

(٢) في إشارة إلى رواية «بلد آخر» للكاتبة الجنوب إفريقية «نادين غورديمير» التي حصلت على جائزة نوبل سنة ١٩٩١م، وهي رواية تعالج قضية الهجرة والهوية، وقد ترجمها للعربية سامر أبو هواش، وقد صدرت عن مشروع «كلمة» للترجمة التابع لهيئة أبو ظبي للثقافة والتراث الترجمة العربية.

يعتقد أنه «لا هوية إلا وتبدي انغلاقاً وانفتاحاً في آن»[1]، ونحن نحتاج في الحقيقة لأن نراجع حدود هذه المرونة في كل وقت لأنها مرونة تداولية راجعة لطبيعة الإنسان الزمنية والتاريخية. غير أن هذه المراجعة لا تعني سيولة الهوية الوطنية كما لم تكن تعني تصلباً وتحجراً في الارتباط[2].

وفي علاقة بسؤال الوطنية أو المواطنة يظهر أن حل هذا الإشكال راجع إلى تقوية الارتباط من قبل القائمين على تدبير السياسات بالإنسان في هذه الدول وذلك عبر برامج تحقق العدالة الاجتماعية وترسخ قيم الحرية والكرامة والمساواة وحقوق الإنسان وتعيد الثقة للإنسان وتحد من قلقه على المستقبل[3]، حتى لا نصير إلى وضع يطلب فيه المواطن العربي وطناً آخر يفضله على وطنه الأصلي، أو وضع آخر لا يقل عنه خطورة حيث يستجيز عدد من الكوادر العربية في مختلف القطاعات التنموية والعلمية الحيوية الهجرة إلى أوربا وكندا وأمريكا للعمل في مؤسسات تقدم لهم إغراءات مادية تحرم وطنهم من الاستفادة من خبراتهم، التي يقدمونها مع قدر ليس باليسير من مواطنتهم وهويتهم وانتمائهم.

إنه أمر بالغ الخطورة ينبغي للجهات الرسمية في بلداننا العربية أن توقفه؛ لأنه نزيف العقول أو «المادة الرمادية» أغلى ما تملكه الأمم والشعوب.

---

(١) علي حرب، نقد الحقيقة، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٣م، ٨٧.

(٢) للمزيد عن هذا الموضوع يراجع على سبيل المثال: علي حمدان، إشكالية الهوية والانتماء، ضمن سلسلة الأستراليون العرب، ج١، نشر المركز الأسترالي العربي للدراسات السياسية، ط١، ٢٠٠٥م، ص٢٩.

(٣) يراجع للمزيد من المعلومات عن الخلفية النظرية لقلق المستقبل وصلته بالعدالة التوزيعية والتلمذ المعرفي وغيرها من القضايا: محمود شمال حسن، قلق المستقبل لدى الشباب المتخرجين في الجامعات، ضمن المستقبل العربي، ١٩٩٩م، ع١٤٩، ص٧٠-٨٥.

- الإنسان العربي وسؤال التاريخ:

وإذا كان وضع المهاجر العربي مع الجغرافيا على ما ذكرناه، فإن وضعه مع التاريخ لا يقل حرجاً إذ هناك مفارقة تعترض المتأمل في علاقة الإنسان العربي المهاجر بسؤال التاريخ باعتباره مكونا من مكونات الهوية ينبغي رعايته والمحافظة عليه في مجموعه، هذه المفارقة ينزل فيها الواجب التاريخي على الجيل الجديد خصوصاً منزلة الثقل أو لنقل العبء؛ وذلك لأن الجيل الشبابي الجديد المهاجر يعيشون للمستقبل أكثر من عيشهم للماضي أو الحاضر، يقول الدكتور عزة حجازي: «لما كان الشباب لم يعيشوا الماضي، فليس عندهم ما يجعلهم يحنون إليه أو يعتزون فيه، وبما أن الحاضر ليس من صنعهم ولا يشاركون في إدارته، فليس فيه ما يدفعهم إلى التمسك فيه، فضلاً عن الدفاع عنه. أما المستقبل فإنه لهم ولهم، رضوا أم أبوا، وهو مفتوح غير متعين، ومن ثم فهو مجال خصيب لأحلامهم وآمالهم وطموحاتهم... إنهم قادرون على أن يصنعوا فيه المستحيل»[1].

إن هذه الرؤية رغم تفاؤلها بمستقبلية الجيل الجديد وتسجيلها للمفارقة من زاوية خاصة إلا أنها أغفلت شرطاً أساسياً في تصور هذا الجيل الفريد

---

(١) عزت حجازي، الشباب العربي والمشكلات التي يواجهها، سلسلة عالم المعرفة، ع٦، الكويت، ١٩٧٨م، ص ٣٩.

وهو ارتباطـــاته النفسية والروحية والثقـــافية بذاكرته الجمـــاعية والقومية، التي تشكل جزءاً من كينونته. وبدونها يكون أشبه بلقيط مهمـــا تقـــدمت معـــرفته وإدراكه لخريطـــة مستقبلـــه، ثم إن مستقبلـــه يتهدده التزلزل إن لم يحسن قراءة تاريخه جيداً. إذ هو في الجوهر لا يكاد ينفك عنه وإن حاول إلا أن يكون كائناً مقطوعاً مفصولاً عن أصول انحدر منها يتغـــذى عليهـــا وعلى خبراتـــها وتراكماتـــها حتى لا يعيد الأخطاء. فالتاريخ علاوة علـــى كونه ركناً من أركان الهوية هو مدرسة يتجلى فيها ذكاء منـــاورة أخطـــاء التاريخ، وفيها يمتاز الكائن البشري عن الحيوانات إذ لا تاريخ لها تـــستلهمه على الأصح.

في الغرب يندهش الإنسان حين يواجه جهلاً مطبقاً يتفـــاوت لـــدى الجاليات العربية المهاجرة، وخصوصاً الأجيال التي ولدت هناك، عن تـــاريخ أمتهم ومجتمعاتهم، هناك ما يشبه معاداة الذاكرة والتاريخ لدى أجيال الهجرة، بسبب طبيعة الثقافة الغربية والمناخ التعليمي الذي قطعهم عن أصولهم.

في دراسة أجريت على كتب التاريخ المدرسية الفرنسية للصف الخامس (الصف الأول الإعدادي) في سنة ٢٠٠٠م والتي يدرسها مع الفرنسيين جزء من المهاجرين العرب والمسلمين، تبين من خلالها أن الصورة السلبية للإسلام وللمسلمين والعرب تتمثل فيما تقدمه من مفاهيم خاطئة عن الثقافة العربية والخلافة والوحي وصورة النبي ﷺ والشريعة وتعدد الزوجات وميراث البنت والولد.. وفي هذه الكتب المدرسية بالذات يتم ربـــط الجهـــاد بـــالتطرف

والإرهاب واعتبار الإسلام ديناً لا تتفق مبادئه وتعاليمه وقيمه مع مبادئ وتعاليم وقيم الحضارات الكبرى وتعني بها الحضارة الغربية(١).

يتساءل المتتبع كيف لأجيال أبناء المغتربين الذين يطالعون هذا النمط من المعلومات الشائهة عن أوطانهم وعن تاريخ آبائهم وأجدادهم أن يكون لهم وعي سليم وصورة مكتملة وناضجة عن جزء من هويتهم، إنها شحنات من التضليل الذي يزيد من معاناة هذا الجيل في سبيل إطلاعه على أصوله وتاريخه الحقيقي(٢).

إن طبيعة الاندماج الذي تقتضيه الهوية المزدوجة أو المفتوحة لهذا الجيل المغترب لا تفترض في تصورنا انغلاقاً أو دعوة للتصلب تجاه (الآخر) وثقافته، بقدر ما تستدعي ضربا من التوازن الذي يحفظ له حقه في معرفة أصوله وتاريخه ولغته على حقيقتها لا كما تصنعها الدعاية الإعلامية والبرامج المدرسية الموجهة بالنَفَس الاستشراقي الحاقد، والتي تغذيها السياسات اليمينية المتطرفة تجاه الأجانب.

نقول هذا ونحن نستحضر أن الإنسان المسلم على وجه الخصوص لا ينبغي أن يحمل رؤية شوفينية عن تاريخه بقدر ما يتسلح بالرؤية المعرفية

---

(١) أحمد بشنو، نظرات في حملات تشويه صورة الإسلام والرسول في الإعلام الغربي والبرامج التربوية بفرنسا، ضمن سلسلة تصحيح صورة الإسلام، م.س، ص٦٥.

(٢) Nasr, Marlène, «l'image des Arabes dans les manuels de lecture de l'enseignement primaire», Mots / Les Langages du politique, N°30, mars 1992.

الواقعية والعلمية التي تجعل من ماضيه سجلاً للدراسة والاعتبار بأبيضه وأسوده، كما يستضمر مبدأ الالتزام بالتغيير نحو الأحسن، ليس تغيير الأصول ولكن تغيير الملامح التي تنهض بنا وتتناسب مع كل مرحلة، وتلك هي رسالة المؤمن حيث كان، سواء في وطنه أو خارجه، ومن هنا تكمن أهمية التاريخ، وتكمن الوصفة المطلوبة لهوية عربية إسلامية عريقة وتطلعية في نفس الآن، قادرة على أن تكون هي هي في أثناء عملية التواصل والتفاعل والتكامل مع الآخرين، كما أنها قادرة على الأخذ والعطاء من دون حدود وعلى النمو والتطور والتقدم العلمي ومواكبة الحضارة وكل ما هو جديد دون أن تفقد الأصالة والرسوخ في أرض الفاعلية.

إن هوية المهاجرين في علاقتها بالتاريخ القومي لأمتنا شيء ثابت وليست شيئاً جامداً، فهي خلاصة تاريخ من التجارب الثقافية والحضارية، وتعتبر أمراً قابلاً للتعديل والتكيف والتفاعل مع الهويات الأخرى شريطة أن يتم ذلك باختيار واع ضمن معادلة متكافئة ولحاجة ضرورية للأمة[1].

ولا ينبغي في نظرنا أن يهيمن التاريخ الذي ندعو لرعايته ضمن مشمولات الهوية على مسار الهوية ذاته فيشدها إلى الخلف ويمنعها من التطلع إلى بلوغ المواقع المتقدمة بما يؤهلها لأن تكون دائما في حالة تجدد وتطور واستمرارية.

---

(١) سمية عبد القادر سليمان، المجتمع العربي بين التمسك بالهوية والاندماج العالمي، بنغازي ليبيا، ط١، ٢٠٠٦م، ص٢٠٦-٢٠٧.

ينبهنا «جاك بيرك» إلى أهمية التاريخ في حياة الأمة بقوله: «إن الهوية لا تنفصل عن التاريخ. ولكن لكي نحافظ على الهوية عبر تتابع الأطوار التاريخية لا بد من وجود ثوابت بدونها سيكون الأمر تغييراً في الكينونة»[1]. وإذا تغيرت الكينونة تغيرت الملامح الأساسية التي تحفظ بقاء الهوية وبالتالي بقاء النوع الثقافي.

إننا اليوم في مسيس الحاجة لأن نطالب من أجل الحفاظ على نوعنا الثقافي في المهجر بإعادة النظر في برامج التاريخ العام، التي تقدم لناشئتنا من المهاجرين، بحيث يقوم على كتابتها مختصون عرب ومسلمون برؤية تحمل الإنصاف لا التجني وبلغة علمية بعيدة عن البيان المريض، الذي يتفنن في رسم صورة بعيدة عن الواقع، كما ينبغي أن نركز في برامج التاريخ هذه على الكفايات الاستنتاجية للدروس والعبر توخياً لجعل التاريخ درساً حياً في وجدان شبابنا المهاجر يستلهمونه ليظل الاتصال بالجذور متقداً وحياً، ويستمدون منه القوة لبناء المستقبل لهذه الأمة ولهذا الدين.

---

(١) جاك بيرك، مقابلة أجراها بدر الدين عردوكي، الفكر العربي، ع ٢، ص ٢٨١.

التأسيس الشرعي
لعطاء الكفاءات المهاجرة

أ.د.محماد بن محمد رفيع

- مقدمة:

يروم البحث في هذا الموضوع رصد الأصول الشرعية، كتاباً وسنة واجتهاداً، التي ينبني عليها العطاء الحضاري والتواصل الدعوي للكفاءات المهاجرة من المسلمين، وذلك من خلال تتبع واستقراء نصوص الكتاب والسنة وشروحها في المدونات التفسيرية والحديثية، واستثمارها في الكتابات الأصولية والمقاصدية، واستخلاص ونظم تلك الأصول في سياق تحليلي تعليلي يثبت أصالة وثبات مبدأ العطاء الحضاري والتفاعل الإيجابي للمسلم في كل مكان وزمان، تماما كما يكشف عن تعدد صور العطاء الحضاري وتنوعها بحسب تنوع البيئات الثقافية والاجتماعية والقيم الحضارية بين المجتمعات.

ولعل بحث هذه القضية من وجهة نظر تأصيلية من شأنه أن يـــسهم في الإجابة عن واحدة من أهم نوازل فقه المهجر المعاصرة، فتندفع ترددات كثير من المسلمين في موضوع تدبير وجودهم في المجتمعات المستقبلة، ويتحقـــق للجالية المسلمة الاستقرار فالتفاعل الإيجابي مع مجتمعاتهم حتى يصبحوا كتلة اجتماعية وحضارية مؤثرة في مراكز القرار.

ومن أجل تفصيل القول في هذا الموضوع، ارتأيت تأسيس البحث على المحاور التالية:

مقدمة: تناولت فيها فكرة الموضوع، وجدوى البحـــث فيه،وخطتـــه التصميمية والمنهج المتبع في بناء البحث.

المبحث الأول: الأصول الشرعية الكلية لاستيعاب المخالف حضارياً

المبحث الثاني: الأصول النبوية التفصيلية في استيعاب المخالف حضارياً

خاتمة: خصصتها لأهم النتائج العلمية، التي خلـــص إليهـــا البحـــث مشفوعة بما أثاره البحث من أسئلة.

أما المنهج المعتمد في بناء الموضوع فيجمع بين استقراء المادة العلمية من مظانها، وتحليل مضامينها وتعليل أحكامها وبيان مقاصـــدها للوصـــول إلى مقصد التأصيل المتكامل لقضية العطاء الحضاري للكفاءات المهاجرة المسلمة في بلاد المهجر، مع اعتماد نظام التوثيق الأكاديمي للمادة العلمية.

الأصول الشرعية الكلية
لاستيعاب المخالف حضارياً

إن مطلب العطاء الحضاري للوجود الإسلامي في البلدان الغربية خصوصاً وأوطان غير المسلمين عموماً، إنما يلتمس من أصله الذي تفرع عنه وهو النص القرآني، الذي يؤسس للمعاني الحضارية الشاملة والمهيمنة على سائر الثقافات والحضارات الإنسانية، عليها يرتكز الوجود الإسلامي في المهجر تصوراً وتصديقاً، علماً وعملاً، حتى يتمكن من استيعاب المخالف حضارياً، فما المبادئ والأصول الكلية المؤسسة لهذا الاستيعاب؟

أولاً: الأصولية المنهجية الكلية في استيعاب المخالف:

نقصد بهذه الأصول المرتكزات المنهجية الكلية الشرعية، التي تشكل الإطار العام الشرطي الناظم للنظر العلمي الحضاري للشريعة عموما ولقضية الاستيعاب الحضاري للمخالف خصوصا، وهي كليات تم استقراؤها من مختلف جزئيات موضوعها، نقترحها مدخلا منهجيا شرطيا للعطاء الحضاري للكفاءات المهاجرة.

١ - التوظيف الحضاري لهجرة الكفاءات:

إذا كانت الهجرة سنة كونية مطردة في المجتمعات البشرية على اختلاف أسبابها ودواعيها، فإنها ارتبطت في السياق الحضاري الإسلامي بمعاني الشهود الحضاري، فلم تكن الهجرة النبوية وقبلها هجرة الصحابة إلى الحبشة

مجرد لحظة اضطهاد انتقل بموجبها النبي ﷺ وصحبه من وطنهم الأصلي إلى وطن آخر انفلاتاً من بيئة القهر والاضطهاد بقدر ما كانت فرصة أخرى لاستئناف العمل الدعوي والشهادة على الناس بالقسط، لذلك كانت الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة لحظة فارقة في تاريخ الدعوة الإسلامية بين مرحلة الاستضعاف ومرحلة التمكين، بفضل حسن الاستثمار النبوي للوجود الاجتماعي والثقافي والسياسي الجديد في المدينة المنورة (يثرب) أخذاً وعطاءً وبناءً وتوجيهاً.

وتأسيساً لهذا المعنى الحضاري والتفاعل الإيجابي للمهاجرين في أرض الهجرة نزل القرآن الكريم مواكباً وموجهاً للوجود الجديد للنبي ﷺ وصحبه ومنوهاً بحسن التفاعل والتواصل بين المهاجرين ومواطني البلد المستقبل من الأنصار، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (الأنفال:٧٤).

فكانت الهجرة - بما هي تفاعل إيجابي مع الواقع الجديد- عملاً شرعياً جليلاً من الأعمال التي ترتب عليها وعد المغفرة والرزق الكريم في الآية السابقة، بل ارتفع الاعتبار الشرعي للتوظيف الدعوي والحضاري للهجرة في المدينة إلى أعلى الدرجات في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ (التوبة:٢٠).

ولما تعينت الهجرة زمن التنـــزيل وسيلة الانتقال من واقع الاستضعاف والحصار إلى واقع التمكين والحرية، نـــزل القرآن الكريم يحدد الهجرة معيار الولاء والبراء، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾ (الأنفال:٧٢).

ويؤسس القرآن الكريم علاقة المسلم بمحيطه الاجتماعي في أي مكـــان على مبدأ التفاعل الإيجابي والتواصل الحضاري، وينهاه عـــن لـــزوم حالـــة الاستضعاف السلبية إلا في حالة العجز، فنـــزل من القرآن ما يوجه اللـــوم لمن اختار السلبية في المكان[1] ونأى بنفسه عن دفـــع حالـــة الاستـــضعاف بالهجرة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء:٩٧)، أما حين يمـــكن التفاعل الدعوي الإيجابي في المكان فذلك هو المطلوب، لذلك أعلن النبي ﷺ عن انتهاء موجب الهجرة بعد فتح مكة، حيث قال: «لا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَـــتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ»[2].

---

(١) الخطاب موجه ابتداء لمن لم يهاجر من مسلمي مكة ممن افتتنوا في إسلامهم. ينظر ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الـشافي محمد، ط١(بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م) ٩٩/٢.

(٢) مسلم في الجامع الصحيح، كتاب الإمارة، باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد.

فلما تقررت الهجرة في الشريعة، كتاباً وسنة، وسيلة دعوية ولوناً من ألوان الجهاد للمهاجرين من المسلمين في كل مكان وزمان، ألفينا المسلمين سلفاً وخلفاً يسيحون في الأرض شرقاً وغرباً، ويتخذون أوطاناً مختلفة مقر سكنهم وموطن عيشهم يبلغون فيه دعوة الله أصالة، ويبتغون من فضل الله تبعا، فمشوا في الناس بأخلاق الإيمان وبثوا فيهم علوم الإسلام، فدخل في دين الله من الناس أفواج، وفتحت للإسلام أوطان.

فكان من نتائج التفاعل الإيجابي للمسلمين المهاجرين مع محيطهم الاجتماعي، الذي احتضنهم انتشار الثقافة الإسلامية وسيادة حضارة الإسلام في تلك الأوطان من بلدان آسيا وإفريقيا وأوربا، عمدتهم في ذلك مخالقة الناس بخلق حسن، مصداقاً لقول النبي ﷺ: «وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[1].

ولما أصبح وجود المسلمين في مختلف مجتمعات العالم وخصوصاً منها المجتمعات الغربية قدراً مقدوراً يتميز بالنمو المطرد، كماً ونوعاً، تعين عليهم جميعاً وعلى النخبة منهم بوجه أخص من أهل العلم والفكر والخبرة من المسلمين أن يتفاعلوا مع محيطهم بمقتضى واجب الدعوة بالتي هي أحسن

---

(١) الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الإيمان رقم ١٧٨. تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط١(بيروت: دار الكتب العلمية،١٩٩٠م)؛ والطبراني في المعجم الكبير من حديث معاذ بن جبل الأنصاري، بتحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط٢ (الموصل: مكتبة العلوم والحكم، ١٩٨٢م).

كل من موقعه ومن منطلق ما يحسنه، قدوتهم في ذلك النبي ﷺ والصحابة وسلف الأمة وخلفها ممن هاجر وجاهد، دعوة وتعليماً وخدمة وإفادة.

٢- التصرف بمقتضى النظر المقاصدي تأصيلاً وتنزيلاً:

نقصد بالنظر المقاصدي الاجتهاد الذي يستثمر مقاصد الشريعة في الإجابة عن قضايا العصر تشريعاً، وتوجيه الفعل الإنساني تسديداً، وهو النظر الذي يمكّن صاحبه من إدراك المقصد الشرعي من تشريع الأحكام، من أجل العمل على موافقته جلباً للمصلحة وتفادي مخالفته دفعاً للمفسدة.

وموجب القول بهذا النظر في موضوع العطاء الحضاري للكفاءات المهاجرة من المسلمين وسواه من القضايا، التي تستند إلى الشريعة، مقتضى طبيعة الخطاب الشرعي، الذي تتجمع فيه المقاصد والمعاني، والقوالب والمباني، ومقتضى واقع الكفاءات المهاجرة المعقد التركيب الذي يتعين على المسلمين تلمس أوجه المصلحة الشرعية بين تضاريس ذلكم الواقع لجلبها، وإدراك مظاهر الفساد لدرئه حسب الوسع الفردي أو الجماعي، وهو واقع تتحكم فيه نظم وثقافات غير ما هو معهود في المجتمعات الإسلامية.

لذلك تعين على الكفاءات المهاجرة لكي تتفاعل إيجابيا مع واقعها الجديد أن يكون نظرها مقاصدياً يجمع بين النظر في النصوص الشرعية من مداخلها المعتبرة والنظر في الواقع العيني المتحرك من مداركه المعتمدة، وهذا ما يقتضي تأسيس منهج النظر عند هذه النخبة من المسلمين على ما يلي:

- الجمع بين النظر الكلي والنظر الجزئي في فهم الخطاب الشرعي:

فلما قام بنيان الشريعة على كليات مجملة قصدت الشريعة الحفاظ عليها، وعلى الأدلة التفصيلية الجزئية التي انتظمت منها تلك الكليات مبثوثة في أبواب الشريعة ومستغرقة لفروع وجزئيات كلياتها، لزم لمن رام فهم مراد الله من شرعه ألا يستقل نظره في جزئيات الشريعة التفصيلية عن نظره في كلياتها، التي تندرج تحتها تلك الجزئيات، وإلا تناقضت عليه الشريعة، والتناقض في الشريعة محال.

وتقريراً لهذا الترابط بين النظرين يقول الشاطبي: «فمن الواجب اعتبار تلك الجزئيات بهذه الكليات عند إجراء الأدلة الخاصة من الكتاب والسنة والإجماع والقياس، إذ محال أن تكون الجزئيات مستغنية عن كلياتها، فمن أخذ بنص مثلاً في جزئي معرضاً عن كليِّه فقد أخطأ، وكما أن من أخذ بالجزئي معرضاً عن كليّه فهو مخطئ، كذلك من أخذ بالكلي معرضاً عن جزئيه»[1].

وعليه، فالجمع بين النظر الكلي والجزئي في معالجة النص الشرعي يمكننا من المحافظة على مقصود الشارع من جهة، ويقينا من الزلل وسوء التأويل من جهة ثانية[2].

---

(١) الشاطبي أبو إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق دراز، ط٣ (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م) ٥/٣.

(٢) ينظر رفيع محماد، جدلية الربط بين النظر الكلي والنظر الجزئي في تفسير النص الشرعي عند الشاطبي، مجلة «دراسات تراثية» المحكمة، تصدر عن مختبر تراث الغرب الإسلامي بكلية الآداب، ظهر المهراز، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، المغرب، العدد١، السنة ٢٠١٢م، ص٩٥.

- الجمع بين الاقتضاءين الأصلي والتبعي للنص الشرعي:

إذا كان الاجتهاد في اقتناص الأحكام من مداركها الشرعية، حسب مقتضاها الأصلي، لا يستقيم إلا بالاستناد إلى المقصد الشرعي ضبطاً وتوجيهاً، فإن الاجتهاد في تنزيل تلك الأحكام على مناطاتها العينية زماناً ومكاناً وحالاً وشخصاً وفق مقتضاها التبعي يتوقف قطعاً على اعتماد المقصد الشرعي معيارًا مسدِّداً وضابطاً موجهاً في تحقيق مناطات الأحكام ومراعاة مآلات الأفعال.

فالواجب معرفة أن طريقة اقتضاء الأدلة الشرعية لأحكامها نوعان:

اقتضاء أصلي: وهو تقرير الحكم على المناط العام على الإطلاق والكلية مجرداً عن التوابع والحالات الخصوصية، وتجري هذه الأحكام بهذا المقتضى في المكلفين مجرى العموم في الأفراد، فيكون كل حكم شرعي كلياً عاماً يندرج فيه كل أفراد الأشخاص والأفعال والأحداث، دون تخصيصه ببعض من ذلك دون بعض إلا إذا دل الدليل على التخصيص، قال الشاطبي في تقرير هذا الاقتضاء: «الشريعة لم تنص على حكم كل جزئية على حدها، وإنما أتت بأمور كلية وعبارات مطلقة تتناول أعداداً لا تنحصر»[1]، وهذا ما يؤسس للمبدأ العقدي في خلود الشريعة وثباتها وعمومها للإنسان والزمان والمكان.

---

(١) نفسه، ٣/٦٦.

اقتضاء تبعي: وهو تقرير الأحكام على مناط الأعيان، وذلك باعتبار التوابع والإضافات ورعي العوائد والخصوصيات[1]، لأن «الدليل المأخوذ بقيد الوقوع معناه التنزيل على المناط المعين»[2]، ومعرفة المناط المعين لتنزيل الحكم الشرعي الذي يلائمه، مسألة اجتهادية متجددة ومستمرة في الزمن، لأن «كل صورة من صور النازلة نازلة مستأنفة في نفسها»[3]، كما أن «لكل خاص خصوصية تليق به لا تليق بغيره ولو في نفس التعيين»[4].

لذلك كله اقتضى فقه التنزيل، تحقيقاً لمقصد الشارع، النظر إلى الحكم الشرعي من خلال ثنائية الأصلي والتبعي، جمعاً بين الحكم الشرعي في مناطه المجرد وبين صور المناطات المتجددة في الواقع المتحرك، إذ بذلك يستطيع القوم بناء اختياراتهم الحضارية ومشاريعهم في التواصل الاجتماعي على فقه الموازنة بين المصالح في مختلف مراتبها، والمفاسد في مختلف دركاتها عند التزاحم، وبين المصالح والمفاسد عند التعارض.

فإذا ما تبين أن الحكم المرشح للتنزيل يحقق المقصد الشرعي من جلب مصلحة أو دفع مفسدة أجيز، وإلا استبدل بغيره المحقق للمقصد،

---

(١) الشاطبي، الموافقات، ٣/٧٨.

(٢) نفسه، ٣/٧٩.

(٣) نفسه، ٣/٩١.

(٤) نفسه، ٣/٢٢٨.

أو يؤجل إلى حين توفر شروط تحقق المقصد، تماماً كما فعل الخليفة عمر ﷺ، حين أجل إقامة حد السرقة عام الرمادة، وسهم المؤلفة قلوبهم لعدم إمكان تحقق المقصد الشرعي من التنزيل زمنئذ، أو يعدل الحكم تقييداً أو تخصيصاً أو استثناءً.

- التمييز بين الوسائل والمقاصد:

من شأن التمييز بين الوسيلة ومقصدها أن يعين على اختيار الحكم الملائم للواقعة محل الحكم ، فلا بد من التمييز بين وسيلة إلى ما هو مقصود في نفسه، كتعريف التوحيد، وصفات الإله، وما هو وسيلة إلى وسيلة كتعليم أحكام الشرع؛ فإنه وسيلة إلى العلم بالأحكام التي هي وسيلة إلى إقامة الطاعات، التي هي وسائل إلى المثوبة والرضوان، وكلاهما من أفضل المقاصد[1].

ومن معايير التمييز بين القضيتين نسبية الوسائل من حيث كونها وسيلة باعتبار ومقصد باعتبار آخر، قال الشاطبي: «والأعمال قد يكون بعضها وسيلة إلى البعض، وإن صح أن تكون مقصودة في أنفسها»[2] كالحفاظ على المال فهو وسيلة إلى الحفاظ على الكليات الأخرى، وهو مقصد يتوسل إليه بالعمل والاستثمار بشتى الطرق المشروعة.

إن اعتبار الوسيلة مشروط بعدم عودها على المقصد بالإبطال، وبطلان الوسيلة لا يلزم منه بطلان المقصد، فالوسائل دون المقاصد رتبةً، يشهد

---

(١) ينظر العز بن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، تحقيق محمود الشنقيطي (بيروت: دار المعارف) ١/١٠٥.

(٢) الشاطبي، الموافقات، ١/٨٤.

لذلك قول العلماء: «مراعاة المقاصد مقدمة على رعاية الوسائل أبداً»، وقولهم: «التابع لا يتقدم المتبوع كالإمام مع المأموم».

فتمييز أهل الكفاءة في المهجر بين المصالح الشرعية المطلوب اجتلابها والوسائل المتعينة في الزمان والمكان والحال لتحقيق تلك المصالح، وكذلك التمييز بين المفاسد الواجب استدفاعها والوسائل المفضية إليها معين لهم على التمسك بالثابت من معاني الشريعة ومقاصدها، والاجتهاد في ابتكار أفضل الوسائل المؤدية إلى تحقيق المقاصد الشرعية للوجود الإسلامي في المجتمعات الغربية.

ثانيًا: الأصول الموضوعية للاستيعاب الحضاري للمخالف:

لعل من جملة القضايا الحيوية التي يتعين على النخبة المسلمة العالمة في بلاد المهجر الوعي بها والتصرف بمقتضاها في سياق تفاعلها مع محيطها الحضاري قضية المنهج القرآني في بناء الائتلاف بين المخالفين[1] في سياق تدبير الاختلاف معهم، وذلك من حيث هو مدخل تواصلي إنساني لنشر دعوة التوحيد بين خلق الله أجمعين.

فالقرآن الكريم قدم لنا أصولاً تؤسس للوحدة والائتلاف بين المسلمين ومخالفيهم من أبناء وطنهم في الدين والثقافة، وتمكّن النخبة العالمة المسلمة من حسن التأثير في المجتمع، ومن استيعاب المخالف حضارياً، فما الأصول التي ينبني عليها هذا الائتلاف الجالب للتواصل الحضاري؟

---

(١) فقد فصلت القول في هذه القضية في دراسة بعنوان: المنهج القرآني في بناء المشترك الإنساني، مجلة إسلامية المعرفة، العدد٦٦، خريف ٢٠١١م، ص ١١٥ فما بعدها.

١- أصل بر المخالف:

لما كان قصد الشارع من إنـــزال شريعته بين الناس إقامة علاقة السلم والوئام بينهم، ونفي دواعي الكراهية وأسباب البغضاء من بينهم بغض النظر عن اختلافاتهم الدينية والمذهبية واللغوية، قرر القرآن الكريم أصـــلاً مكينـــاً للتعامل الحضاري الراقي مع المخالف، في قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة:٨).

لقد تقرر بمقتضى هذه الآية أن العـــلاقة الأصيلة مع المخالف ليـــست مجرد علاقة احترام واعتراف وإنما هي علاقة خدمة اجتماعية حضارية مبنية على العدل والإحسان تقدم للمخالف مادام لم يصدر منه ظلم أو اعتـــداء، تعزز هـــذا التقرير بقرينة لفظيـــة مـــلازمة مؤكدة وهي محبة الله تعالى لمن بر بالمخالف في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، كمـــا تأكـــد مقتضى هذه الآية بسبب نـــزولها الذي يمثل أجمـــل صـــورة مـــن صـــور الاستيعاب الحضاري للمخالف، ذلك أن الآية نزلت في أسماء بنت أبي بكر، رضي الله عنهما، لما زارتها أمها وهي مشركة فاستأذنت النبي ﷺ في برهـــا وصلتها فأذن لها[1].

---

(١) ينظر الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٥هـــ) ٦٦/٢٨؛ والقرطبي، الجامع في أحكام القرآن، تحقيق أحمد عبـــد العلـــيم البردونـــي (القاهرة: دار الشعب، ١٣٧٢هـــ) ٣٠٢/١٢، والقصة في الصحيحين.

فالآية أصل ناظم لجميع صور الإدارة الحضارية للعلاقة مع المخالف، وقد وصفها الشهيد سيد قطب، رحمه الله، بقوله: «وتلك القاعدة في معاملة غير المسلمين هي أعدل القواعد التي تتفق مع طبيعة هذا الدين ووجهته ونظرته إلى الحياة الإنسانية، بل نظرته الكلية لهذا الوجود، الصادر عن إله واحد، المتجه إلى إله واحد، المتعاون في تصميمه اللدني وتقديره الأزلي، من وراء كل اختلاف وتنويع، وهي أساس شريعته الدولية، التي تجعل حالة السلم بينه وبين الناس جميعا هي الحالة الثابتة»[1].

فالمطلوب من النخبة العاملة في المهجر أن تؤسس علاقاتها مع الوطن الحاضن وأهله على قاعدة البر بالمخالف، فهو أقوى منطلق حضاري لضمان العطاء المتميز والإضافة النوعية للوجود الإسلامي في المجتمعات الغربية، وسيضطر المخالف مع الزمن أن يعترف بالإيجابية الفعالة المتميزة للكفاءات المسلمة في المجتمع الحاضن، خصوصاً حين يلامسون صدق الفعل وإحسان العمل على نحو لم يعهدوه عند غيرهم، فيدركون حينها حاجة المجتمعات الغربية إلى رحمة وحكمة الكفاءات المسلمة، والنفوس مجبولة على محبة من أحسن إليها، وقديماً قال الشاعر العربي:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، طبعة دار الشروق، عند تفسير الآية الثامنة من سورة الممتحنة.

- من أوجه البر بالمخالف:

إذا تقرر البر بالمخالف أصلاً جامعاً في استيعاب المخالف حضارياً، فإن تفريع صور البر موكول لاجتهاد المسلمين من أهل الكفاءة في تلمس الحاجة العامة أو الخاصة في المجتمع للعمل على تلبيتها، ومن أولويات القضايا التي يمكن إدراجها تحت أصل البر بالمخالف، نذكر ما يلي:

- صلة الرحم الآدمية:

فالإنسانية على امتداد الزمان والمكان واختلاف الألسن والأعراق والألوان تؤول بمقتضى الآية إلى أصل واحد وهي النفس التي منها تناسلت فروعها، ويجمع بين هذه الفروع الإنسانية علاقة أصيلة ثابتة اقتضاها الأصل الموحد، وهي علاقة الرحم الآدمية بغض النظر عن الدين والعرق واللون والحضارة، وينبغي النظر إلى هذه العلاقة بما تستوجبه من حقوق تتعين مراعاتها، تحت طائلة الحساب الأخروي[1]، كما نفهم من قوله عز وجل: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء:١).

وتتأكد هذه العلاقة الإنسانية بالبيان النبوي، في قوله ﷺ: «**أَلا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلا لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلا لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ**

(١) محماد رفيع، النظر الشرعي في بناء الائتلاف وتدبير الاختلاف، ط١ (القاهرة: دار السلام، ٢٠١٢م) ص١٦.

إلا بِالتَّقْوَى»[1]، وفي قوله عليه السلام: «**كلكم لآدم و آدم من تراب**»[2]، وفيما كان يردده في دعائه، عليه الصلاة والسلام: «**اللهم ربنا رب كل شيء ومليكه أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة**»[3].

فالتصرف مع المخالف على أساس علاقة الأخوة الإنسانية ومن منطلق شرعي يجعل النخبة المسلمة في موقع التفوق الحضاري والقدرة على التأثير في المخالف، خصوصاً إذا استحضرنا ما تعانيه المجتمعات الغربية من حالة التفكك الأسري وبرودة في العلاقات الاجتماعية وحالة العقوق الفردية والجماعية للوالدين وللمسنين، فحاجة القوم شديدة إلى رحمة الأخوة والصلة كما قررها القرآن الكريم.

- محبة المخالف:

عاطفة المحبة بين الناس فطرة فطروا عليها، باركها الإسلام ووجهها ورعاها لأنه دين الفطرة، ودين المحبة والوئام في مقاصده العليا وتفاصيله المثلى بين الناس أجمعين، ولا يعادى الشخص ويكره إلا إذا صدر منه تآمر أو اعتداء، أما الأصل فهو محبة أهل الفضل والخير مهما اختلفنا معهم لما معهم من تلك المكارم، فالمقصد الكلي من بعثة المصطفى ﷺ منحصر في إتمام مكارم

---

(١) أحمد في مسنده، ٥/٤١١.

(٢) مسند الربيع من حديث جابر بن زيد، وبلفظ آخر عند الترمذي في سننه في كتاب التفسير، وعند البيهقي في شعبه.

(٣) سنن أبي داود، باب ما يقول الرجل إذا سلم، والسنن الكبرى للنسائي في كتاب عمل اليوم والليلة، ومسند لأحمد من حديث زيد بن أرقم، ومسند أبي يعلى من حديث زيد بن أرقم.

الأخلاق، مصداقاً لقوله، ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم مكـــارم الأخـــلاق**»[1]، ومكارم الأخلاق من ميراث النبوات السابقة، مبثوث بعضها بـــين مختلـــف الثقافات والحضارات، ونحن المسلمين أولى الناس بمد يد المحبة والتعاون مـــع ذوي المروءات والفضائل كيفما كان دينهم وثقافتهم.

فعلى هذا الأصل تعامل الصحابة زمن النبوة مع المخالف من اليهـــود والمنافقين، يحبونهم بالفطرة ويسعون إليهم بكل خير رغم أن المخالف يكيد ويتآمر ويبغض، فنـــزل القرآن يصور تصويراً بليغاً هذا التفاوت الفاحش في العلاقة بين المسلمين والمخالفين، فمقابل تعامل حضاري راق مـــن جانـــب المسلمين تدني أخلاقي ســـلبي من جانب الآخرين، فقد ذكر الطبري عـــن «ابن جريج، قال: المؤمن خير للمنافق من المنافق للمؤمن يرحمه، ولو يقـــدر المنافق من المؤمن على مثل ما يقدر المؤمن عليه منه لأبـــاد خـــضراءه»[2]، حيث قال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ (آل عمران:١١٩).

وأقر الإسلام ولم ينكر أواصر المحبة الفطرية بين المسلمين والمخالفين من الآباء والأبناء والإخوة والأزواج وأهل الوطن والإقامة، وإنما أنكر الإخلال في ترتيب درجات المحبة في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ

---

(١) البيهقي في السنن الكبرى، باب بيان مكارم الأخلاق، ومجمع الزوائد، باب مكـــارم الأخلاق والعفو عمن ظلم.

(٢) الطبري، المصدر السابق، ٧/١٥١.

وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ (التوبة:٢٤).

فالمحبة الفطرية مجبول عليها الإنسان، وهي درجة تعلوها درجة أخرى وهي المحبة العقدية[1]: محبة الله ورسوله والمؤمنين، فالمنهي عنه شرعاً في محبة المخالف خصوص محبة من أعلن العداوة والحرب على الله ورسوله لما في ذلك من الإفضاء بأسرار المسلمين لهؤلاء المتآمرين من المخالفين، بدليل قول الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ﴾ (المجادلة:٢٢)، وحين تنتفي علة العداوة والتآمر تعود علاقة المحبة بين الناس فيما يشتركون فيه من قيم المروءة والأخلاق، فالإسلام متشوف لعلاقة المحبة بين الناس مهما اختلفوا مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الممتحنة:٧).

فنظر أهلنا من أهل الكفاءة في المهجر ينبغي أن يتوجه أصالة إلى ما في ثقافة تلك المجتمعات من قيم حضارية عالية وأخلاق سامية، فنتقدم إليهم بيد

---

(١) ينظر فيصل مولوي، المسلم مواطناً في أوروبا، سلسلة قضايا الأمة (٢)، من إصدارات الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، ٢٠٠٨م، ص٩١.

المحبة والأخوة لتحصين ذلكم الرصيد من القيم الإنسانية المشتركة والعمل على تنميته وتوسيعه، فيصبح أهل الكفاءة بهذا المقتضى جسراً يتم عبره التواصل بين الحضارة الإسلامية والحضارة المقارنة.

– إقامة العدل بين المخالفين:

العدل كلية عظمى من كليات الشريعة، ورد فيها بأقوى صيغة للتكليف والإلزام في قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ (النحل:٩٠)، كما ورد مقصداً أسمى لبعثة الأنبياء والرسل في قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ (الحديد:٢٥)، فاكتسب بذلك معنى أعم وأشمل حتى عده ابن عاشور: «الأصل الجامع للحقوق الراجعة إلى الضروري والحاجي من الحقوق الذاتية وحقوق المعاملات»[١].

وانطلاقاً من هذه المرتبة الراقية لمسألة العدل في القرآن الكريم خاصة والشريعة عامة، قرر ابن القيم أن الشريعة «عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة وإن دخلت فيها بالتأويل»[٢].

---

(١) ابن عاشور، الطاهر، التحرير والتنوير، ١٤/٢٥٤.

(٢) ابن القيم، إعلام الموقعين، ٣/١٤.

فالشريعة بهذا المقتضى تمتلك وحدها القدرة على بناء العدالة الإنسانية المفتقدة، يقول ابن عاشور: «أعلى القوانين في تحقيق العدالة الشرائع الإلهية لمناسبتها لحال من شرعت لأجلهم، وأعظمها شريعة الإسلام لابتنائها على أساس المصالح الخالصة أو الراجحة، وإعراضها عن أهواء الأمم والعوائد الضالة... بل تبنى على مصالح النوع البشري وتقويمه وهديه إلى سواء السبيل»[1].

ومن أهم مظاهر انتفاء العدل في المجتمعات الغربية التي ينبغي لأهل الكفاءة من المسلمين أن يسهموا بفعالية في معالجته، عملاً واقتراحاً، ظاهرة التفكك الأسري وعقوق المسنين المتفشية في هذه المجتمعات، وإهانة المرأة بتشييئها، وهذا مجال حيوي يستطيع فيه مسلمو الغرب أن يبلوا البلاء الحسن، وذلك بتأسيس جمعيات اجتماعية تعمل على معالجة التفكك الأسري، وإنتاج برامج خاصة بالمسنين للتسلية والتنويه بما بذلوه في شبابهم من خدمات للوطن، وغير ذلك من ألوان البر الذي أمرنا به شرعاً وغاب في تلك المجتمعات واقعاً.

٢- أصل التعارف والتعاون:

فالتعارف أساس دعا إليه القرآن، وضرورة أملتها ظروف المشاركة في الدار أو الوطن بالتعبير العصري، وإعمال لروح الأخوة الإنسانية بدلاً من إهمالها، فقد نص القرآن الكريم بإطلاق ومن غير تقييد ولا تخصيص أن من

(١) ابن عاشور، الطاهر، التحرير والتنوير، ٥/٩٥.

مقاصد التنوع بين البشر التعارف والتعاون، فقال تعالى مخاطباً الإنسان على امتداد الزمان والمكان: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات:١٣).

فحقيقة التنوع والاختلاف التي عليها الناس أمماً وقبائل إنما ينبغي أن تفضي إلى تحقيق مشترك التعارف بما هو تبادل اجتماعي وثقافي وتعايش حضاري، وذلك على قاعدة المساواة، ودونما تمايز أو استعلاء من أي طرف، قال ابن عطية الأندلسي في تفسير هذه الآية: «أنتم سواء من حيث أنتم مخلوقون لأن تتعارفوا، ولأن تعرفوا الحقائق، وأما الشرف والكرم فهو بتقوى الله تعالى وسلامة القلوب»[1]، فالمجتمعات التعددية تقوى بقدرة مكوناتها على حسن التواصل وتبادل الاستفادة والتعاون على المشترك.

ولعل موضوع حقوق الإنسان من أجلّ ما يمكن التعاون عليه بين الكفاءات المهاجرة ونخب المجتمعات الغربية على أساس الإخلاص والجدية، فهو واجب إنساني ملح، يقول عبد السلام ياسين: «لا ينبغي أن نتردد في التعاون المخلص مع نداء الضمير الإنساني الرائع الذي يدفع الجمعيات غير الحكومية عند نظرائنا في الخلق للتضحيات المشكورة»[2].

---

(١) ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، ١٥٣/٥.

(٢) ياسين، عبد السلام. العدل، الإسلاميون والحكم (البيضاء: مطبوعات الأفق، ٢٠٠٠م) ص٣٦٣.

فضمير الغرب الإنساني الذي استيقظ من هول ما حل به من فواجع الحروب وكوارث الصراعات صار ينادي الآن بحق الشعوب في تقرير مصيرها وبالحقوق المدنية، والسياسية، والاقتصادية، وبحق الإنسان في الحرية والعدل والعمل والصحة والتعلم، والسكن الكريم وبحق المرأة والطفل، وبحق المرضى والعجزة، وكل ذلك من صميم ديننا إن قسناه بمعاييرنا، بل وكل تديُّن لا يكون من مضمونه الشفقة على الخلق، ومن أهداف جهاده البِر بالخلق والعدل في الخلق، فهو تدين أجوف[1].

وارتفع مؤخراً طموح الضمير الإنساني عند القوم فطالب بحق الإنسانية في سلامة كوكبها الأرضي وبيئتها الطبيعية فتأسس بذلك مستوى آخر أوسع من المشترك التعاوني بين الحضارة الإسلامية والحضارة المقارنة، وهنا تستطيع نخبتنا المسلمة أن تسهم في معالجة الموضوع برؤية حضارية أقوى وأشمل، ذلك أن علاقة الإنسان بفضائه الكوني قائمة بمقتضى الشرع على قاعدة التسخير، التي تكرر تقريرها في كتاب الله[2]، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (الجاثية:١٣)، بدل علاقة صراع في الثقافة الغربية التي شب عليها الإنسان الغربي عقيدة ومنهجاً وسلوكاً[3]، فأفضت إلى تلوث البر والبحر والفضاء.

---

(١) ينظر ياسين عبد السلام ، المرجع السابق والحكم، ص٣١٧.

(٢) ينظر رفيع، محماد، النظر المقاصدي، رؤية تنزيلية، ط١ (القاهرة: دار السلام، ٢٠١٠م) ص٦٠.

(٣) ينظر رفيع محماد، المرجع السابق.

ويمكن للنخبة المسلمة أن تسهم في إصلاح فلسفة حماية البيئة من خلال توجيه عمل الإنسان، وذلك من منطلق أن المطلوب من الإنسان إنجازه في الأرض إقامة مشاريع العمران النافعة للناس والنافية للفساد والإفساد، مصداقا لقول الله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ (هود:٦١)، وقوله سبحانه في وظيفة الإنسان الاستخلافية في الأرض: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (يونس:١٤)، كما أنه سبحانه نهى عن جريمة الإفساد في الأرض من حيث هي نقيض الإصلاح، فقال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف:٨٥).

ومن هذا المنطلق الفلسفي الواضح القوي يستطيع أهلنا من ذوي الكفاءات في تواصلهم وحواراتهم وكتاباتهم ومحاضراتهم التأثير الإيجابي في فلسفة الغرب في الحرية الاقتصادية السلبية التي تقوم على إطلاق العنان لجشع الإنسان ليفتك، بمعامله ومصانعه، بالإنسان وبيئته بحثاً عن المتعة المادية التي لا تنحصر، فنقترح عليهم معيرة المشاريع الاقتصادية والصناعية والتجارية بمعيار الإصلاح في الأرض، حالاً ومآلاً.

غير أن الإسهام الحضاري النوعي للمسلمين في موضوع التعاون على تنمية حقوق الإنسان يكون في إظهار سعة الأفق للحضارة الإسلامية في موضوع حقوق الإنسان، وذلك من خلال بيان حاجة الإنسان الغربي اليوم إلى حقه الأسمى وهو معرفة ربه سبحانه، لكن شريطة أن يلتمس في ذلك العرض اللطيف، والحديث الشفوق إليه، والبيان الأخوي إليه، بأن من وراء

الموت حياة، وبأن الإنسان ليس دابة أرضية[1]، بذلك تكون النخبة المسلمة المهاجرة قد أخذت زمام المبادرة في الدعوة إلى الله من منطلــق حــضاري قوي، وتلك هي المهمة العظمى التي لخصها الأستاذ ياسين في قوله: «مهمتُنا أن نقود الإنسانية إلى سعادتها الدنيوية والأخروية بصفتنا حمَلَةَ رسالةِ القرآن، ومستودَعَ نور الهداية النبوية الخاتمة. فليسَ بعد قُرْآننا ونبيِّنا مــن تنــزيل يُنتظر، أوْصِياءُ نحنُ على دين الله»[2].

٣- أصل حفظ السلم الاجتماعي:

من مقاصد الشريعة العامة حفظ نظام التعايش بين الناس في الأرض[3]، لأن الإسلام رسالة رحمة للعالمين، ولا يتم التواصل والتفاعل الإيجابي مع هذه الرسالة إلا بانتفاء عوامل التوتر والإكراه والحروب، التي تفــتن الإنــسان وتصرفه عن سماع الخطاب الرباني، وسيادة الأمن والوئام، لــذلك ألفينــا القرآن يرسي قواعد السلام والأمن بين الناس جميعاً، وأمر المؤمنين أمر إلزام بالدخول ابتداء في السلم، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ (البقرة:٢٠٨).

وحقيقة السلم المأمور به في الآية عند الطاهر بن عاشور الصلح وترك الحرب والمسالمة[4]، وذهب، رحمه الله، إلى أن الآية دالة على أصالة الــسلم

---

(١) ينظر ياسين عبد السلام، العدل، ص٣١٧.

(٢) المرجع السابق.

(٣) ينظر الفاسي، علال، مقاصد الشريعة ومكارمها، ص٤٢-٦٣.

(٤) ابن عاشور، الطاهر، التحرير والتنوير، ٢/٢٧٥.

ومبدئيته في الإسلام، وهو رفع التهارج[1]، ومعنى ذلك أن اللجوء إلى الحرب حالة استثنائية مضبوطة يقتضيها واجب حماية السلام في العالم، وحين تنتفي عوامل الإخلال بالسلام يصبح من الواجب بمقتضى الأصل الرجوع إلى قواعد السلام، وهذا ما تؤكده قواعد التعامل مع العدو المحارب في قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (الأنفال:٦١).

فإذا ظهر جلياً أن القرآن الكريم يرسي قواعد بناء السلم العالمي وأسس نظام التعايش على الأرض بين خلق الله أجمعين، من حيث هو شرط أساس في تحقيق مقصد التعارف والتعاون والتبادل بين مختلف الثقافات والحضارات والمجتمعات، فإن العمل على تحقيق ذلك على المستوى الداخلي للمجتمعات التعددية الحاضنة للمسلمين وجه عملي من أوجه تحقيق الأمر القرآني بالسلم، وهو مطلب مشترك عزيز الآن لمجتمعات العالم ينبغي أن يسعى الجميع صدقاً، وعلى رأسهم المسلمون بما يملكون من قيم خلقية سامية ومبادئ حضارية عالية تفتقر إليها مجتمعات الإنسانية، لإنهاء حالات التوتر والكراهية والعنصرية، التي تعتمل الآن في كثير من المجتمعات الغربية، وكثيراً ما يكون المسلمون الضحية الأولى[2].

---

(١) ابن عاشور، الطاهر، المصدر السابق، ٢/٢٧٨.

(٢) ينظر رفيع محماد، النظر الشرعي في بناء الائتلاف وتدبير الاختلاف ص٤٦.

فالمطلوب من الكفاءات المهاجرة بما معها من خلق الإسلام وسلوك الإيمان أن تكون عنصر استقرار وأمان في المجتمع، تعمل من خلال منظمات حقوقية وجمعيات ثقافية ومراكز علمية ومنابر إعلامية على نشر ثقافة المحبة والسلام ونزع فتيل التوتر وداعي الكراهية في كل مكان، فيكون أهل الإسلام بذلك قد قدموا خدمة جليلة مؤثرة في المجتمع، حين أمنوه من خوف فقدان الأمن وعدم الاستقرار، ووفروا بذلك مناخاً حيوياً للتواصل الدعوي والتبادل الحضاري.

ومما يساعد النخبة المسلمة على حفظ الأمن والسلام في المجتمع أن يحرصوا على نشر ثقافة الالتزام بالقوانين والأنظمة السائدة في البلد، علماً وعملاً، انطلاقاً من ثقافتنا الشرعية القائمة على وجوب الوفاء بالعهود والالتزام بالمواثيق على الإطلاق، يشهد لذلك أدلة كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ (النحل:٩١)، وقوله سبحانه: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ (الإسراء:٣٤)، ومدح أهل الوفاء بالعهود فقال عز وعلا: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:٧٦)، وذم الناكثين للمواثيق، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ (آل عمران:٧٧)، وقال كذلك: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح:١٠).

٤- أصل حفظ الوطن:

الوطن هو البيت المشترك الذي يسع كل المواطنين على اختلافٍ بينهم في الدين والثقافة واللغة وغيرها، يحرص الجميع على خدمته وحمايته وبناء مؤسساته وأنظمته بغض النظر عن جانب الاختلاف، فهو الدار المشتركة التي تأوي الجميع وإن تعددت أقاليمه واختلفت ألسنة سكانه ومذاهبهم وعاداتهم وألوانهم، لذلك تعين على الجميع حماية هذا الوطن وصيانته من أي مؤامرة اجتزاء أو اعتداء، وهذا هو الأصل الذي استمر قروناً عبر التاريخ الإسلامي منذ أن تأسس في المجتمع النبوي التعددي، ولا شك أن أي تقصير في خدمة ورعاية مصلحة الوطن المشترك تقصير في أداء واجب شرعي كبير حذرنا من التهاون فيه المصطفى ﷺ في تصوير تمثيلي بليغ حين قال: **«مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا»**[١].

فمن البيان النبوي نفهم أن الأصل في المسلم أن يكون إيجابياً في مجتمعه، يحرص على الخير وعلى نفع الناس أكثر من غيره في جميع الظروف والأحوال، لأنه يتعبد الله بذلك ويدعو غيره بسمته وسلوكه المتميز، فالحرص على سلامة

(١) أخرجه البخاري.

سفينة الوطن من مسؤولية المسلمين عموماً والنخبة من أهل المعرفة خصوصاً مهما قل عددهم، فهم المؤهلون بمقتضى عقيدتهم وشريعتهم لخدمة الـــوطن والمواطنين، أسوة بالصحابة الذين استوطنوا الحبشة فأحسنوا المواطنة ووفـــوا للوطن عندما تعرض للاعتداء حيث آزروا قائد البلد النجاشي بالدعاء والمتابعة والمراقبة كما تروي المهاجرة أم سلمة، رضي الله عنها[1].

ومن نمـــاذج الاقتـــداء في هذا الموضـــوع كذلك نبي الله يوســـف، عليه السلام، الذي ضرب أروع الأمثلة في خدمة الوطن، الذي احتضنه بعد أن هجر إليه رغم ما تعرض له من ابتلاءات قصها علينا الله تعالى في ســـورة يوسف، ظل معها صابراً محتسباً حتى مكنه الله من مركز القـــرار والتـــأثير، فتصرف بما يخدم الوطن وأهله بعيداً عن ذهنية الانتقام والتآمر[2].

فقد قرر الشرع الإسلامي أن من مقاصده من إنـــزال شريعته مصلحة الإنسان في عاجله وآجله، والتيسير ورفع الحرج عنه، وعليه يكون الـــولاء للوطن والإسهام في تأمينه تحقيق لمقصد الشارع، أمـــا التـــهاون في ذلـــك بدعوى المخالفة في الدين واللغة لغالبية أهل الوطن، فإنما هي عنـــد التأمـــل رعونة نفس وسوء فهم وقلة مروءة، لا يشهد لها دين ولا عقل.

---

(١) ينظر تفاصيل القصة في ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحـــسن التركي (الجيزة: دار هجرة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٧م) ١٨٥/٤-١٨٦.

(٢) ينظر دراسة مفصلة للقصة في: القره داغي، علي محيي الدين، نحن والآخر دراسة فقهية تأصيلية، سلسلة قضايا الأمة (٣) الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، ص١١٧ فما بعدها.

الأصول النبوية التفصيلية
في استيعاب المخالف حضارياً

إذا كان القرآن الكريم أسس لرؤية منهاجية كلية في حسن التفاعل الاجتماعي والتواصل الحضاري مع المخالف في المجتمعات التعددية، فالنبي ﷺ تولى في سيرته البيان التنزيلي والتفصيل العملي لمقتضيات الرؤية القرآنية، فقدم ﷺ منهجاً عملياً فريداً في تاريخ البشرية في بناء مجتمع تعددي مندمج، يتعين على النخبة العالمة من المسلمين في بلاد المهجر أن يتحصنوا بهذا المنهج ويصدروا عنه، وهو ينبني على الأصول التالية:

- أصل حماية المخالف:

انطلاقاً من مقتضى قصد الله الكوني في التعددية والاختلاف، الذي يقضي بالنظر إلى المخالف معيناً على الحقيقة، ومنافساً على الإبداع والإنتاج، كانت قضية حماية المخالف وصيانة مختلف حقوقه مضمونة في ذمة الله ورسوله، وهي أعلى مراتب الضمان على الإطلاق في الشريعة الإسلامية، وقد شملت هذه الحماية ما يلي[1]:

---

(١) ينظر رفيع محماد، معالم تدبير الاختلاف مع المخالف الديني في الكتاب والسنة، مجلة الصراط المحكمة لكلية العلوم الإسلامية بالجزائر العدد (٢٣)، يوليو ٢٠١١م، ص ٥٦ فما بعدها.

١ – تأمين حياة المخالف:

لما كان المخالف جزءاً لا يتجزأ من أهل الدار والوطن اقتضى ذلك أن تكون حماية حياته في المجتمع الإسلامي من مسؤولية المسلمين تحت طائلة الوعيد الشديد في قوله ﷺ: « **مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا**»[١]، ويحرص النبي ﷺ، حرصاً شديداً على تأمين حياة المخالف مهما كان دينه ومذهبه، فيقول: «**أيما رجل آمن رجلاً على ذمته ثم قتله، فأنا من القاتل بريء وإن كان المقتول كافراً**»[٢].

ومما يؤكد الوضعية المتميزة للمخالف بين المسلمين زمن النبوة في التكريم والتقدير أن أمنه النبي ﷺ بأقوى صيغ الإيجاب والإلزام الصريحة، في قوله ﷺ: «**من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة**»[٣].

ومن فقه هذه النصوص وسواها ما ذهب إليه ابن حزم من أن من كان في الذمة وقصده العدو في بلادنا، وجب الخروج لقتالهم، حتى نموت دون ذلك صونا لمن هو في ذمة الله تعالى، وذمة رسول الله ﷺ، لأن تسليمه إهمال لعقد تلك الذمة»[٤].

---

(١) البخاري، كتاب الجزية والموادعة، باب إثم من قتل معاهدا بغير جرم.

(٢) ابن حبان في صحيحه، باب الجنايات، كتاب الرهن، والحديث حسنه الأرناؤط في تعليقه على صحيح ابن حبان، والبيهقي في السنن الكبرى، باب الأسير يؤمن فلا يكون له أن يغتالهم.

(٣) المتقي الهندي، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال باب في أحكام الجهاد، الفصل الأول في الأمان والمعاهدة والصلح والوفاء بالعهد.

(٤) ابن حزم، مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات، د.ط. (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.) ص٨٥.

وقرر الشهاب القرافي عموم التأمين لمختلف جوانب حياة المخالف بما ينافي مختلف صور الاعتداء، فيقول : «فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرض أحدهم أو نوع من أنواع الإذاية أو أعان على ذلك، فقد ضيع ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ، وذمة الإسلام»(١).

فتقرير حماية المخالف، واجباً شرعياً في ذمة المسلمين، أفراداً ودولة، بمقتضى النصوص السابقة يجعل المسلم المواطن في المجتمعات الغربية مصدر أمن وأمان لمصالح وطنه ومواطنيه أكثر من غيره كلما التزم بدينه وتقرب لمولاه.

٢- الحماية الدستورية لحقوق المخالف:

من هديه ﷺ أن ساوى المسلم مع مخالفه الديني والثقافي أمام القانون المدني والجنائي وأمام القضاء، إلا ما له خصوصية دينية، وهي حقوق ثابتة مقدسة غير قابلة للإلغاء إلا في حالة نقض العهد من قبل المخالف، وهذا الذي تؤكده الصحيفة الدستورية النبوية الناظمة لمجتمع المدينة التعددي: «ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعيرهم وبعثهم وأمثلتهم، لا يغير ما كانوا عليه ولا يغير حق من حقوقهم وأمثلتهم، لا يفتن أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا واقه من وقاهيته على ما تحت

---

(١) القرافي الشهاب، أنوار البروق في أنواع الفروق، طبعة عالم الكتب، بدون تاريخ، الفرق التاسع عشر والمائة، (بين قاعدة بر أهل الذمة وبين قاعدة التودد لهم)، ١٥/٣.

أيديهم من قليل أو كثير، وليس عليهم رهق ولا دم جـاهلية، ولا يحشرون ولا يعشرون، ولا يطأ أرضهم جيش، من سأل منهم حقاً فبينهم النـصف غير ظالمين ولا مظلومين بنجران، ومن أكل منهم رباً من ذي قبل فذمتي منه بريئة، ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر، ولهم على ما في هـذه الـصحيفة جـوار الله وذمة محمـد النبي أبداً حتى يأتي أمر الله ما نصحوا وأصـلحوا فيما عليهم غير مكلفين شيئاً بظلم»[١].

قال محمد عمارة معلقاً على الصحيفة النبوية: «فكانت هذه الوثيقـة الدستورية أول عقد اجتماعي وسياسي وديني - حقيقي ولـيس مفترضـاً ومتوهماً- لا يكتفي بالاعتراف بـ(الآخر) وإنما يجعل (الآخر) جـزءاً مـن الرعية والأمـة والدولة... له كل الحقـوق وعليه كل الواجبات، وذلـك في زمن لم يكن فيه طرف يعترف بالآخر على وجه التعميم والإطلاق»[٢].

وتزداد حماية حقوق المخالف قداسة حين ينصب الرسول ﷺ نفـسه محامياً أميناً للدفاع عنها في محكمة الآخرة بين يدي الله، حيث قال: «**أَلا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوِ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيـبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[٣].

---

(١) أحمد بن يحيى البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق رضـوان محمد رضوان (بيـروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ) ٧٦/١.

(٢) محمد عمارة، فلسفة الإسلام، مجلة حراء، ص٥٥.

(٣) أبو داود في السـنن، كتاب الخراج والإمـارة والفـيء، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب الجزيـة، بـاب لا يأخـذ المسلمون من ثمار أهل الذمة ولا أموالهم شيئاً بغير أمرهم.

فهذه النصوص تؤسس في ثقافة ووعي المسلم وضعاً اعتبارياً متميزاً للمخالف، بحيث يشعر بمسؤوليته الشرعية عن حياته وحقوقه، فيندفع لحماية الوطن وحقوق المواطنين إبراء للذمة وتبليغاً لواجب الدعوة من منطلق خدمته والإحسان إليه تعبداً وصدقاً لا مجاملة وطمعاً.

٣- حماية الحرية الدينية:

بنى الإسلام مجتمعه ونظامه السياسي على أساس الحرية الدينية، فهو يعرض مبادئه، ويبين أحكامه، والناس بعد ذلك أحرار في قبوله أو رفضه ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف:٢٩)، ففي ظل الإسلام لا تلغى الديانات الأخرى، ولا يحظر وجود سائر المبادئ والملل، بل يخاطبهم القران الحكيم معترفا بوجودهم، تاركاً لهم حرية اختيارهم بناء على مبادئه المؤسسة لحرية التدين والاعتقاد، النافية لأجواء الإكراه والإجبار، كقوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ (البقرة:٢٥٦)، وقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ (الكافرون:٦)، وقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:٩٩)، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ (النحل:٨٢)، وسواها من الآيات المقررة للحرية الدينية.

فكان طبيعياً أن تتولى الوثيقة النبوية الدستورية حماية الحقوق الدينية للمخالفين، وأن تنص بشكل صريح على حق المخالف في التعبير عن ذاتيته الدينية، بممارسة طقوسه، والعمل بمقتضى شريعته، والاحتفال بأعيادهم الدينية «**لا يفتن أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته**»،

كما احتفظت لهم الوثيقة النبوية بحقهم في الاستقلال بالنظام القـضائي في أمورهم الخاصة بهم.

وقد شملت سعة رحمته ﷺ المشركين أنفسهم حين وقعوا بين يديـه في غزوة بدر، فلم يكرهم على الإسلام، وإنما قبل منهم الفداء وتركهم علـى شركهم[1]، كما حرر أهل مكة عام الفتح دون إجبارهم على الإسلام، وقد مكنه الله منهم، حين قال لهم: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[2].

ويرى الدكتور يوسف القرضاوي، من المعاصرين، أن من مقتـضيات حرية المخالف الدينية كفالة حقه في بناء وإنشاء معابدهم، بـل ومـساعدة الدولة لهم في ذلك[3].

وإجمالاً، فإن إقرار هذه الوضعية المتميزة للمخالف في زمن يلغى فيـه (الآخر) ويباد، هو ما جعل العالم الإنجليزي «سير توماس أرنولد» يقول عن الحرية الدينية التي أقرها الإسلام: «إن بقاء النصرانية الـشرقية هـو هبـة الإسلام»[4]، وعليه فصور الظلم والكراهية التي يتعرض لها المسلمون أحياناً

---

(١) ينظر البغوي، أبو محمد الحسين، معالم التنـزيل، ص١١٩٤؛ ومحمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م)، ٣٥٠/٤.

(٢) البيهقي في السنن الكبرى، باب فتح مكة، وابن حجر العسقلاني، فتح الباري شـرح صحيح البخاري (بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩هـ) ١٨/٨.

(٣) ينظر يوسف القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ط٣ (القـاهرة: مكتبـة وهبة، ١٩٩٢م) ص٢٠-٢١.

(٤) سير توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام (القاهرة: ١٩٧٠م) ص٧٣٠.

في المجتمعات الغربية لا ينبغي أن يدفعنا ذلك الظلم إلى مخالفة المبدأ الشرعي في معاملة المخالف، وذلك مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة:٨)، وقوله سبحانه وهو ينهى المسلمين عن ردود أفعال عدوانية: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ (المائدة:٢).

- أصل التواصل الاجتماعي مع المخالف:

لقد عمل النبي ﷺ في مجتمع المدينة منذ حلوله بها على تحقيق وحدة النسيج الاجتماعي على أساس التنوع الديني، وذلك تطبيقاً لمبدأ التواصل الاجتماعي مع المخالف الذي قرره القرآن الكريم، وذلك من خلال القضايا التالية:

١- مؤاكلة المخالف الديني:

من القواعد الاجتماعية المحققة للتواصل الاجتماعي والتلاحم بين أفراد المجتمع التعددي تبادل الزيارات وحضور المناسبات الاجتماعية مع المخالف، وتبادل الهدايا والاجتماع على الطعام، لذلك قرر القرآن الكريم مبدأ التواصل الاجتماعي مع المخالف الديني في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ (المائدة:٥).

فكان النبي ﷺ يتعامل مع المخالفين في الحياة اليومية كما يتعامل مع المؤالفين من المسلمين، فكان يأكل طعامهم ويجالسهم ويقبل هديتهم،

كما في قبوله، عليه السلام، هدية المقوقس عظيم مصر[1]، وأكله من الشاة المسمومة التي أهدتها له يهودية.

ولا شك أن زيارة المخالف في داره ومواصلته ومؤاكلتـه ومـشاربته وقبول هديته، مما يزيل الكثير من الحواجز النفسية بين المخالفين، ويؤسـس لتعاون اجتماعي راق مع المخالف.

٢- مناكحة المخالف الديني:

لقد جعل القرآن الكريم (الآخر) الديني من أولي الأرحام حـين أقـام الأسرة على التنوع الديني، من منطلق قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ (المائدة:٥).

فأصبحت الزوجة الكتابية بمقتضى قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (البقرة:١٨٧)، سكناً يسكن إليها المسلم، وموضع محبته ومودته، وإنما يكره هذا الزواج أحياناً في غير بلاد المسلمين مراعاة لمـصلحة الاسـتقرار الأسـري، وإلا فالنبـي ﷺ قبل زواج ماريا أم المؤمنـين، رضي الله عنـها، من الأقبـاط، كما تزوج من المخالفين اليهود صفية بنت حيي بن أخطـب، رضـي الله عنـها، فقـدم بذلك، ﷺ، دليـلاً عمـلياً على اسـتيعابه

---

(١) ينظر المناوي، محمد عبد الرؤوف، فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديـث البشير النذير، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٤م) ٢١/٣.

للمخالف والمؤالف رفقاً ورحمة، في الزمن الذي يتقاتل فيه المتخالفون ويتدابرون ويتباغضون.

يقول يوسف القرضاوي: «تسامح كبير من الإسلام، حيث أباح للمسلم أن تكون ربة بيته وشريكة حياته وأم أولاده غير مسلمة، وأن يكون أخوال أولاده وخالاتهم من غير المسلمين»[1].

هكذا يتمدد في شرعنا مبدأ الاندماج الاجتماعي مع المخالف الديني إلى أخص الخصائص، وهي الحياة الزوجية، واللبنة الأساس للمجتمع، وهو ما يجعل المخالف في المجتمع الإسلامي يعيش كامل مواطنته بإيجابية عالية، كما كان الأمر على الأقل زمن النبوة والخلافة الراشدة.

٣- مكافلة المخالف الديني:

لقد بين النبي ﷺ في سيرته مع المخالفين أن مقتضى البر والإقساط للمخالف في قول الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، هو حسن المعاشرة ولطف المعاملة في السراء والضراء، لذلك كان المخالف في المجتمع النبوي مشمولاً بالتكافل الاجتماعي، خصوصاً في حالات العجز والحاجة؛ لأن أقوى موجب التكافل هو إنسانية الإنسان وآدميته المكرمة قبل الاختلاف، فقد أثنى الله الثناء الحسن على من يطعم

(١) يوسف القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص٦.

المخالف عند الحاجة في قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (الإنسان:٨)، فكان الأسير المرغب في إطعامه زمن التنزيل مخالفاً دينياً.

فحين اجتهد النبي ﷺ وبعض الصحابة في منع التصدق على فقراء أهل الذمة لكثرة الفقراء المسلمين جاء الرد القرآني حاسماً في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ﴾ (البقرة:٢٧٢)، فنادى النبي ﷺ فوراً فقراء أهل الذمة ومكنهم من حقهم في الصدقة[1].

واستمر مبدأ التكافل الاجتماعي للمخالف في المجتمع الراشدي حتى صار ثقافة مشاعة، يشهد لذلك قصة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مع اليهودي الفقير، فقد بادر ؓ، بمجرد معاينة حالة اليهودي الاجتماعية الحرجة بإصدار أمره لولي بيت المال بتمكين اليهودي من الضمان الاجتماعي دفعاً لحاجته، حيث قال: «انظر هذا وأضرباءه، فو الله ما أنصفناه، إذ أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم...» [2].

٤- عيادة مرضى المخالفين الدينيين:

من صور الرحمة النبوية الجميلة بالمخالف ومقتضيات البر به تفقده وزيارته عند مرضه، كما فعل ﷺ مع غلام من اليهود كان مريضاً «فَأَتَاهُ النَّبِي ﷺ يَعُودُهُ فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمْ»، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَ

(١) ينظر البغوي، معالم التنزيل، ص١٧٣.
(٢) أبو يوسف، الخراج، تحقيق محمد إبراهيم البنا (دار الإصلاح) ص ٢٥٩.

رَأسه، فَقَالَ لَهُ أَبوهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ، فَأَسْلَمَ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ بِي مِنَ النَّارِ»[1]، فهذا الفعل النبوي إنما هو التفاتة إنسانية لطيفة وخدمة اجتماعية راقية في مثل هذه اللحظة من لحظات الإنسان الدقيقة، ومن جهة أخرى فهو فعل يشكل إسهاماً فعلياً في دعم الترابط الاجتماعي للمجتمع التعددي.

٥- حسن مجاورة المخالف الديني:

إن مما يساعد في الاستيعاب الحضاري ويمكن من الاندماج الاجتماعي للمخالف في المجتمع التعددي حسن الجوار، وقد كان الإحسان إلى الجار فضيلة أخلاقية بين العرب قبل الإسلام، فصارت في الإسلام في أعلى الدرجات، فقد رتب الله سبحانه درجة الإحسان إلى الجار المخالف بعد الوالدين والأقربين في قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ (النساء:٣٦)، وقد حمل القرطبي الجار الجنب على المخالف اليهودي أو النصراني[2].

---

(١) أبو داود في السنن، كتاب الجنائز، باب في عيادة الذمي، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب الجنائز، باب عيادة المسلم غير المسلم، والبخاري في الأدب المفرد، كتاب الجنائز، باب عيادة المشرك، وصححه الألباني تعليقا على سنن أبي داود.

(٢) ينظر القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني، ط ٢ (القاهرة: دار الشعب، ١٣٧٢هـ) ١٨٤/٥؛ ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، ط١ (بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٨هـ) ١٣٨/١.

وقد تأكدت القيمة الشرعية العاليـــة لحسن المجاورة بقول الـــنبي ﷺ: «مَا زَالَ يُوصِينِي جِبْرِيلُ بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ»[1]، وبالغ، عليـــه السلام، في النهي عن خوارم الإحسان إلى الجار حين قال: «وَاللَّهِ لا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لا يُؤْمِنُ، قِيـــلَ: وَمَـــنْ يَا رَسُـــولَ اللَّهِ، قَالَ: الَّذِي لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَايِقَهُ»[2].

وبيـــاناً لمراتب الجوار الناظمـــة للمخالف الواجب الإحـــسان إليـــه، يقول ﷺ: **«الجيران ثلاثة: جار له حق وهو المشرك، له حق الجوار، وجار له حقان وهو المسلم، له حق الجوار وحق الإسلام، وجار له ثلاثة حقوق مسلم له رحم، له حق الجوار والإسلام والرحم»**[3].

٦- صلة رحم المخالف الديني:

لما قرر الحق سبحانه أن يكون التواصل العائلي والترابط الأسري واجباً مقدساً لا ينقض بالخلاف، أمر بالإحسان إلى الوالدين حتى في حالة اشتداد الخلاف الديني، فقال: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ (لقمـــان:١٥)، ولذلك أمر النبي ﷺ أسماء بنت أبي بكر، رضي الله عنهما، أن تصل أمهـــا

---

(١) البخاري في الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب الوصاءة بالجار.

(٢) البخاري في الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، ومسلم في الجامع الصحيح، كتاب الإيمان، باب بيان تحريم إيذاء الجار.

(٣) ابن حجر، العسقـــلاني، فتح الباري ١٠/٤٤٢ والبيهقي في شعب الإيمـــان، بـــاب إكرام الجار.

وتستقبلها في بيتها وهي مشركة لما قدمت عندها ترغب في رؤيتها وزيارتها[1]، ويأبى الله إلا أن تكون هذه القصة سبباً[2] في نزول آية البر بالمخالف أصلاً ثابتاً تقرأ إلى يوم القيامة، كما سبقت الحديث عن ذلك.

- أصل التواصل الثقافي مع المخالف الديني:

لقد قدم النبي ﷺ في سيرته نموذجاً عملياً رائعاً من التواصل الحضاري والتبادل الثقافي مع المخالف، وذلك من خلال إشراك المخالفين في بعض القيم الثقافية المشتركة، التي تبرز قدرة القيم الحضارية الإسلامية في استيعاب المخالف، نذكر من ذلك على سبيل المثال:

١- موافقة المخالف الديني:

كان من هديه ﷺ السعي لموافقة المخالف الديني من أهل الكتاب، ولا يخالفهم إلا فيما لا يسعه إلا أن يخالفهم فيه، فقد روى ابن عباس أن رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «كَانَ يُحِبُّ مُوَافَقَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِيمَا لَمْ يُؤْمَرْ فِيهِ بِشَيْءٍ»[3]، لذلك يمكن تلمس أوجه الموافقة النبوية للمخالف من خلال الأمثلة التالية:

في التعبديات: فقد سعى النبي ﷺ، لموافقة اليهود في صيام عاشوراء ومشاركتهم في فرحهم الديني، ذلك أنه ﷺ: «لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ

---

(١) البخاري في الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب صلة الوالد المشرك.

(٢) ينظر البغوي، معالم التنزيل، ص١٣٠٤.

(٣) البخاري في الجامع الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه.

وَجَدَ الْيَهُودَ يَصُومُونَ عَاشُورَاءَ، فَسُئِلُوا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالُوا: هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي أَظْفَرَ اللَّهُ فِيهِ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى فِرْعَوْنَ وَنَحْنُ نَصُومُهُ تَعْظِيمًا لَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **نَحْنُ أَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ، ثُمَّ أَمَرَ بِصَوْمِهِ**»[1].

في الهندام: فقد حرص النبي ﷺ على إبداء الموافقة للمخالف الديني حتى في دقائق الأمور كهيئة الشعر، فقد كان المشركون يفرقون الشعر، وأهل الكتاب يسدلون، فاختار النبي ﷺ الإسدال موافقة لهم ثم فرق بعد ذلك موافقة للآخرين[2].

ولعل النبي ﷺ، في هذه الموافقة يسعى لوحدة المظهر الثقافي والحضاري لأبناء المجتمع ما وسعه ذلك.

ولا يعترض على هذا بالنهي عن التشبه بغير المسلمين في قوله ﷺ: «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**»[3]، فالنهي محمول على خصوص التشبه بالمخالف في خصوصيته الدينية، أو التشبه في العادات بنفسية منهزمة حضارياً إعجاباً واستلاباً، أما التشبه بالقوم فيما هو من العادات البشرية التي لا ترتبط بالخصوصية الدينية فهو على أصل الإباحة[4]، فمدار المسألة في النهاية على المصلحة وانتفاء المفسدة، يقول ابن تيمية: «لو أن المسلم بدار الحرب أو دار كفر غير حرب، لم يكن مأموراً بالمخالفة لهم في الهدي

---

(١) نفسه.

(٢) نفسه.

(٣) أبو داود في السنن، كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة.

(٤) ينظر فيصل مولوي، مرجع سابق، ص١٠٦- ١٠٧.

الظاهر، لما عليه في ذلك من الضرر، بل قد يستحب للرجل أو يجب عليه أن يشاركهم أحياناً في هديهم الظاهر، إذا كان في ذلك مصلحة دينية»[1].

ومقتضى المصلحة الدعوية الآن في الحفاظ على سنة الموافقة في المظهر الحضاري العام للمجتمع، خصوصاً وأن اللباس في مجتمعات العالم الآن يكاد يكون متشابهاً إلى أبعد الحدود، كما أن الحرص على التميز في اللباس والهيئة عن عامة المجتمع مخالف لهديه ﷺ الذي كان يلبس لباس قومه ولا يتميز عنهم، ويفوت مصلحة الدعوة وفرصة التواصل.

٢- حسن المعاملة اليومية للمخالف الديني:

كان النبي ﷺ القدوة الحسنة والمثل الأعلى في حسن معاملة المخالفين والتلطف بهم حتى في التعامل اليومي بما لا يكاد يشعر معه المخالف بالتميز عن المسلمين، نذكر من ذلك على سبيل المثال لا الحصر:

أ- حسن الاستقبال:

فقد كان ﷺ يحسن استقبال المخالفين ويكرمهم وينزل أكابرهم منزلتهم، وكان من تمام لطفه وكرمه بالمخالف الديني أن استقبل وفداً من النصارى بمسجده ﷺ حتى إذا حانت صلاتهم أذن لهم النبي ﷺ بالصلاة في مسجده[2]، وزار اليهود في بيت المدارس، حيث يتدارسون كتابهم الديني وحاورهم فيها، إلى غيرها من صور المخالطة وتبادل الزيارات في الأماكن المقدسة لدى الطرفين.

---

(١) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، ١/١٧٦.

(٢) ينظر ابن هشام، السيرة النبوية، ١/٥١١.

ب- رد التحية:

كان النبي ﷺ يقابل التحية بمثلها للمخالف الديني، وحتى في حالة الخداع في التحية وتحريف الكلم عن مواضعه كما يفعل اليهود، لا ينكر عليهم ولا يعنف وإنما يتأدب معهم في الرد، فعن «عَائِشَةَ، رَضِي اللَّه عَنْهَا، قَالَتْ: دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ فَفَهِمْتُهَا، فَقُلْتُ: عَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **مَهْلاً يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّه**، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **فَقَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ**»[1].

فهذا عنف وسوء أدب من المخالف قابله ﷺ بمنتهى الرفق والفطنة، ونهى عن الرد عليهم بالعنف، فقال: «**إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ**»[2].

أما الخلاف في مبادأة المخالف الديني بالتحية فراجع إلى نوع تعارض بين روايات الحديث الواردة في الموضوع من حيث الإطلاق والتقييد، فحديث «**لا تَبْدَءُوا الْيَهُودَ وَلا النَّصَارَى بِالسَّلامِ**»[3] ورد مطلقاً، بينما هناك روايتان أخريان مقيدتان بحالة الحرب، أحدهما قوله ﷺ:

---

(١) البخاري في الجامع الصحيح، كتاب، الاستئذان، باب كيف الرد على أهل الذمة بالسلام؛ ومسلم في الجامع الصحيح، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم.

(٢) مسلم، المصدر السابق.

(٣) مسلم، المصدر السابق.

«إِنَّا غَادُونَ إِلَى يَهُودَ فَلا تَبْدَءُوهُمْ بِالسَّلامِ، فَإِذَا سَلَّمُوا عَلَيْكُمْ فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ»[1]، وثانيهما قوله ﷺ: «إِنِّي رَاكِبٌ غَدًا إِلَى الْيَهُودِ فَلا تَبْدَءُوهُمْ بِالسَّلامِ»[2].

وقد ذهب المرحوم فيصل مولوي إلى الجمع بين تلك الروايات لحمل النهي عن الابتداء بالسلام على خصوص حالة الحرب، والإباحة في غيرها[3].

ج- التشميت:

كان من هديه ﷺ أن يشمت العاطس المسلم إذا حمد الله، ويشمت المخالف إذا عطس بما يناسبه رفقاً به وتكريماً، فقد «كان اليهود يتعاطسون عند النبي ﷺ يرجون أن يقول لهم: يرحمكم الله، فيقول: «يَهْدِيكُمُ اللَّهُ وَيُصْلِحُ بَالَكُمْ»[4]، فوسعهم ﷺ بدعائه الكريم، يرجو لهم أعظم الأمور وهي الهداية والصلاح، ولم يحرمهم من هذا الأدب الرفيع.

تلك هي بعض معالم المنهاج النبوي التفصيلي في استيعاب المخالفين الدينيين، تبرز كمال خُلُقه ﷺ، ذكرتها بعد بيان معالم التأسيس الكلي لحسن معاملة المخالف واستيعابه حضارياً، أرجو أن أكون قد وفقت في حسن عرضها وبيانها.

---

(١) أحمد في مسنده من حديث أبي بصرة الغفاري.

(٢) ابن ماجه في السنن، كتاب الأدب، باب رد السلام على أهل الذمة.

(٣) ينظر فيصل مولوي، المسلم مواطناً في أوربا، ص١٠٢-١٠٣.

(٤) أبو داود في السنن، كتاب الأدب، باب ما جاء في تشميت العاطس، والبيهقي في شعب الإيمان، باب تشميت العاطس، فصل في تشميت الذمي.

خاتمة

في ختام هذه الجولة في رحاب الأصول الشرعية المؤسسة للعطاء الحضاري للكفاءات المسلمة المهاجرة في المجتمعات التعددية، أود تقرير ما يلي:

إن حقيقة العطاء الحضاري للكفاءات المهاجرة يمثل حاجة اجتماعية وحضارية إنسانية حقيقية، منشؤها الفطرة الإنسانية، ومستندها شريعة الإسلام الخاتمة، كتاباً وسنة، نصاً ومقصداً، ولا ينبغي أن يشوش على هذه الحقيقة ما يتعرض له المسلمون أحياناً من صور الظلم والكراهية في بعض المجتمعات الغربية.

فأصالة مطلب العطاء الحضاري للمسلمين بين الناس ثابتة في وحي الله، كتاباً وسنة، ذلك أننا تتبعنا منهج القرآن الكريم في بناء مبدأ العطاء الحضاري فألفيناه في غاية الوضوح والشمول مع العمق، حيث حظي هذا المفهوم ببناء متين على أصول مكينة، وبحثنا في السنة فوجدناها أرست المفهوم على أسس تشريعية مفصلة حكيمة أتمت البناء على نحو شامل ومتكامل فجاء البنيان راسخاً وشامخاً.

فهذا التأسيس التأصيلي لمفهوم العطاء الحضاري على هذا المنهج الشامل والمتكامل يجعل المسلمين أقوى من غيرهم في إدارة حوار الثقافات والتواصل بين مختلف الحضارات من منطلق حضاري وعلمي ودعوي متين، كما أن تشبع المسلمين بما قررته الشريعة في موضوع الاندماج الاجتماعي على أساس العطاء الحضاري يؤهلهم موضوعياً لحسن تدبير الاختلاف مع المخالفين في مجتمعاتهم التعددية، فالذي لا يقوى على بناء الائتلاف مع المخالف حقيقة وصدقاً لا يستطيع أن يحسن تدبير الاختلاف معه، فحاجة الإنسانية في العالم الآن إلى من ينشر فيها دعوة بناء الائتلاف وتدبير الاختلاف ملحة، وأقوى مرجعية حضارية قادرة على تلبية هذه الحاجة وبناء السلم الاجتماعي والعالمي الذي تنتقل الإنسانية بموجبه من واقع الكراهية والاقتتال والاحتراب، إلى أفق التعاون والتكامل هي المرجعية الإسلامية بلا منازع.

ولعل القيام بهذه الفريضة الدعوية الحضارية في خدمة المجتمعات الإنسانية يفتح آفاقاً واسعة جديدة من التمكين الحضاري للأمة الإسلامية، خصوصاً بعد أن تزول الحواجز وتقل العوائق التي تحول بين الناس وتلبية حاجاتهم من حضارة الإسلام، وينكشف باطل التآمر على المسلمين وثقافتهم الذي تقوده بعض الدوائر الغربية.

ومن القضايا التي أثارها البحث في موضوع التأسيس الشرعي للعطاء الحضاري للكفاءات المهاجرة وتستدعي من الباحثين تفصيل القول فيها:

القضية الأولى: وهي بيان الحاجات الاجتماعية والدعوية والعلمية والعملية الماسة إلى بناء فقه الاندماج الاجتماعي الإيجابي والتواصل الحضاري بين المسلمين وغيرهم، جمعاً وتأصيلاً وتقعيداً وتنزيلاً.

القضية الثانية: هي الإجابة عن سؤال العلاقة بين المؤتلف والمختلف بين المذاهب والطوائف داخل المجتمع الواحد؟

والقضية الثالثة: هي ضوابط توظيف مبدأ الاندماج الاجتماعي في بناء جسر التعارف والتعاون بين أطراف الخلاف داخل المجتمع الواحد.

والقضية الرابعة: تتعلق بالوسائل العملية والمداخل الثقافية والتربوية التي من خلالها يتم تجاوز حالة الاضطراب المعرفي والخلط العلمي والاهتراء التنظيمي للمسلمين في المجتمعات الغربية.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

هِجْرةُ العقول والكفاءات
معادلة حَضاريّةٌ

د. خالد حربي

- مقدمة:

ارتبطت ظاهرة الهجرة بالإنسان منذ أن خُلق، حيث تنقل من مكان إلى آخر، وهاجر من أرض إلى أخرى بحثاً عن الغذاء والأمن والحرية. وظل العالم يعرف ويدرك مفهوم الهجرة هكذا حتى قيام الحضارات القديمة حيث قامت العقول المهاجرة بدور رئيس فيها تمثل في نقل أهم إنجازات بلادهم إلى البلاد التي هاجروا إليها، وأوجدوا تفاعلاً خلاقاً بين الحضارات المختلفة.

وبمجيء الإسلام ارتبطت الهجرة بمدلول ديني في الذاكرة باعتبارها إحدى صور الجهاد في سبيل الله بناءً على هجرة المسلمين الأوائل إلى الحبشة، وهجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة المنورة.

وفي العصور الحديثة والمعاصرة أصبحت ظاهرة الهجرة بزيادة معدلاتها عملية سكانية نتيجة مجموعة من الأسباب ترتبت عليها مجموعة من التغيرات في حجم وشكل المجتمع. وتأتي في مقدمة الأسباب الداعية إلى الهجرة، الأسباب السياسية والاقتصادية، وخاصة في الهجرات المنطلقة من دول العالم الثالث والمتجهة إلى أوربا والغرب، الأمر الذي أحدث أزمات ومشاكل في الدول المهجرة لرعاياها، لاسيما الكفاءات أو العقول المميزة.

و لم تقتصر هجرة العقول المميزة على دول العالم الثالث أو الدول العربية فحسب، بل تُعد ظاهرة عالمية، فهناك هجرة للعقول المتميزة من اليابان والصين والهند وباكستان وبعض الدول الإفريقية.. وغيرها، لكن أهم ما تتميز به هو اتجاهها دائماً إلى الدول الصناعية الكبرى كالولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا وألمانيا.

بدأت ظاهرة هجرة العقول العربية الإسلامية بصورة متواضعة في القرن التاسع عشر، خاصة من مصر وسوريا ولبنان وفلسطين والجزائر، ثم زادت مع بداية القرن العشرين وخلال الحربين العالميتين الأولى والثانية. وبعد انتهاء الأخيرة وفي ظل استقلال الشعوب المحتلة وتحررها، مع التوجه العصري للتكنولوجيا، شهد العالم ظاهرة هجرة الكفاءات والعقول العربية الإسلامية بصورة خطيرة منذ الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، حيث أورثت هذه الظاهرة حالة من الفقر في الكفاءات العلمية العربية الإسلامية، وقد ساعد على ذلك أيضاً إصابة المثقفين العرب بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧م

بصدمة نفسية، فرأوا في الهجرة ملاذاً من الواقع الـــسياسي والاجتمـــاعي والاقتصادي المرير.

ومع أن انتصار ١٩٧٣م عمل على إعادة عدد كبير من الكفاءات العربية الإسلامية المهاجرة إلى أوطانها، كما ساعد على إبقاء الكثير من العقول العربية الإسلامية في أوطانها، إلا أن ظاهرة العولمة (Globalization) وثورة المعلومات والاتصالات أديتا بشكل ملحوظ إلى الاهتمام برأس المال المعرفي الذي يجتذب الكفاءات والعقول المميزة، بحيث أصبحت هجرة الكفاءات العربية إلى البلدان الرأسمالية تحتل مكاناً أساسياً في السياسات الاقتصادية لهذه الدول المتقدمة، وتشكل في الوقت نفسه خطراً على تطور المجتمعات العربية وتقدمها، يؤيد ذلك أن معظم الدراسات التي أجرتها المنظمات الدولية، وخاصة الأمم المتحدة، تبين أن معظم الكوادر العربية الإسلامية المهاجرة تمثل كفاءات ذات قدرة عقلية عالية تشمل كل نواحي المعرفة العلمية، الأمر الذي يتسبب في خسائر مالية للدول العربية الإسلامية تقدر بما يتجاوز ٢٠٠ مليار دولار نتيجة هجرة أكثر من ١٠ مليون من الكفاءات العلمية والخبرات الفنية العربية الإسلامية.

إذن نحن أمام ظاهرة جد خطيرة على المجتمع الإسلامي قياساً على ماضيه وتاريخه التليد.

فهل لهجرة العقول والكفاءات الإسلامية جـــذور في تـــاريخ الأمـــة، وخاصة في فترات السؤدد الحضاري؟

هل وجد في العالم الإسلامي إبان عصور ازدهار حضارته أي عوامل لدفع العقول والكفاءات وهجرتها إلى خارجه ؟

ما الفروق الجوهرية بين واقع العالم الإسلامي في العصور الإسلامية وواقعه حالياً ؟

ما الأسباب والدوافع التي تدفع العقول والكفاءات الإسلامية للهجرة خارج العالم الإسلامي حالياً؟

هل هناك إحصـــائيات لهجرة العقـــول الإسلامية، وإن وجدت، فإلى ما تشير وتنذر ؟

تساؤلات منهجية وجوهرية تحاول هذه الدراسة الإجابة عليها.

واقع العقول والكفاءات في الحضارة الإسلامية

شهد العالم إبان عصور الحضارة الإسلامية ازدهار العلوم والمعارف وتطورها والإبداع فيها، فعلى مدى قرون طويلة تقترب من الألف سنة، كان العلم على مستوى العالم ينطق بالعربية، درساً وممارسة وتطبيقاً، وذلك إنما يرجع إلى النهضة العلمية غير المسبوقة في الحضارة الإسلامية، تلك التي اهتمت بالعلم وتطبيقه اهتماماً لم تشهده حضارة من الحضارات أو أمة من الأمم.

ولعلماء الحضارة الإسلامية تاريخ حافل بالإنجازات والابتكارات الأصيلة التي أفادت منها الإنسانية جمعاء.

وجد العلماء وأصحاب العقول في المجتمع الإسلامي البيئة العلمية المناسبة لممارسة العلم والمشجعة على العمل به، وخاصة من قِبل الدولة التي تولت رسمياً رعاية العلماء والمفكرين. فغلب على الدولة الإسلامية الاهتمام بالعلم وتنشئة العلماء ورعايتهم، وليس أدل على ذلك من انتشار المدارس والجامعات والمعاهد العليا والمكتبات العامة والخاصة في كل أرجاء العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه.

وكانت الخلافة الإسلامية -كما يصف العالم الأمريكي «دريبر» في كتابه «النزاع بين العلم والدين- ملكاً واسعاً يفوق المملكة الرومانية بكثير، وكانت مملوءة بالمدارس والكليات، وكان في كل طرف من أطراف هذه

الخلافة الإسلامية مرصد لرصد الكواكب، وكان الأمراء المسلمون يتنافسون في الأقاليم على رعاية العلم والعلماء. ونتيجة تشجيعهم للعلماء انتشر الذوق العلمي في المساحة الشاسعة التي بين سمرقند وبخارى وإلى فاس وقرطبة.

فمن أوائل أسباب النهضة العلمية التي عاشها العالم الإسلامي: اهتمام الخلفاء والأمراء بالعلم ورعايتهم لأهله وتشجيعهم، ومنهم - على سبيل المثال- الخليفة هارون الرشيد، الذي أصبحت بغداد في عهده كعبة رجال العلم والأدب. وكان هو نفسه من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم، يحب الشعر والشعراء، ويميل إلى أهل الأدب والفقه، ويكره المراءاة في الدين. وكان بلاطه يزدان دائماً بمجالس العلم، التي كثيراً ما كان يشارك فيها، ففي المجلس الذي عقد بين الكسائي والمفضل بحضرته، بادر الرشيد بافتتاح المجلس، وسأل المفضل: كم اسم في سيكفيكهم الله؟[1]. وقد سجل لنا الزجاجي في كتابه «مجالس العلماء» كثيراً من المجالس العلمية ومجالس المناظرات التي عقدت بحضرة الرشيد ومنها: مجلس سيبويه مع الكسائي، ومجلس الكسائي مع الأصمعي، ومجلس أبي محمد الزيدي مع الكسائي، ومجلس أبي يوسف صاحب أبي حنيفة مع علي بن حمزة.

فما رأيت -كما يقول عبد الله بن المبارك- عالماً ولا قارئاً للقرآن، ولا سابقاً للخيرات ولا حافظاً للحرمات في أيام بعد أيام رسول الله ﷺ وأيام

---

(١) الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن، مجالس العلماء، تحقيق عبد السلام هارون، ط٢ (القاهرة: مكتبة الخانجي؛ الرياض: دار الرفاعي، ١٤٠٣ هـ) ص ٣٠.

الخلفاء الراشدين والصحابة، إلا زمن الرشيد وأيامه، فلقد كان الغلام يجمع القرآن وهو ابن ثماني سنين، ويستبحر في الفقه والعلم، ويـــروي الحـــديث، ويجمع الدواوين، ويناظر المعلمين وهو ابن أحـــد عشرة سنة، و لم يكن ذلك إلا بكثرة إنفاقه، واهتمامه بالعلم والعلماء وطلابه منذ الصغر[1].

لقد بلغ اهتمام الرشيد بالعلم حداً إلى الدرجة التي معها كان يمـــتحن العلماء في علمهم، ومن ذلك امتحانه بختيشوع أمام جماعة من الأطباء فقال لبعض الخدم سراً «احضر ماء دابة حتى نختبر الطبيب ونجـــرب معرفتـــه»، فمضى الخادم وأتى بقارورة فيها بول دابة، فلما رآه قال: يا أمير المـــؤمنين، ليس هذا بول إنسان، قال له أبو قريش - وكان من ملازمي مجلس الخليفة- كذبت، هذا ماء حظية الخليفة، فقال بختيشوع: لك أقول أيها الشيخ الكريم لم يبل هذا إنسان البتة، وإن كان الأمر على ما قلت فلعلها أكلت شـــعيراً. فقال له الخليفة: من أين علمت أنه ليس ببول إنسان؟ فقال له بختيـــشوع: لأنه ليس له قـــوام بول الناس ولا لونه ولا ريحه. قال له الخليفة: بين يدي مَن قرأت؟ قال له: قدام أبي جورجيـــس قرأت. قال له الأطباء: أبوه كـــان اسمه جورجس و لم يكن في زمانه من يماثله وكان يكرمه أبو جعفر المنصور إكراماً شديداً. ثم التفت الخليفة إلى بختيشوع فقال له: مـــا تـــرى نطعـــم

---

(١) ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة، المعروف بتاريخ الخلفـــاء، (بيروت: د.ت)، ١٥٧/٢.

صاحب هذا البول؟ فقال له شعيراً جيداً. فضحك الرشيد وخلع عليه خلعة سنية جليلة ووهب له مالاً وافراً، وعينه رئيساً للأطباء.

وفي وقت لاحق عين ابنه جبرائيل رئيساً للأطباء، وذلك لتفوقه في الطب، وتضلعه باختصاصاته حتى أنه ساهم في تدشين أحد علومه المهمة وهو الطب النفسي أو علم النفس، الذي يدعي الغرب أنه مؤسسه في العصر الحديث!

كان لهارون الرشيد جارية رفعت يدها فبقيت هكذا لا يمكنها ردها، والأطباء يعالجونها بالتمريخ والأدهان، ولا ينفع ذلك شيئاً، فاستدعى جبرائيل بن بختيشوع فقال له الرشيد: أي شيء تعرف عن الطب؟ فقال: أبرد الحار، وأسخن البارد، وأرطب اليابس، وأيبس الرطب الخارج عن الطبع. فضحك الخليفة وقال: هذا غاية ما يحتاج إليه في صناعة الطب، ثم شرح له حال الصبية، فقال له جبرائيل: إن لم يسخط عليّ أمير المؤمنين فلها عندي حيلة، فقال له: وما هي؟ قال: تخرج الجارية إلى هنا بحضرة الجميع حتى أعمل ما أريده، وتمهل عليّ ولا تعجل بالسخط، فأمر الرشيد بإحضار الجارية فخرجت. وحين رآها جبرائيل عدا إليها ونكس رأسه ومسك زيلها كأنه يريد أن يكشفها، فانزعجت الجارية ومن شدة الحياء والانزعاج استرسلت أعضاؤها، وبسطت يدها إلى أسفل ومسكت زيلها. فقال جبرائيل: قد برئت يا أمير المؤمنين، فقال الرشيد للجارية: أبسطي يدك يمنة ويسرة، ففعلت ذلك، وعجب الرشيد وكل من كان بين يديه.

يُفسر علم النفس الحديث حالة هذه الفتاة على أنها حالة «فصام Schizophrenia» من نوع يسمى «الفصام التشنجي Catatonia»

أو «الفصام التصلبي Catatonic» الذي يتميز سلوك صاحبه بالتيبس النفسي والجسمي حيث يجلس المريض ساعات طويلة جامداً لا يتحرك وإذا رفع يده أو ذراعه فإنه يبقيه لمدة طويلة كما لو كان منفصلاً عن جسمه. لذا تعتبر هذه الحالة إحدى الاضطرابات الحركية ذات الأعراض التكوينية والنفسية. وربما تنتج عن الاستثارة المستمرة في منطقة غير محددة بالمخ حيث يزداد نشاط «الجاما أمينو بيوتريك أسيد Gamma Amino Butyric Acid (GABA)».

ويلاحظ أن الطبيب «جبرائيل» قد استخدم ما يعرف حالياً بالعلاج السلوكي «Behavior therapy» الذي يهتم في أبسط حالاته بعلاج العرض الملاحظ، كما استخدم الفعل المنعكس «Reflex action» الذي لا يصدر عن المخ وإنما يصدر عن النخاع الشوكي وبالتالي لا يخضع للتفكير الرمزي[1].

فتصلب يد الفتاة فعل قسري تعجز عن تغييره بطرق الإقناع العادية، ولذلك فلابد أن يتم علاجه أيضاً بظروف تعجز الفتاة عن عدم الاستجابة لها، أي بفعل لا إرادي، وهذا ما فعله جبرائيل وهي طريقة أقرب ما يمكن لطريقة الكف المتبادل حيث أبطلت الاستجابة القديمة بواسطة استجابة جديدة أقوى منها.

---

(١) خالد حربي، إبداع الطب النفسي العربي الإسلامي، دراسة تأصيلية مقارنة بالعلم الحديث، ط١ (الكويت: المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية، ٢٠٠٧م) ص٤١.

وإذا كان هارون الرشيد قد وضع الأساس لبيت الحكمة في بغداد لتكون أول دار عامة تجمع شتات العلماء وتجرى عليهم الأرزاق، فإن الخليفة المأمون أكمل بناء الدار ووسعها، وبذل كل ما في وسعه لاقتناء نفائس الكتب المعروفة وقتئذ، ورتب فيها الترجمة والعلماء، ومنهم العالم الخوارزمي مخترع علم الجبر للعالمين. وزادت رعاية المأمون لبيت الحكمة حتى صار باعتراف الغربيين[1] أول مكتبة عامة ذات شأن في العالم الإسلامي، وأول جامعة إسلامية يجتمع فيها العلماء للبحث والدرس. وعلى أثرها انتشرت دور العلم والمكتبات العامة في معظم أقطار العالم الإسلامي.

أُشتهر المأمون بشغفه وحبه للعلم ورعايته لأهله، وليس أدل على ذلك من قوله: «قد يسمي بعض الناس الشيء علماً وليس بعلم.. ولو قلت: إن العلم لا يدرك غوره، ولا يسبر قعره، ولا تبلغ غايته، ولا يستقصى أصنافه، ولا يضبط آخره، فالأمر على ما قلت، فإذا فعلت ذلك، كان عدلاً وقولاً صدقاً»[2].

واتسم المأمون باحترام وتبجيل العلماء وإكرام منازلهم، فضلاً عن مناظرتهم، فقد كان يجلس لمناظرة العلماء والفقهاء يوم الثلاثاء من كل أسبوع، فإذا حضروا، أُدخلوا حجرة مفروشة، وقيل لهم: انزعوا أخفافكم،

---

(1) Holt, P.M&Ann,k.s.l and lewis, Bernard: The Cambridge History of Islamic society and civilization, vol 28, cambridge university, press 1970 , p.74 8

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق فوزي عطوي، طبعة بيروت، بدون تاريخ، ص ٥٥٧.

ثم أُحضرت الموائد، وقيل لهم: أصيبوا من الطعام والشراب وجددوا الوضوء.. فإذا فرغوا أتوا بالمجامرة فبخروا وطيبوا، ثم خرجوا، فاستدناهم حتى يدنوا منه، ويناظرهم أحسن مناظرة وأنصفها، فلا يزالون كذلك إلى أن تزول الشمس، ثم تنصب الموائد ثانية فيطعمون وينصرفون[١].

وهاك مثال واحد لرعاية المأمون لأسرة علمية كان لها شأو عظيم في النهضة العلمية التي شهدها العالم الإسلامي، وسجلت بإنجازاتها العلمية أروع الصفحات في تاريخ العلم العالمي، ألا وهي أسرة بني موسى بن شاكر (محمد، أحمد، الحسن) أبناء موسى بن شاكر الذي توفي وهم صغار، فتولاهم المأمون وألحقهم ببيت الحكمة تحت إشراف الفلكي المعروف يحيى بن أبي منصور. وظل المأمون يرعاهم حتى شبوا على التعلم، وحتى تخرجوا، ومارسوا العلم، وصاروا من العلماء المبتكرين، وقدموا من الإنجازات العلمية ما أفادت منه البشرية.

تبدأ التقاليد العربية المدونة في علم الحيل «الميكانيكا»[٢] بكتاب «الحيل» لبني موسى بن شاكر، هؤلاء الذين بحثوا في مجالات علمية عدة،

---

(١) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر (بيروت: دار الأندلس، ١٩٦٥م) ٣/٤٣٢.

(٢) علم الميكانيكا أو ما أسماه علماء الحضارة الإسلامية بعلم «الحيل» يعني الحصول على الفعل الكبير من الجهد اليسير عن طريق إحلال العقل محل العضلات، والآلة محل البدن. ويتفرع من هذا العلم فروع علمية أخرى كعلم هندسة الأشكال، وعلم هندسة المخروطات، وعلم هندسة المساحة، وعلم هندسة البصريات تلك التي تشكل منظومة مميزة للتقنية والتكنولوجيا في التراث والحضارة الإسلامية.

أهمها الهندسة والفلك والجغرافيا، ألا أن أهم وأشهر عمل جماعي لبني موسى هو «كتاب الحيل»، بمجلد واحد عجيب نادر يشتمل على كل غريبة وبهذا الكتاب ارتبط اشتهار بني موسى حتى يومنا هذا أكثر من أي كتاب آخر لهم. ولعل ذلك يرجع إلى أن علم الميكانيكا العربية يبدأ به، فهو أول كتاب علمي عربي يبحث في الميكانيكا، وذلك لاحتوائه على مائة تركيب ميكانيكي.

لقد أثر هذا الكتاب في الأجيال اللاحقة لجماعة بني موسى، فبديع الزمان ابن الرزاز الجزري (القرن السادس الهجري) قد استفاد من «كتاب الحيل» في وضع «كتاب الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل». كما أفاد «كتاب الحيل» أيضاً تقي الدين بن معروف الراصد الدمشقي (القرن العاشر الهجري) في تأليف «كتاب الطرق السنية في الآلات الروحانية». وقد شكلت هذه الكتب مجتمعة حلقة مهمة في سلسلة تاريخ علم الميكانيكا إذ أنها تكشف عن إنجازات العقلية العربية الإسلامية في فترة طويلة من فتراتها.

وقد امتدت أهمية كتاب الحيل إلى العصر الحديث، وأفاد منه العلم الغربي، الأمر الذي جعل أساتذة أكسفورد الذين وضعوا كتاب «تراث الإسلام» في أربعينيات القرن العشرين يصرحوا بأن عشرين تركيباً ميكانيكياً من محتويات الكتاب ذو قيمة علمية كبيرة. و لم يقتصر تأثير جماعة بني موسى في الغرب على «كتاب الحيل» فنحن مدينون -على رأي كارا

دى فو- بعدد من الكتب لهؤلاء الأشقاء الثلاثة أحدهم في مساحة الأكر وقياس الأسطح ترجمه جيرارد الكريموني إلى اللاتينية بعنوان Liber Thium Frabrum. وقد أسهم هذا الكتاب في تطور الهندسة الأوربية مدة طويلة.

لقد قدمت جماعة بني موسى من خلال مؤلفاتها إسهامات جليلة في العلوم التي بحثوا فيها. وقد حصر المشتغلون بتاريخ العلوم تلك الإسهامات ومنها: وضع نظرية ارتفاع المياه التي لا تزال تستخدم حتى اليوم في عمل النافورات، اختراع ساعة نحاسية دقيقة، قياس محيط الكرة الأرضية والذي أخرجوه مقترباً من محيطها المعروف حالياً، اختراع تركيب ميكانيكي يسمح للأوعية بأن تمتلئ ذاتياً كلما فرغت، ابتكار طرق لرسم الدوائر الإهليلجية (الدوائر المتداخلة)، تأسيس علم طبقات الجو، تطوير قانون هيرون في معرفة مساحة المثلث. وفي كتبهم أيضاً وصف لقناديل ترتفع فيها الفتائل تلقائياً ويُصب فيها الزيت ذاتياً ولا يمكن للرياح إطفاؤها. وآلات صائتة تنطلق منها أصوات معينة كلما ارتفع مستوى الماء في الحقول ارتفاعاً معيناً، ونافورات تندفع مياهها الفوارة على أشكال مختلفة وصور متباينة. ولهم كذلك وصف للآلات الموسيقية ذات الحركة الذاتية مثل الناي. وأجمع مؤرخو العلم على أن هذه الأعمال تدل على عبقرية وذهن متوقد مبدع اتسم به أفراد جماعة بني موسى بن شاكر، وقدموا كجماعة منظمة علمية ومعرفية مهمة شغلت مكاناً رئيساً في تاريخ العلم بعامة، وتاريخ التكنولوجيا بخاصة، ومثلت مبادئ التحكم الآلي التي وضعوها أهم الإنجازات التي قامت عليها التقنية والتكنولوجيا الإنسانية.

وكان الخليفة الواثق بالله محباً للعلم مكرماً لأهله مشرفاً على علوم الناس وآرائهم ممن تقدم وتأخر. وكذلك الخليفة المعتضد بالله الذي أُشتهر باحترام العلم والعلماء وتقريبهم وجزل العطايا لهم، ومنهم ثابت بن قرة أحد مشاهير علماء الإسلام في الرياضيات والطب الذي بلغ في تحصيل العلوم شأواً عظيماً إلى الدرجة التي معها نال تبجيل وتوقير المعتضد له، وليس أدل على ذلك من[1]: أنه طاف معه في بستان ويد الخليفة على يد ثابت، فانتزع يده بغتة من يد ثابت، ففزع الأخير، فقال الخليفة: يا ثابت أخطأت حين وضعت يدي على يدك وسهوت، فإن العلم يعلو ولا يُعلى عليه. وكان ثابت يجلس بحضرته ويحادثه طويلاً ويقبل عليه دون وزرائه وخاصته.

لقد استمر دور الدولة الإسلامية في الاهتمام بالعلم ورعاية العلماء على مدى عصورها المختلفة، فعلاوة على ما سبق ذكره من سير الخلفاء، فقد أنشأ الخليفة الموحدي الثالث المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن «بيت الطلبة» للنابغين وتولى الإشراف عليه بنفسه، إلى الدرجة التي معها، حسد بعض حاشيته هؤلاء الطلاب على تقريبه إياهم وخلوته بهم دونهم. كذلك لم يسمع الأمير المعز بن باديس أحد أمراء دولة

(١) الشهرزوري، نزهة الأرواح وروضة الأفراح، المعروف بـ «تواريخ الحكماء» تحقيق مركز التراث القومي والمخطوطات بجامعة الإسكندرية (الإسكندرية: نشرة دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٣م) ص٥٩٥.

الصنهاجيين في المغرب الإسلامي بعالم جليل في أي مصر من الأمصار إلا وأحضره عنده، وبالغ في إكرامه ومنحه أسمى الرتب وجعله من خاصته. كما لم يسمع السلطان محمد الفاتح عن أي عالم في أي مكان أصابه العوز، إلا بادر إليه وأعطاه أكثر مما يحتاج، وبلغت رعايته للعلماء حداً حتى ضمنها وصيته لابنه وهو على فراش الموت، حيث قال: إن العلماء بمنزلة القوة المبثوثة في جسم الدولة، فعظّم جانبهم وشجعهم، وإذا سمعت بأحد منهم في بلد آخر، فاستقدمه إليك وأكرمه بالمال.

وأكرمت الخلافة العثمانية علماءها، وذلك بعد أن عقدت العزم ونجحت في جمع شتاتهم من كل الأمصار، ثم وفرت لهم كل سبل الرعاية، الأمر الذي أدى إلى ازدهار الحركة العلمية والفكرية، وانعكس على تقدم الدولة وتطورها، وجعل منها القوة الأولى في العالم.

يتبين من كل ما سبق مدى الشوط الكبير الذي قطعه المجتمع الإسلامي، إبان عصور حضارته للحفاظ على العلماء وأصحاب العقول، هؤلاء الذين لم يجدوا أمامهم أي قيود تعوق أو تمنع البحث العلمي، بل على العكس كانت الظروف الاجتماعية والمادية والنفسية مهيأة لهم تماماً، الأمر الذي لا تجد معه أي عالم أو صاحب كفاءة قد هاجر وعمل خارج حدود العالم الإسلامي.

العقول والكفاءات الإسلامية
بين عوامل الدفع المحلية وعوامل الجذب الغربية

يقصد بهجرة العقول أو الكفاءات، نزوح حملة الشهادات الجامعية العلمية والتقنية والفنية كالعلماء والأطباء والتكنولوجيين والمهندسين والباحثين والاختصاصيين في علم الاقتصاد والرياضيات والاجتماع وعلم النفس والفلسفة والتربية والتعليم والآداب والفنون والزراعة والكيمياء والجيولوجيا والفنانين والشعراء والأدباء والكتّاب والمؤرخين والسياسيين والمحامين وأصحاب المهارات والمواهب والمخترعين.. وشتى الميادين الأخرى، مما يعني أن مفهوم الكفاءة لا يعني فقط أصحاب الشهادات الجامعية، بل أيضاً أصحاب المؤهلات والخبرات[1]. ولقد أطلق على هجرة الكفاءات مسميات ومصطلحات عدة، منها[2]: هجرة العقول المفكرة، حيث استخدم هذا المصطلح لأول مرة في خمسينيات القرن العشرين، عندما أُطلق على هجرة العقول المفكرة من بريطانيا إلى أمريكا. وأطلقت عليها منظمة الأمم

---

(١) إلياس زين، هجرة الأدمغة العربية (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٢م) ص ١٣.

(٢) راجع سلمان رشيد، أسباب هجرة الكفاءات العربية، مجلة شئون عربية، العدد ٧٧، ص ٢٠٧.

المتحدة للتجارة والتنمية مصطلح النقل المعاكس للتكنولوجيا Reverberant for technology، وأطلق عليها معهد الأمم المتحدة للتدريب والبحث مصطلح نزيف الأدمغة Brain Drain.

ويصنف المهاجرون العرب والمسلمون إلى الدول الغربية إلى صنفين اثنين، الأول يشتمل على المتخصصين الذين يهدفون للعمل والبحث عن فرص للتألق العلمي والاستفادة من مناخ يحفز الإبداع ويقدر الابتكار. ويشتمل الصنف الثاني على الطلاب الذين يهاجرون من دولهم العربية الإسلامية إلى الدول الغربية المتقدمة بهدف الدراسة والتدريب والتوسع في الخبرة، ولكنهم يقررون البقاء والعمل في تلك الدول لفترات قد تقصر أو تطول، وبعضهم لا يعودون إلى أوطانهم.

وفي تفسيرات ظاهرة هجرة العقول والكفاءات العربية الإسلامية، هناك مدرستان، الأولى تفسر الظاهرة من منظور فردى يرى أن الكفاءات أفراد متميزون يسعون إلى تحقيق ذواتهم فكريا ومهنياً. وتفسر المدرسة الثانية ظاهرة هجرة العقول على أنها ظاهرة دولية تمتد جذورها إلى قيام سوق دولية للكفاءات تعمل على تهجيرها من أوطانها الأصلية.

وهناك كثير من العوامل تدفع بالعقول والكفاءات العربية الإسلامية إلى الهجرة وترك أوطانها، يمكن حصرها في نقاط محددة فيما يلي:

١- من الثابت أن معظم الدول العربية الإسلامية تمتلك قدراً من الموارد الاقتصادية، سواء كانت هذه الموارد طبيعية أم رأسمالاً، إلا أن شعوب هذه

الدول تعاني من تدن كبير في مستوى الدخل، الأمر الذي يفضي إلى عـــدم وجود إمكانيات لدى المواطن تجعله قادراً على سد احتياجاتـــه الأساســـية، لاسيما الطبقة المتعلمة التي تتميز بالخبرة والدقة في العمل، وتطمـــح إلى أن تعيش بمستوى لائق لتطوير ذاتها من خلال اقتنــــاء التكنولوجيـــا المتطـــورة والإصدارات العلمية الجديدة من الدوريات والكتب المحلية والعالمية وغيرهـــا من المتطلبات المهنية، إلا أن هذه الكفاءات غالباً ما تجد أنفسها عاجزة عـــن القيام بكل هذه الأمور، مما يدفعها للتفكير جدياً بالهجرة إلى بلدان تعيش في مستوى أعلى وتقدر الكفاءات المميزة[1].

فيأتي في مقدمة العوامل الدافعة لهجرة العقـــول والكفـــاءات العربيـــة الإسلامية، العامل الاقتصادي حيث يطرد الفقر الكفاءات من الدول النامية إلى الدول المتقدمة. ويتمثل الفقر هنا في ضعف العائد المـــادي لأصـــحاب الكفاءات وخاصة العلمية، الأمر الذي يخلق لهم ظروفاً اجتماعية غير مواتية يصعب الإبداع والابتكار في أجوائها.

٢- البيروقراطية وما تسببه للكفاءة أو الاختصاصي من تعقيدات، فكل أمر يحتاج مئات المعاملات، وكل معاملة يلزمها مراجعات عدة، هذا فضلاً عن الفساد الإداري والقوانين والتشريعات التي تقـــف أمـــام الكفـــاءات والخبرات، وتضييق الحريات على العقول العلمية المبدعة.

---

(١) راجع، نداء صادق، هجرة العقول العربية، صرخة ألم تزلـــزل الأوطـــان، مجلـــة المجال، جامعة عمر المختار، ٢٠٠٧م، ص ٢٤.

٣- سفر الطلاب العرب والمسلمين إلى الدول الغربية المتقدمة، موهوبين كانوا أم أبناء عائلات غنية، فيستقر هؤلاء الطلاب في الدول التي درسوا فيها في جو علمي يصعب أن يقارن بمثيله في الدول النامية، فلا يجد الاختصاصي في بلده الغربي الإسلامي البيئة العلمية والتجهيزات والمختبرات التي جعلت منه اختصاصياً بارزاً في بلد المهجر الغربي.

٤- يتزوج كثير من المهاجرين العرب والمسلمين من أجنبيات وينجب أولاد، وبعد فترة من تكيفه مع الحياة في المهجر يصعب عليه ترك زوجته وأولاده الذين قد لا يستطيعون العيش في بلده الأصلي لعدم توافر نفس الامتيازات التي يتمتعون بها في بلدهم، يضاف إلى ذلك أن بعض الدول العربية الإسلامية تضع من العراقيل ما تساعد على عدم العودة، ومنها عدم تولي المتزوجين بأجنبيات مناصب عليا. وأمام كل هذا تتلاشى تدريجياً فكرة العودة إلى الوطن الأصلي لدى المهاجر العربي المسلم.

٥- تثبيط الهمم والعزائم، حيث يواجه الاختصاصي العربي المسلم إذا عاد إلى بلده قيوداً أو معوقات تجعله يشعر باليأس، فتدفعه للهجرة ثانية. وبالمثل تلعب (عقدة الخواجة) دوراً ملموساً في هجرة الاختصاصي العربي المسلم عندما يجد نفسه في بلده تابعاً لخبير أجنبي يتمتع بامتيازات أعلى منه، مع أن العربي المسلم قد يفوقه تخصصاً وخبرة.

٦- قلة الاستقرار السياسي والاجتماعي والأمني والإشكاليات التي تعترى بعض تجارب السلطات العربية الإسلامية، التي تعمل على تهميش

البحث العلمي، وتهميش الباحث العلمي من قِبل القيادات العلمية والسياسية، الأمر الذي يؤدي في بعض الأحيان إلى شعور بعض العقول والكفاءات بالغربة في أوطانهم، فتدفع بهم إلى الهجرة سعياً وراء ظروف أكثر حرية واستقراراً في بلدان تتمتع بنظام سياسي يكفل الأمن والحرية في التفكير والبحث والعمل.

٧- ضعف وجود نموذج فريق العمل Team Work العلمي أو الجماعة العلمية في البلدان العربية الإسلامية، مع أن فكرة فريق العمل العلمي تعد عربية إسلامية خالصة دشنها العرب والمسلمون قبل الغرب بمئات السنين، وذلك إبان النهضة العلمية التي شهدتها الحضارة الإسلامية في العصور الإسلامية. فلقد شهد العالم آنذاك وجود جماعات علمية نشطة تعمل وفق أُطر معينة ومنهج محدد، وذلك من أجل ازدهار العلوم التي احتوتها تلك النهضة. وأطلعتنا دراسة هذا الجانب في أدق تصوراتها على أن الجماعات العلمية التي ظهرت مبكراً لعبت دوراً بارزاً في حركة تقدم العلوم في شتى ألوان المعرفة. وقد شكلت أعمال الجماعات العلمية العربية الإسلامية نقطة انطلاق مهمة في مرحلة الإبداع والازدهار التي أنتجت كل ما هو جديد، وحفزت العقل العربي الإسلامي على سبر أغوار العلم وآفاقه من أوسع أبوابه فقدم من الإنجازات والابتكارات العلمية ما أفادت منه الإنسانية جمعاء.

أما الآن فتكاد تكون فكرة فريق العمل أو الجماعة العلمية غير موجودة في الأقطار العربية الإسلامية، الأمر الذي يقلل من الاتصال بين العلماء

العرب والمسلمين، ويجعل الحكومات تلجأ إلى الاستيراد المباشـــر للتقنيــــة، ويدفع الكفاءات العلمية إلى الهجرة.

٨- العولمة، وخاصة في جانبها الاقتصادي، الذي يجعل الجميع يتجـــه إلى ضرورة إعادة النظر في توجهاته الإنتاجية والتسويقية والتموينية وكوادره البشرية لتصبح قادرة على الفعل في تيار العولمة الذي يقـــود العــالم الآن، ويحوله إلى منظمة كونية قائمة على الاستهلاك الواسع المدى. فتقوم الــدول الغنية بفتح أسواق الدول النامية أمام صادراتها بما يسمح لها بالقضاء علـــى القاعدة الصناعية لهذه الدول من خلال المنافسة غير العادلـــة. وفي الوقـــت نفسه تغير العولمة نمط علاقات العمل نتيجة اتجاه الاقتصاديات المتقدمـــة إلى الحصول على الأيدي العاملة من الدول النامية[1].

٩- حالة الركود في تطور القوى العربية الإسلامية المنتجة والتي تتمثل في بقاء الوسائل الإنتاجية الصناعية والزراعية ووسائل الإنتـــاج في الـــصيد والرعي وغيرها دون تطوير أو تغيير، ومعظم الحكومات العربية الإســـلامية لا تدعم البحوث التقنية للإنتاج، وفي المقابل تستورد المعامل العلمية علـــى أساس تسليم المفتاح، علاوة على حرمان سكان المجتمع في بعض الدول العربية الإسلامية الفقيرة من أبسط الخدمات كالمطعم والمشرب والرعاية الصحية.. وغيرها مما يدفع الكفاءات للهجرة إلى أجواء وبلدان غربية مغايرة.

---

(١) خالد حربي، العولمة بين الفكـرين الإســلامي والغربــي، دراســة مقارنـــة، ط ٣ (الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، ٢٠١٠م) ص ٨٨.

١٠- زرع إسرائيل في قلب العالم العربي أفرز اتجاهاً عند العرب والمسلمين لزيادة النفقات العسكرية والتي بلغت أكثر من ألف بليون دولار ما بين سنة ١٩٧٠م، وسنة ١٩٩٠م مما أدى إلى تقلص ميزانيات البحث العلمي والتنمية، وخلق جو من عدم الاستقرار، الأمر الذي دفع ببعض الكفاءات للهجرة إلى دول الغرب، لاسيما وأن هناك جماعات صهيونية تعمل على تشجيع العرب والمسلمين على الهجرة للعمل في مؤسساتها، فهناك ما يربو على ستمائة وخمسين (٦٥٠) عالم غربي يعملون في أربعمائة (٤٠٠) مؤسسة مالية يملكها اليهود.

١١- تبني الدول الغربية سياسات مخططة ومدروسة لجذب الكفاءات من الدول النامية، حيث تهيئ المحيط العلمي الذي يحفز على مواصلة البحث والتطوير بحيث يشعر الباحث أو العالم أن ظروف العمل في تلك البلدان تعد وسيلة لتحقيق طموحاته العلمية بما توفره من فرص للبحث العلمي والثروات الضخمة التي تمكنها من تمويل فرص عمل مهمة ومجزية. فالعامل المادي يجذب الكفاءات من دول منخفضة الدخل إلى دول مرتفعة الدخل ويحفز العلماء على العيش في بيئة علمية مفيدة ببنيتها التحتية المؤلفة من التجهيزات والمختبرات والمعامل، هذا فضلاً عن القوانين التي تحدد أن العلم هو المعيار لدخول الشخص إلى البلاد، كما في الولايات المتحدة الأمريكية، بدون النظر إلى جنسه أو أصله. وكذلك التسهيلات التي تقدمها الدول المتقدمة للحصول على الإقامة الدائمة وإشعار الكفاءات المهاجرة بالانتماء والمساواة بينها وبين رعاياها.

هجرة العقول والكفاءات الإسلامية
إحصائيات ووقائع خطيرة

تكتسب ظاهرة هجرة العقول العربية الإسلامية أهمية متزايدة في ظل تزايد أعداد المهاجرين لاسيما الكفاءات العلمية التي تؤثر سلباً على دولها، وإيجاباً على الدول الغربية التي يهاجروا إليها، ولمعرفة أثر مثل هذه الهجرات السلبي على الدول العربية الإسلامية، والإيجابي على الدول الغربية، قامت كثير من الهيئات كجامعة الدول العربية ومؤسسة العمل العربية والأمم المتحدة ومنظمة اليونسكو بمحاولة إحصاء عدد المهاجرين من الكفاءات العربية الإسلامية، وخلصت إلى ما يلي من الوقائع والإحصائيات الخطيرة[١]:

- هاجر خلال النصف الثاني من القرن العشرين بنسبة ٢٥-٥٠% من حجم الكفاءات العربية الإسلامية إلى الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية وكندا.

- هاجر أكثر من سبعمائة وخمسين ألف (٧٥٠٠٠٠) عالم غربي إلى الولايات المتحدة منذ سنة ١٩٧٧م، وحتى سنة ٢٠٠٦م.

---

(١) التقرير الإقليمي لهجرة كفاءات العمل العربية، إدارة السياسات السكانية والهجرة، جامعة الدول العربية، القاهرة ٢٠٠٨- مجلة البرلمان الغربي، العدد (٨٢)، السنة(٢٢)، ٢٠٠١م.

- يهاجر كل سنة حوالي مائة ألـــف (١٠٠٠٠٠) مـــن أصـــحاب الاختصاصات في الطب والهندسة والتكنولوجيا من تسعة بلاد عربية إسلامية هي: مصر، سوريا، العراق، لبنان، الأردن، فلسطين، تونس، المغرب، الجزائر.

- يهاجر إلى أوربا والولايات المتحدة الأمريكية وكندا نسبة خمـــسين بالمائة (٥٠%) من الأطباء، وخمسة وعشرين بالمائة (٢٥%) من المهندسين، وخمسة عشر بالمائة (١٥%) من مجموع الكفاءات العربية.

- يستقر في البلاد الغربية نسبة سبعين بالمائة (٧٠%) من العلماء الذي يسافرون إليها بهدف التخصص ولا يعودون إلى أوطانهم.

- هاجر أكثر من مليون ونصف من الكفاءات العربية الإســـلامية إلى الولايات المتحدة وكندا في الفترة ما بين سنة ١٩٦٠م وحتى سنة ٢٠٠٧م.

- خمسة وسبعون بالمائة (٧٥%) من الكفـــاءات والعقـــول العربيـــة الإسلامية تستقطبها وتتصيدها ثلاث دول غربية هي: الولايـــات المتحـــدة الأمريكية وبريطانيا وكندا.

- أربعة وخمسون بالمائة (٥٤%) من الدارسين والطـــلاب العـــرب والمسلمين الذين يدرسون في الدول الغربية يستقرون في البلدان التي تخرجوا منها، ولا يعودون إلى أوطانهم.

- أربعة وثلاثون بالمائة (٣٤%) من الأطباء الأكفاء في بريطانيا ينتمون إلى الجاليات العربية، وقدمت مصر وحدها في السنوات الأخيرة ستين بالمائة (٦٠%) من العلماء إلى الولايات المتحدة، وخمسة عـــشر بالمائـــة (١٥%) كانت نسبة مساهمة كل من العراق ولبنان.

- وفقاً لإحصاء الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء سنة ٢٠٠٣م يقدر عدد المصريين المتميزين من الكفاءات والعقول التي هاجرت بـ ثمانمائة وأربعة وعشرين ألفاً (٨٢٤٠٠٠)، منهم ألفين وخمسمائة (٢٥٠٠) عالم.

- توزع الكفاءات المصرية المهاجرة من العلماء والخبراء الذين يعملون في مختلف التخصصات، وفقاً لأكاديمية البحث العلمي هكذا: أحد عشر ألفاً (١١٠٠٠) في تخصصات نادرة، وأربعة وتسعون (٩٤) عالماً في الهندسة النووية، وستة وثلاثون (٣٦) في الطبيعة الذرية، وثمانية وتسعون (٩٨) في الأحياء الدقيقة، ومائة وثلاثة وتسعون (١٩٣) في الإلكترونيات والحاسبات والاتصالات. وتحظى الولايات المتحدة بالنصيب الأكبر من الكفاءات والعقول المصرية بنسبة تسعة وثلاثين بالمائة (٣٩%)، تليها كندا بنسبة أربعة عشر بالمائة (١٤%)، وأسبانيا في المؤخرة بنسبة أثنين بالمائة (٢%).

- تشير دراسة قامت بها كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة إلى وجود أربعة آلاف ومائة واثنين (٤١٠٢) عالم غربي إسلامي متخصصين في شتى علوم المعرفة في مؤسسات ومراكز بحوث غربية.

وتتضمن الأرقام السابقة مهناً وتخصصات مختلفة، وتتضح خطورتها في أن العديد من الفئات العربية الإسلامية المهاجرة يعملون في أهم التخصصات الاستراتيجية والحرجة مثل الطب النووي والعلاج بالإشعاع والجراحات الدقيقة، والهندسة النووية والوراثية والإلكترونية والميكروإلكترونية، وعلم تكنولوجيا الأنسجة والفيزياء النووية، وعلوم الليزر، والفضاء، والميكروبيولوجيا والعلوم الإنسانية والاقتصادية والعلاقات الدولية.

نتائج الدراسة

سجلت في بعض صفحات هذه الدراسة بعض الاستنتاجات والنتائج التي لم يتحتم تأجيلها. وبعد أن استعرضت كل جوانب موضوع الدراسة - من وجهة نظري- عليّ الآن أن استخلص النتائج من خلال الإجابة على التساؤلات التي طرحتها في مقدمتها، ويمكن الوقوف على ذلك من خلال النتائج التي أطرحها فيما يلي:

بيّنت الدراسة كيف شهد العالم إبان عصور الحضارة الإسلامية ازدهار العلوم والمعارف وتطورها والإبداع فيها، فعلى مدى قرون طويلة تقترب من الألف سنة، كان العلم على مستوى العالم ينطق بالعربية، درساً وممارسة وتطبيقاً. وأوضحت الدراسة كيف وجد العلماء وأصحاب العقول في المجتمع الإسلامي البيئة العلمية المناسبة لممارسة العلم والمشجعة على العمل به، وخاصة من قِبل الدولة التي تولت رسمياً رعاية العلماء والمفكرين، وتنشئة العلماء ورعايتهم، وليس أدل على ذلك من انتشار المدارس والجامعات والمعاهد العليا والمكتبات العامة والخاصة في كل أرجاء العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، فعاش نهضة علمية غير مسبوقة. وأثبتت الدراسة أن من أوائل أسباب هذه النهضة اهتمام الخلفاء والأمراء بالعلم ورعايتهم لأهله وتشجيعهم، ومنهم، على سبيل المثال، هارون الرشيد الذي

أصبحت بغداد في عهده كعبة رجال العلم والأدب. وكان هو نفسه من أفاضل العلماء وفصحائهم.

وإذا كان هارون الرشيد قد وضع الأساس لبيت الحكمة في بغداد لتكون أول دار عامة تجمع شتات العلماء وتجري عليهم الأرزاق، فإن الخليفة المأمون قد أكمل بناء الدار ووسعها، وبذل كل ما في وسعه لاقتناء نفائس الكتب المعروفة وقتئذ، ورتب فيها العلماء والتراجمة، ومنهم العالم الخوارزمي مخترع علم الجبر للعالمين. وزادت رعاية المأمون لبيت الحكمة حتى صار باعتراف الغربيين أول مكتبة عامة ذات شأن في العالم الإسلامي، وأول جامعة إسلامية يجتمع فيها العلماء للبحث والدرس، وعلى أثرها انتشرت دور العلم والمكتبات العامة في معظم أقطار العالم الإسلامي. وبعد أن بيّنت الدراسة مدى شغف المأمون وحبه للعلم ورعايته لأهله، أوردت الدراسة مثالاً لرعايته لأسرة علمية كان لها شأو عظيم في النهضة العلمية التي شهدها العالم الإسلامي، وسجلت بإنجازاتها العلمية أروع الصفحات في تاريخ العلم العالمي، ألا وهي أسرة بني موسى بن شاكر.

وأوضحت الدراسة كيف كان الخليفة الواثق بالله محباً للعلم مكرماً لأهله، مشرفاً على علوم الناس وآرائهم ممن تقدم وتأخر. وكذلك الخليفة المعتضد بالله، الذي أُشتهر باحترام العلم والعلماء وتقريبهم وجزل العطايا لهم. ووقفت الدراسة على استمرار دور الدولة الإسلامية في الاهتمام بالعلم ورعاية العلماء على مدى عصورها المختلفة، فبيّنت كيف أنشأ الخليفة الموحدي

الثالث المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن «بيت الطلبة» للنـــابغين وتـــولى الإشراف عليه بنفسه، إلى الدرجة التي معها، حسد بعض حاشـــيته هـــؤلاء الطلاب على تقريبه إياهم وخلوته بهم دونهم. كذلك لم يسمـــع الأمير المعز ابن باديس، أحد أمراء دولة الصنهاجيين في المغرب الإسلامي، بعالم جليل في أي مصر من الأمصار إلا وأحضره عنده، وبالغ في إكرامه ومنحه أسمى الرتب وجعله من خاصته. كما لم يسمع السلطان محمد الفاتح عن أي عالم في أي مكان أصابه العوز، إلا بادر إليه وأعطاه أكثر مما يحتاج، وبلغت رعايته للعلماء حداً حتى ضمّنها وصيته لابنه وهو على فراش الموت حيث قال: إن العلماء بمنزلة القوة المبثوثة في جسم الدولة، فعظّم جانبهم وشجعهم، وإذا سمعـــت بأحد منهم في بلد آخر، فاستقدمه إليك وأكرمه بالمال. وأكرمت الخلافـــة العثمانية علماءها، وذلك بعد أن عقدت العزم ونجحت في جمع شتاتهم مـــن كل الأمصار، ثم وفرت لهم كل سبل الرعاية، الأمر الذي أدى إلى ازدهـــار الحركة العلمية والفكرية، وانعكس على تقدم الدولة وتطورها، وجعل منها القوة الأولى في العالم.

ومن كل ما سبق انتهت الدراسة إلى مدى الشوط الكبير الذي قطعـــه المجتمع الإسلامي إبان عصور حضارته للحفاظ على العلمـــاء وأصـــحاب العقول هؤلاء، الذين لم يجدوا أمامهم أي قيود تعوق أو تمنع البحث العلمي، بل على العكس، كانت الظروف الاجتماعية والمادية والنفسية مهيـــأة لهـــم

تماماً، الأمر الذي لا تجد معه أي عالم أو صاحب كفاءة قد هاجر وعمل خارج حدود العالم الإسلامي.

ورأت الدراسة أن عوامل الحفاظ على العلماء وأصحاب العقول في المجتمع الإسلامي إبان عصور ازدهار حضارته تمثل الفروق الجوهرية بين واقع العالم الإسلامي آنذاك وواقعه حالياً، ومن هنا وقفت الدراسة على أهم الأسباب والدوافع التي تدفع العقول والكفاءات الإسلامية للهجرة خارج العالم الإسلامي حالياً، وانتهت إلى أن العامل الاقتصادي يأتي في مقدمة العوامل الدافعة للهجرة حيث يطرد الفقر الكفاءات من الدول النامية إلى الدول المتقدمة. ويتمثل الفقر هنا في ضعف العائد المادي لأصحاب الكفاءات وخاصة العلمية، الأمر الذي يخلق لهم ظروفاً اجتماعية غير مواتية يصعب الإبداع والابتكار في أجوائها. وكذلك البيروقراطية والفساد الإداري والقوانين والتشريعات التي تقف أمام الكفاءات والخبرات، وتضييق الحريات على العقول العلمية المبدعة،في حين يجد الطلاب العرب والمسلمون الذين يسافرون إلى الدول الغربية للدراسة جواً علمياً يصعب أن يقارن بمثيله في الدول العربية الإسلامية، ويواجه العائد منهم إلى بلده قيوداً ومعوقات تجعله يشعر باليأس، فتدفعه للهجرة ثانية، خاصة مع قلة الاستقرار السياسي والاجتماعي والأمني والإشكاليات التي تعتري بعض تجارب السلطات العربية الإسلامية التي تعمل على تهميش البحث والباحث العلمي، الأمر الذي يؤدي في بعض الأحيان إلى شعور بعض العقول والكفاءات العلمية بالغربة

في أوطانهم، فتدفع بهم إلى الهجرة سعياً وراء ظروف أكثر حرية واستقراراً في بلدان تتمتع بنظام سياسي يكفل الأمن والحرية في التفكير والبحث والعمل، لاسيما وأن الدول الغربية في زمن العولمة تتبنى سياسات مخططة ومدروسة لجذب العقول والكفاءات من الدول النامية، حيث تهيئ المحيط العلمي الذي يحفز على مواصلة البحث والتطوير بحيث يشعر الباحث أو العالم أن ظروف العمل في تلك البلدان تعد وسيلة لتحقيق طموحاته العلمية بما توفره من فرص للبحث العلمي، هذا فضلاً عن القوانين التي تحدد أن العلم هو المعيار لدخول الشخص إلى البلاد كما في الولايات المتحدة الأمريكية بدون النظر إلى جنسه أو أصله.

وتنتهي الدراسة إلى أن العوامل الاجتماعية والمادية والنفسية باتجاهها المعاكس لما كانت عليه في الحضارة الإسلامية، هي التي أدت إلى نزيف العقول الإسلامية وهجرتها إلى الخارج. فليس من شك في أن هذه العوامل تشكل بعداً مهماً ينبغي أن يؤخذ في الاعتبار عند دراسة ظاهرة هجرة العقول الإسلامية المعاصرة، مع ضرورة استدعاء مثيل هذا البعد من الحضارة الإسلامية.

وتلك هي النتيجة النهائية التي تنتهي إليها هذه الدراسة.

والله أعلى وأعلم.

هِجْرةُ الكَفاءاتِ
رُؤيةٌ حَضاريّةٌ ومُقاربَةٌ اجْتماعيّةٌ

د.عبد الرحمن بو درع

- تَقْديم:

هجرةُ الكَفاءاتِ العربيّة: قضيةٌ من قَضايا الــوَطَن العــربيّ أو العــالَم العربيّ؛ والعالَمُ العربيّ أو الوَطنُ العربيّ فَضاءٌ مكانيٌّ وامتدادٌ زمانيٌّ وعُمــقٌ عَقَديّ وحَضاريّ وثَقافيٌّ يَمتدّ في المَكان، من الخَليجِ العــربيّ إلى المُحــيطِ الأطلسيّ، ويمتدُّ في عُمقِ الزّمانِ من ظهورِ الإسلامِ في القرنِ السّابعِ للميلاد، ثُمّ انتشاره عقيدةً ولغةً بالفُتوحاتِ في اتّجاهات مُختلفة، ولَقَــد حــصَلَت تغيُّراتٌ على مَدى الزّمانِ وطرأت أحداثٌ وتَبدّلَت دُولٌ طيلةَ أربعةَ عــشَرَ قرناً تولّدَ منها المُجتمعُ العربيُ الإسلاميُّ الكَبيرُ، وتطوّرَت هياكلُه البــشريّةُ ومؤسَّساتُه وأنماطُ إنتاجِه وعلاقاتُه الاجتماعيّةُ وأقطارُه المُختلفةُ، إلى أن حَطَّ

رِحالَه في الصِّيغةِ التي يوجدُ عليْها اليومَ، وما ينطوي عليْه من تَعْقيدٍ وتَبــايُنٍ وما يطفَحُ بِه من حَرَكةٍ دائبة.

والحقيقةُ أنّ هناكَ مصطلحاتٍ تُستعمَلُ في العُقودِ الأخــيرةِ لوصــفِ المنطقةِ التي يَعيشُ فيها العربُ، منها الشّرقُ الأدنى والشّرقُ الأوسطُ، وهمــا مُصطلحانِ غربيانِ استعماريّانِ وُضعا لأغراضٍ عسكريّةٍ تخــدمُ الأهــدافَ الغربيّةَ وتعمدُ إلى طمسِ الهويةِ الحضاريّةِ لسُكّانِ المنطقةِ[1]. أمّا الوَطنُ العربيُّ فهو مصطلَحٌ يُفضِّلُ استعمالَه القوميّونَ العربُ لوصفِ بلادهــم الــشّاسعَة حيثُ تَغْلبُ العربيّةُ لساناً والانتماءُ شُعوراً. ولكنّ أكثرَ المُصطلحاتِ حيــاداً وانتشاراً هو العالَم العربيُّ؛ وهو مصطلَحُ يستخدمُه العربُ وغيرُ العربِ من غيرِ أن يوحِيَ بتَحيّزٍ معيّنٍ واضحٍ، ويَنْطوي على ضَربٍ من الإقرارِ بوجــودِ حدٍّ معيّنٍ من التّجانُسِ الحضاريّ بين سُكّانِ المنطقــةِ أو أرضيّةٍ حَــضاريّةٍ مشترَكَةٍ جامعة.

أمّا المُصطلَحُ الآخَرُ الوارِدُ بكثرةٍ في الاستعمالِ أيضاً فهــو مُــصطلحُ الأمّة، الذي يدلُّ على تَجانسٍ كاملٍ أو شبيه بالكاملِ بين أفرادِها في اللُّغــةِ والعَقيدَةِ والتّاريخِ والقِيَمِ والثّقافَةِ، وتوسُّعٍ بالفُتوحــاتِ وانــدماجِ الأمــمِ المَفْتوحَةِ في الذّاتِ الفاتحَةِ وتَكْريس القُرونِ الثّلاثةِ الأولى للاندماجِ والتّزاوُجِ

---

(١) سعد الدّين إبراهيم، اتّجاهات الرأي العامّ العربيّ نحــو مــسألة الوحــدَة (دراســة مَيْدانيَة)، ط١ (بيروت: منشورات مَركز دراسات الوحدَة العربيّــة، يوليــو ١٩٨٠م) ص٧٢.

والانصهارِ. ويُمكنُ أن نُضيفَ إلى مَفْهومِ الأمّة اشتراك أبناء الأمّة في المَشاعرِ والهُموم والمُشكلات، منها مثلاً مُشكلاتُ الحُكم والقـضيّةُ الفلـسطينيّةُ، والفَقر والجَهل والتّخلّف الاقتصاديّ والاجتماعيّ، والهيمنة الأجنبيّة، وهجرةُ عقولِ أبنائها المتفوّقينَ، وما يُخلّفُه ذلِكَ من فَجوةٍ نفسيّةٍ واجتماعيّةٍ وعلميّةٍ في جسمِ الأمّة.

ولكنّ الأمّةَ حالَت عليْها أحوالٌ جَعلتْها تَهجعُ هجعةً طويلةً، وتَلـوذُ بالقشورِ قرونًا طويلةً، سيمَت خلالَها شتّى ضُروبِ المحن، وها هـي اليـومَ مدعوّةٌ من جَديدٍ إلى أن تنتفضَ لـتنزِعَ عـن نفـسها أغـلالَ التّخلّـفِ والاستعمارِ، وتكشحَ ظلُماتِ الهوانِ، وتعملَ على ترميمِ مـا انهـارَ مـن عزيمتِها واستردادِ ما ضاعَ من حقّها، وإعادَةِ بناءِ هويتِها في زَمَـنِ تَنـازُعِ الهوياتِ وتَصادُمِ الحَضارات.

١- في الدلالة اللغوية:

الفرق بين البَعْث والابتعاث والهجرَة، نظرة في المُصطلَح:

هُناكَ حُقول دلالية متقاربة، في سياقِ الحَديثِ عن هجرةِ العُقولِ؛ هي الهجرةُ، والبعثُ والابتعاث، فرارُ العُقول، ونزيفُ الأدمغة، وهجرةُ الرؤوس وهجرةُ الكفاءات وهجرةُ العُقول.

وأهمّ الكلماتِ المُستعْمَلَة البَعْثُ والابْتعاثُ، فالفعلُ بَعَثَ يبعَثُ والفعلُ ابتعَثَ يبتعثُ فعلان يَدلاّن على معنى اتّخاذِ فلانٍ فلاناً مبعوثــاً، أي ابتعثــه اتّخَذَه مبعوثاً له، مثل افترشَ الأرضَ اتّخذَها فِراشاً، وبَعَثَهُ يَبْعَثُه بَعْثاً أَرْسَــلَهُ وَحْدَه وبَعَثَ به أرسله مع غيره وابْتَعَثَه أيضاً أي أرسله فانْبعَــثَ، والبَعْــثُ الرسولُ والجمع بُعْثانٌ والبَعْثُ بَعْثُ الجُنْدِ إلى الغَزْو، والبَعَثُ القومُ المَبْعُوثُونَ المُشْخَصُونَ. ويُقالُ هم البَعْثُ، بسُكون العين[١].

غيرَ أنّ الفعلَ بعثَ يدلُّ على إرسالٍ مُطلَقٍ غير مُقيَّد، نقولُ: بَعَثَهُ يَبْعَثُه بَعْثاً أَرْسَلَهُ وَحْدَه، وبَعَثَ به أرسله مع غيره، وابْتَعَثَه أيضاً أي أرسله، وهــو قليلٌ، و المُرْسَلُ يُسمّى مَبْعوثاً و بَعيثاً. بيدَ أنّ القياسَ الصّرفيّ في الفعل ابْتعَثَ يقتضي أن يكونَ الابتعاثُ إرسالاً مُقيَّداً لا إرسالاً مُطلَقاً، خلافــاً للفعــلِ المُجرَّدِ «بَعَثَ»، والمَقصودُ بالإرسالِ المُقيّد أنّ المُرسِلَ يتّخذُ المُرسَلَ مبعوثــاً خاصاً له، أو أنّ الجهةَ المرسِلَةَ كالمؤسسةِ أو الجامعةِ تتخذُ مــن المبعــوثِ

---

(١) ابن منظور، لسان العَرَب، مادّة: بعث.

مُرسَلاً لَها حتّى إذا تَخرّجَ عاد إليْها ليردّ الدّيْنَ و يُؤدّيَ الخدمةَ التي في عُنُقه أو يردّ ما في ذمّته من خدمةٍ. فالمبعوث مُرسَل من قِبَل جهةٍ مُرسِلَةٍ وكَفى، أمّا المُبتعَثُ فيُضمَن لَه أنّه مرْسَلٌ على شرطِ العودَة والإفادَة.

أمّا الهَجْرُ فهو ضدّ الوصل؛ هَجَره يَهْجُرُه هَجْراً وهِجْراناً صَرَمَه وهما يَهْتَجِران ويَتَهاجَران، والاسم الهِجْرَةُ والمُهاجَرَة. وأصل المُهاجَرَة عند العرب خروجُ البَدَوِيّ من باديته إلى المُدن، يقال هاجَرَ الرجلُ إذا فَعلَ ذلكَ، وكذلك كل مُخلٍ بِمَسْكَنه مُنْتَقِلٍ إلى قوم آخرين بِسُكناهُ فقد هاجَرَ قومَه. وسمي المهاجرون مُهاجِرِين لأنهم تَركوا ديارَهم ومَساكنَهم التي نَشَؤُوا بها لله ولَحِقُوا بدار ليس لهم بها أهل ولا مال حين هاجروا إلى المدينة. فكل مَن فارَقَ بَلدَه من بَدَوِيٍّ أو حَضَرِيٍّ وسَكَنَ بَلداً آخَرَ فهو مُهاجِرٌ والاسم منه الهِجْرة.

ويظهرُ من الفرقِ بين البعثِ والابْتعاثِ والهجرةِ أنّ البَعْثَ والابتعاثَ فعلٌ خارجيٌّ يتعدّى الباعثَ إلى المبعوث به، لأغراضٍ ومَنافعَ وغايات تتّصلُ بهما أو بأحدهما. أمّا الهجرةُ فهي فعلٌ داخليٌّ يفعلُه المُهاجرُ من تلقاءِ نفسهِ لمانعٍ يمنَعُه من المُكثِ والبَقاءِ ببلده، وذلكَ لجلبِ مَصلحةٍ لا تحصلُ إلاّ بالهجرةِ ودَفْعِ مضرّةٍ لا تدفعُها إلاّ الهجرةُ.

هذا، وقد تكونُ الهجرةُ ظاهرةً صحّيّةً طبيعيةً تتصلُ بضرورات الحَياة، كمُهاجرَة أسباب الضرر ونفاد المنافع إلى موارد الرزق، ومنها هجرة العُمّال إلى أماكن العمل، وهجرة الطيور إلى أماكن الدفء، وهجرة الحيوانات إلى مواطن الكلأ والماء.

- الهجرةُ ظاهرةٌ بشريّةٌ قبلَ أن تكونَ نزيفاً بشرياً:

الهجرةُ ظاهرةٌ قَديمةٌ قِدَمَ البشريّةِ على الأرضِ، ولكنّها أخذت تَتنامى عبر التّاريخ وتتّخذُ أشكالاً مختلفةً تبعاً للظّروفِ والبَواعثِ التي دَفَعَت إليْها.

فالهجرةُ لا تُعدّ ظاهرةً جَديدةً، ولكنّها أخذَت في التّسارُعِ في العُقودِ الأخيرةِ لتُصبحَ جزءاً من عمليةِ التّكامُلِ العالَميّ، وأصبحَت أنماطُ الهجرةِ تُعبّرُ عن التّغيّرات التي طرأت على العَلاقاتِ الاقتصاديّةِ والسياسيّةِ والثّقافيّةِ بينَ دولِ العالَم، وتُشيرُ الأرقامُ والإحصاءاتُ إلى أنّ المُهاجرينَ في مُختلفِ أنحاءِ المَعْمورةِ بَلَغوا سنةَ ١٩٩٠م نَحْوَ ثَمانينَ مليون مُهاجرٍ، رُبُعُ العَدَدِ منهُم من اللاّجئينَ، ولا شكّ أنّ هذه الأعدادَ ستتزايدُ في أوائلِ القرنِ الحادي والعِشْرينَ، حتّى إنّ بعْضَ عُلماءَ الاجتماعِ أطْلَقوا على عصْرِنا مُصطلَحَ «عصر الهِجْرَة»[1].

وتُؤدّي حَرَكاتُ الهجرةِ إلى تنوّعِ الأجناسِ والثّقافاتِ في كثيرٍ من المُجتَمعاتِ المُهاجَرِ إليْها، وتُسهِمُ في إعادةِ تشكيلِ الأوضاعِ السّكّانيّةِ والاقتصاديّةِ والاجتماعيّةِ. بل أصْبَحَ ارتفاعُ نسبةِ الهجرَةِ العالميّةِ منذُ الحربِ

---

(1) Anthony Giddens, ***Sociology***. Polity Press in association with Blackwell Publishers Ltd; 4th edition. 2001.

وانظرْ التّرجمةَ العربيّةَ: **علم الاجتماع**، ترجمة فايز الصُيّاغ، ط١ (بيروت: نشر المنظّمَة العربيّة للتّرجمَة، أكتوبر ٢٠٠٥م) ؛ (الأردن: مؤسّسة تَرجمان)، وتوزيع: مَركز دراسات الوحدَة العربيّة، ص ٣٣١؛ إبراهيم عيسى عُثمان، **مُقدّمة في علم الاجتماع**، ط١ (الأردن: دار الشّروق للنّشر والتّوزيع، ٢٠٠٩م) ص ٩٢.

العالَميّةِ الثّانيةِ، وخلالِ العقدَيْنِ الأخيرَينِ، قضيّةً سياسيّةً مهمّةً في كَثيرٍ من البُلدانِ؛ وأصبحَ تَصاعُدُ الهجرةِ إلى أوربّا يدعو إلى إعادَةِ النّظرِ في الهويةِ الوطنيّةِ ومَعْنى المُواطَنَةِ.

دَرَجَ الباحثونَ على تَقْسيمِ الهجراتِ إلى أربَعَةِ نَماذجَ لوصفِ الحَرَكاتِ السّكّانيّةِ العالَميّةِ منذُ نهايةِ الحربِ العالَميّةِ الثّانيّةِ، أوّلُها النّموذجُ التّقليديُّ المألوفُ، ويصدُقُ على بلدانٍ مثلِ كَنَدا والولاياتِ المُتّحدَةِ وأستُراليا، وهي دولٌ نشأت في سياقِ حركاتِ هجرةِ الشّعوبِ، وقامَت بتشجيعِ الهجرَةِ واجْتذابِها.

أمّا النّموذجُ الثّاني فهو النّموذجُ الاستعماريُّ، وتمثّلُه بريطانيا وفرنْسا اللّتان تُفضّلانِ المُهاجرينَ الوافدينَ من مُستعمراتِ الأمسِ التي ما زالَت تدورُ في فلَكِها لغويّاً واقتصادياً وسياسياً وثقافيّاً، دونَ غيرِهم.

أمّا النّموذجُ الثّالثُ فهو نَموذجُ العُمّالِ الضّيوفِ، حيثُ تستقبلُ دولٌ أوربيّةٌ كسويسرا وبلجيكا وألمانيا، المُهاجرينَ بموجبِ سياساتٍ وخطَطٍ، فيتمُّ قَبولُهم على أساسٍ مؤقّتٍ لتلبيةِ حاجاتِ سوقِ العَملِ، مِن غيرِ أن يتمتّعوا بحُقوقِ المُواطَنَةِ وإن طالَ استقْرارُهم ببَلدِ المَهْجَرِ.

أمّا النّوعُ الرّابعُ فهو نموذَجُ الهجرةِ غيرِ الشّرعيّةِ، التي انتشرَت بعدَ اشتدادِ قُيودِ الهجرةِ، فأخذَ المُهاجرونَ يتسلّلونَ من المَنافذِ البرّيّةِ والمَعابرِ البحريّةِ في قَواربِ الموتِ، بمُساعدَةِ شركاتٍ سرّيّةٍ وعصاباتِ تَهريبٍ بشريٍّ، فيُقيمُ المُهاجرونَ بصورةٍ غيرِ قانونيّةٍ في أماكنَ بعيدةٍ عن أعيُنِ السّلطاتِ الرّسميّةِ، ويُعانونَ الاستغلالَ والظّلمَ والإهانةَ من مُشغّليهم.

٢- منهجُ تناوُل ظاهرةِ هجرةِ الكَفاءاتِ والعُقول: المُقاربَـة الاجتماعيّة:

الحَقيقةُ أنّ دراسَةَ ظاهرةِ الهجرَة بأنواعها المُختلفة عامّةً و هجرة العُقولِ والمَهاراتِ العلميّةِ على وَجْه الخُصوصِ، وتأثيرِ ذلـك في ثَقافـات الأمـم وحَضاراتها ومُجتمعاتها، أمرٌ يدخلُ في صَميمِ الدّراساتِ الاجتماعيّة، الـتي ترصُدُ كلّ الظّواهرِ الاجتـماعيّةِ التي تنبعُ من المُجتمَـع وتـؤثّرُ في بنيتِـه وحاضِره ومستقْبله.

وما من دراسةٍ لظاهرةٍ اجتماعيّـةٍ إلاّ وتـسبقُها العنايـةُ بالمَفـاهيمِ والمرجعيّاتِ النّظريّة[١]؛ فالإطارُ النّظريّ مَطلوبٌ في كلّ مُعالجـةٍ للقَـضايا والإشكالات الاجتماعيّةِ والسياسيّةِ، التي تنشأ عَمّا يُـصيبُ الأمّـةَ مـن تحوُّلات، تتأثّرُ فيها بنيتُها بما يَجْري داخلَ الأقطـارِ العربيّـةِ وخارجَهـا، والمَفاهيمُ المُتّصلةُ بالظّواهرِ الاجتماعيّةِ المَوصوفَة إجراءاتٌ نظريّةٌ مُـصطنَعَةٌ للإمساك بتلكَ الظّواهرِ المتولّدةِ في المجتمَع والمؤثّرَة في حاضِـره ومُـستقبله، وإيجادُ المَفْهومِ المُمْسِك شرطٌ من شروطِ دقّة التّصوُّر المعرفيّ .

والحَقيقَةُ أنّ العنايةَ والاهتمامَ بصوغِ المَفاهيمِ الواصفةِ والمُفسِّرَة وتَعيينَ المُصطلحاتِ المُحدّدةِ الموضوعَة للدّلالةِ على تلك المَفـاهيمِ، كـلّ أولئـك

---

(١) كَمال عبد اللّطيف، المَعرفيّ، الإيديولوجيّ، الشّبَكيّ، تَقاطُعات ورهانات، ط١ (الدّار العربيّة للعلوم، ناشرون: منشورات المَركز العربيّ للأبحاث ودراسَـة الـسّياسات، ٢٠١٢م) ص١٣.

إجراءاتٌ معرفيّةٌ منهجيّةٌ تهدفُ إلى إخراجِ الخطابِ الاجتماعيِّ حولَ ظاهرةٍ معيّنةٍ (كظاهرَةِ هجرةِ العُقول) إلى حيِّزِ الوُضوحِ والدّقّةِ، وتَجنيبِه ظِلالَ المَعاني والاحتمالاتِ المُلبِسَةِ التي يَتداخلُ فيها منطقُ التّسميَةِ مع آلياتِ التأويلِ. وجديرٌ بمنهَجِ الرِّعايَةِ المَفاهيميّةِ والعنايَةِ الاصطلاحيّةِ الدّقيقَةِ أن ينقُلَنا من المَعرفَةِ إلى مُجتمَعِ المَعرفَةِ .

من هذه المُصطلَحات التي تدلُّ على ما وَراءَها من مَفاهيمَ محدَّدة: هجرةُ العُقولِ، وهجرةُ الأدمغَةِ، وهجرةُ الكَفاءاتِ، وتفلُّتُ الكَفاءاتِ، وهجرةُ المَهاراتِ، ونزيفُ العُقولِ، ونُزوحُ العُلَماءِ، والوَطَنُ الأصليّ، وبَلَدُ المَنشأ، وبَلَدُ الوِجْهَةِ، وبلَد المَقْصدِ، ووراءَ كلِّ مُصطلحٍ جَمْهرةٌ من الأفكارِ والدّلالاتِ التي تَدورُ حولَ القُطبِ المَفْهوميِّ الرَّئيسِ. وكلُّ المَفاهيم المُشار إليْها لا تخرُجِ عن دائرَةِ الظّواهِرِ النّاشئةِ في المُجتمَعِ، على اعتبارِ أنّ المُجتمعَ كلٌّ متناسقٌ تربطُ بين أفرادِه عناصرُ التاريخِ والثّقافَةِ واللّغةِ والهويةِ، وتتفاعلُ فيه الأجزاءُ والعَلاقاتُ والأهواءُ والأغراضُ المؤلِّفَةُ له، وهذه العَناصرُ تتفاعلُ ضمنَ موقفٍ وضمنَ إطارٍ زمنيٍّ ومكانيٍّ وظروفٍ وشروطٍ تُسهمُ في تَحديدِ السّلوكِ والاختياراتِ[1]، واستيعابُ مَعْنى ذلكَ المَوقفِ أمرٌ ضروريٌّ للسّلوكِ الاجتماعيِّ، يَعي فيه الفردُ قيمتَه ومَكانَتَه بين الأفرادِ الآخَرين، والنّتائجَ المترتّبةَ على السّلوكِ.

---

(١) إبراهيم عيسى عثمان، **مُقدّمة في علم الاجتماع**، ط١ (الأردن: دار الشّروق للنّشر والتّوزيع، ٢٠٠٩م) ص٩٢.

من هنا يُمكن أن نَقولَ: إنّ هجرةَ العُقولِ اختيارٌ أو اضطرارٌ يُـؤدّي بالمُهاجرينَ إلى اتّخاذ ذلك الموقفِ، ويُؤثّرُ هذا الفعلُ في شـبكة العلاقـات الاجتماعيّة، فيتأثّرُ المُجتمعُ برمّته بنتائجِ الهجرَة وما تُخلّفُه من حرمانِ هـذا المُجتمَع من خدمةِ العُلماءِ له وتطويرِه وتنميته، فتَكـون علاقَـةُ العُلَمـاءِ المُهاجرينَ بمجتمَعهم الأصليّ نوعاً من التّفاعُل السّلبيّ، ويمتدّ التأثيرُ إلى الأمّة كلّها، بما هي تنظيمٌ اجتماعيّ سياسيّ لشعبٍ من الشّعوبِ تحكُمه قـوانينُ ومؤسّسةٌ حُكوميّةٌ.

وإنّ العُلماءَ المُهاجرينَ اضطرّهُم ظروفٌ سياسيّةٌ واجتماعيّةٌ واقتصاديّةٌ إلى ترك بَلَدِ المَنشأ والتّخلّي عن الرّوابطِ التي تشدّهم بالجَماعَة؛ لأنّ النّظـامَ الاجتماعيّ لم يوفّرْ لهم الاستقرارَ والعيشَ الكَريمَ و لم يـضمَنْ لهـم تنميـةَ قُدراتِهم، ولا يُمكنُ بحالٍ من الأحوالِ أن نَعُدَّ هجرةَ العُقولِ ظاهرةً فرديّـةً محدودةً، ونَتجاهلَ أثرَ القُوى الاجتماعيّةِ وتأثيرَ البِناءِ الاجتماعيّ في نـشأةِ الظّاهرةِ وتطوُّرِها.

فالنّظرَةُ العـلميّةُ للمُشـكلاتِ تَستَدْعي اعْتبارَ العلاقةِ بين الأوجُـه المُختـلفة للظّاهرةِ الاجتـماعيّة، ولا يُمكنُ وضـعُ سيـاسة مُتكاملـة لمُعالَجة مُشكلةٍ ما، دونَ اعتبارِ كلّ الأنظمَةِ الأخرى التي تتحكّمُ في جَوانبِ الظّاهرَةِ وأوجُهِها.

فإذا نظرنا إلى ظاهرةِ هجرةِ العُقولِ، على سبيلِ المثالِ، فإنّنا نُلفي فيهـا وَجْهيْن اثنَيْن مُتَقابلَيْن؛ أحدُهما يتّصـلُ بالمُهاجرِ نفسِه والقَرارِ الذي اتّخَذه

أو اضطرَّ إلى اتّخاذه أو اتُّخذَ له قَسْراً، والوَجْه الآخَرُ يتّصلُ بالمُجتمَعِ الذي يُعدّ المُهاجرُ خيطاً في نَسيجه العامّ، فإذا استُلّ ذلك الخيطُ انحَلّ جزءٌ من النّسيجِ وتَهلْهَلَ. ومعْنى ذلك أننا نُعالجُ الظّاهرةَ بمَفْهومٍ اجتماعيّ مُحدَّدٍ هو مَفْهومُ التّغيُّر، بوصفه عمليةً اجتماعيّةً ثَقافيّةً اقتصاديّةً، وهذا التّغيُّرُ بمثابة تحوُّلٍ في نظامِ المُجتمَع.

وبناءً على هذا المَفهومِ نجدُ المُهاجِرَ يُقْدِمُ على هذا التّغيير في نَمَطِ الحَياة الاجتماعيّةِ عندَما يعزمُ على الخُروجِ من بلَدِه وهو ينظرُ إلى التّغييرِ بوصفه تقدُّماً إلى الأمامِ وتغيُّراً نحو الأفضلِ وعاملاً من عَواملِ السّعادَةِ وإن أدّى إلى اغترابِه هو عن وَطَنِه وأرضِه، وينظرُ إليْه أيضاً بوصفه تطوُّراً طبيعياً خارجاً عن إرادَةِ الأفرادِ، مَثَلُه في ذلك مثَلُ التّطوّر الذي يحصلُ للظّواهرِ الطّبيعيّة بحسبِ قَوانينِ التّطوّرِ الطّبيعيّ. ينظُرُ المُهاجرُ أيضاً إلى فعلِ الهجرَةِ بما هي تَغْييرٌ للواقعِ وظروفِه لتحقيقِ تنميةٍ وازدهارٍ ووضعٍ مُستقبليّ تصوَّرَه المُهاجرُ سَلَفاً، فالهجرةُ نموٌّ وارتقاءٌ، وتنميةٌ إراديّةٌ.

ومن الباحثينَ مَن استخْدَمَ مَفاهيمَ أخرى لَها دلالاتُها الخاصّةُ في وَصفِ التّغيُّر الذي يَطرأ على المُجتمَع، منها مَفهومُ التّحديث، ولكنّه بالنّسبَة إلى هجرةِ العُقولِ تحديثٌ سلبيّ؛ لأنّ هذه الهجرةَ تنقُلُ مجتمَعَ المقصد أو المَهْجَرِ في سلّمِ التّحديثِ على حسابِ مجتمَع المَنْشأ؛ لأنّ المُهاجرَ يُسهمُ في بناءِ مَشاريعِ المُجتمَعاتِ الغربيّةِ التي يُهاجرُ إليْها، وتطويرِها وتحديثِها، وتحضُّرِها وتصنيعِها.

- أقسام الهجرة:

تنقسمُ الهجراتُ العربيّة إلى بلادِ المَهْجَرِ إلى:

- **هجراتٍ تجاريّة**؛ فقد رَحَلَ كثيرٌ من التجار العرب منذ قُرونٍ بعيدةٍ إلى جنوب شرْق آسيا لتجارة التوابل والأخشاب والنّسيج، لكنّهم كـانوا هنـاكَ أقلية، وطُبعَت هجراتُهم بطابعِ الرّحلَة والتّنقُّلِ وعدَمِ الاستقرارِ والمُكث.

- **وهجراتٍ سياسيّة**؛ ومُعظـمُ المُهـاجرينَ العَربِ لاجئونَ سياسياً، أو فـارّونَ من قَسوَةِ أنظمتهِم السياسـيّةِ أو فلسطينيونَ مُهَجَّـرونَ قَسراً أو نازحون من وطنهِم الأصليّ بسببِ الاحتلال وتضييقِ الخناق. وعَرَفـت بلاد المَهْجَر الأمريكيّةِ بعَدْوَتَيْها نزوحَ كثيرٍ من المُهاجرينَ العربِ من الـشّامِ إليها، دَفَعَهُم إلى مُغادرَةِ أوطانِهم الحُروبُ الأهليّةُ، والبحثُ عن مُستقرٍّ آمنٍ لُممارسَةِ التّجارةِ أو مُتابعَةِ الدّراسات العُليا.

وما زالت ظاهرةُ الهجرة السياسيّةِ حيّةً نَشطةً، من الوَطنِ العـربِ في اتّجاهِ الخارجِ، وذلكَ في سياقِ الاستبدادِ السياسيّ، الذي طُبعَتْ به بعـضُ الدّولِ العربيّةِ، وما يعقُبُ ذلكَ من رقابةٍ ومُتابعَةٍ على الفكرِ والحَرَكةِ، ومن تَقْييد للحُرّيات، حريةِ التّفكيرِ وحريةِ التّعبيرِ وحرّيةِ الانتماء السّياسيّ، فـإذا ما انتقلَت الكَفاءاتُ المُهـاجرةُ انصهَرَت في مؤسساتِ الحُكوماتِ المُستقْبلَة أو حُكوماتِ المَقْصد، وخَسرتْها أوطانُها الأصليّةُ أو دُوَلُ المَنشَأ التي عجزَت عن استيعابِها أو أجبَرَتْها على الهجرَةِ، فَما كانَ من العُقولِ العربيّـةِ الـتي

وجَدتْ نفسَها بينَ قُوّة طاردَة نابذة وقوّة جاذبة محتضنة إلاّ أن تُغادرَ الوَطَنَ وتولّي وجهَها قِبَلَ وَطَنٍ جديدٍ هو وَطَن الغربة والمَهْجَر، يُتيحُ لَها القُـدرةَ على النّموّ والإبداعِ، بَعيداً عن أجواءِ القَمْعِ والإحباطِ والإهانَةِ التي تنشُرُها أنظمةُ الاستبدادِ والفَسادِ السياسيّ .

– **وهجراتٍ علميّة**: لا يكادُ يَخْلو بلدٌ من البُلدانِ العربيّةِ من انتـشارِ ظاهرِ الابْتعاث إلى الخارجِ والهجـرةِ إلى الخـارجِ، ويَغلـبُ أن يكـونَ الابتعاثُ[1] عمليات مُنظّمةً تُخطّطُ لها الجامعـاتُ العربيّـةُ والأكاديميـاتُ ومَراكزُ البَحثِ، حيثُ تبتعثُ طلاّباً وبـاحثينَ إلى الخـارجِ لاسـتكمالِ دُروسهم أو للإفادَةِ من دَوْراتٍ تدريبيّةٍ في تخصُّصاتٍ معيّنـةٍ، ثُـمّ يعـودُ المُبتعَثونَ إلى مواطنِهم للوَفاءِ بمُستلزماتِ الابتعاث.

ولكنّ المَلحوظَ أنّ ظاهرةَ انتشارِ الهجرةِ القَـسريّة تفـوقُ الابتعـاثَ وتَتَفاقَمُ بدرجةٍ عاليةٍ، وأبرزُ حالاتِ الهجرةِ هجرةُ ذوي المهاراتِ والخبراتِ

---

(١) للتّوسُّع في مَوضوعِ ابتعاثِ الطّلاّبِ إلى الخارجِ، يُراجَعُ كتابُ: **الابْتعاث إلى الخارجِ، أبْعادٌ تنمويّة.تَجاربُ دوليّةٌ.خطواتٌ عمليّة**، عبد العَزيز بن عَبْد الله بـن طالـب، ط٦ (شَركَة مَكْتبَة العَبيْكان).
وقد تَناولَ الكاتبُ موضوعَ الابتعاثِ إلى الخارجِ للدّراسَـة، بـشيْءٍ مـن التّفـصيلِ والتّحليل؛ فعرّفَه وذكَرَ فَوائدَه واعتراضاتِ المُعتَرضينَ عليْه، وأوردَ دراسةً إحصائيّةً عَن بُلدانِ المنشأ وبُلدانِ المَقْصد، وتَجاربَ دوليّةً في الابتعاثِ، وقدّمَ نَصائحَ وتَجاربَ وخطواتٍ لإفادة المُبتَعَثينَ تتعلّقُ بالاستقْرارِ والدّراسَة، وتحدّثَ عَن الصّدمَةِ الثّقافيّـةِ الحَضاريّةِ التي يُواجهُها الطّلاّبُ الجُدُدُ وكيفَ ينبغي لَهم استيعابُها وتَجاوُزُها. ثمّ قـدّمَ دليلاً مُختصراً ومَعلوماتٍ أساسيّةً عن دُولِ الدّراسَة.

العاليَة من العُلَماءِ والمُهندسينَ والأطبّاءِ[1] وعُلماءِ الفيزياءِ إلى البُلْدانِ الغربيّة، من أجلِ العمَلِ في مؤسساتِ الغَربِ العلميّةِ ومَراكزه البَحثيّــةِ، وهــؤلاءِ المُهاجرونَ تُفتَحُ أمامهُم أبوابُ تَطويرِ مَهاراتهم وتحقيقِ أفكارهِم ونظرياتهم ويُحتَفى بهم بما يَليقُ بمَكانةِ العُلَماءِ وينالونَ الحُظوةَ والعَطايا، بالقدرِ الــذي يَضمنُ بَقاءهُم في دِيارِ الغَربِ، ولا شكّ بعدَ ذلكَ أنّ تلــكَ المؤسَّــساتِ المُستقْبِلَةَ تُفيــدُ من أفكارِ الباحثينَ والعُلَماءِ العربِ وتتطوّرُ أبحاثُها بدرجــة عالية، بما يَسمَحُ بتطوُّرِ البَحْثِ العلميّ عندَهُم، فيكون هــؤلاءِ المُهــاجرونَ وَسائلَ ووسائطَ وأدواتٍ تخدمُ مخطّطاتٍ وسياساتٍ غربيّةً وَضَعتْها وزاراتُ التعليم العالي Ens. Sup. ومراكزُ البحــث العلمــيّ والتّقنــيّ الوطنيّــة C.N.R.S.T في إطارِ استقدامِ الكَفاءاتِ الدّوليّةِ البشريّةِ التي تُسهِمُ في بناءِ مؤسساتِ الدّولِ الغربيّةِ العلميّةِ والتقنيّةِ والثّقافيّةِ والاقتصاديّة.

وأمّا الطُّلاّبُ العربُ المبتعَثونَ فَكثيرٌ منهُم ممّن تخرّج بتفوُّق يُفــضّلُ أن يستقرَّ في بَلَدِ الهجرَةِ ويستأنفَ نشاطاته العلميّةَ حيثُ الأبــوابُ في وجهــه

---

(١) يمــكن أن نذكرُ في هذا السّياقِ مئاتِ العُلَمــاءِ العــرَب الذين هــاجَروا إلى أوربّا أو أمريكا أو كندا واستقرّوا بها وقدّمــوا خدمــاتِهم لتلكَ المُجتَمَعــاتِ التي احتضنَتهُم ومَنحتهُم الوسائلَ والإمكاناتِ الكثيرَة، منهُم على سبيلِ المثالِ لا الحصرِ العالمُ العربيُّ الطّبيبُ الجرّاحُ مَجدي يعقوب، البروفيسور المصري البريطــاني، الحاصــل علــى دكتوراه في الطّبّ من جامعة القاهرَة، ثم المتخرجُ من جامعة شيكاغو ثــم العامــل ببعض مُستشفياتِ لندن، والحاصلُ على زَمالة جامعاتٍ دوليّة عاليةٍ وعلــى أوســمة وجَوائزَ كُبرى [تناقلَت أخبارَ العالم المصري كثيرٌ من المواقع والصحف والمجــلاتِ العالميّة، الورقيّة والإلكترونيّة، عبرَ الشّبكَة العالميّة].

مَفتوحةٌ على مصراعَيْها لتطويرِ قُدراته وكَفاءاته العلميّـــةِ والإفـــادةِ مـــن الإمكاناتِ المُتاحَـــةِ والاستمتاعِ برَواتبَ مـــاليةٍ مُغريةٍ وتَعويضاتٍ مُريحة. ولا يُستثْنى من هؤلاءِ إلاّ مَن ابتُعِثَ من بلدِه الأصليّ بشرطِ العودَةِ ونَفْـــعِ الوَطَنِ بالخبرةِ المُكتَسَبَة.

والذي يَبْدو من عَواقبِ الهجرَةِ أنّ العُقولَ العربيّةَ المُهـــاجرةَ لا يـــسُدُّ غيرُها مَسَدَّها، في أوطانها الأصليّة، بل تُشيرُ التّقاريرُ الدّوليّةُ إلى أنّ هجـــرةَ العُقولِ تؤلّفُ خَسارَةً اقتصاديّةً فادحةً وتكلّفُ مبالغَ ماليةً عاليةً وتـــؤثّرُ في الاقتصادِ القوميّ تأثيراً سلبياً وفي اقتصادِ دولِ المَهْجرِ تأثيراً إيجابياً.

٣- الإطار العامّ لهجرة العُقول: تحرّك الأشخاص وأنماطُه:

يُمكنُ أن يُعالَج موضوعُ هجرةِ العُقولِ في سياقٍ أعمّ هو تحرّكُ البـــشَر في شتّى أنحاءِ العالَم وعلى مَدارِ الزّمان، وتتّسقُ أنماطُ التّحرُّكِ البشريّ مـــع فكرةِ البَحْثِ عن فُرصٍ أفضَلَ، إمّا البَحث عن عملٍ للعيش، أو البَحْث عَن مَلجأ أو مأوى آمنٍ أو البحث عن مجالاتٍ لتحقيقِ الذّات، والغالبُ في أنماطِ التّحرُّكِ البشريّ أنّها ناتجةٌ عن أسبابٍ وحَواجزَ تَعوقُ المُتحرّكين عن البَقـــاءِ في بلادِ المَنشَأ فيبحثونَ عن بُلدانِ مَقْصدٍ جَديدة، مُفترضينَ أنّ بـــينَ المنـــشأ والمَقْصدِ بوناً شاسعاً في تَوفيرِ الرّزقِ والكَرامَةِ والاعتبارِ للإنسان.

ولقد ارتَفَعَت نسبةُ المتوجِّهينَ إلى البلدانِ المُتقدِّمة في الخَمـــسينَ عامـــاً الماضية، أمّا اليومَ فقَد شهدَت الهجرةُ نحو الخارجِ تباطؤاً مؤقّتاً ناتجـــاً عـــن انفجارِ الأزمةِ الاقتصاديّةِ ابتداءً من سنة ٢٠٠٨م، والأزمـــاتِ الـــسياسيّة

المرتبطةِ بقوانينِ الإرهابِ الجَديدَةِ وبالحملاتِ الغربيّةِ المتواليةِ لوَقْـــفِ مـــدِّ الهجراتِ من البلدانِ الفقيرَةِ نحو البلدانِ المتقدّمة الغنيّة، ويعني ذلكَ أنّ الدّولَ المتقدّمةَ شرعَت في سَنّ قَوانينَ ووضعِ قُيودٍ وضُغوطٍ على التّحرُّك البـــشريّ نحو بُلدانها.

– مَن يتحرّكُ وإلى أينَ ومَتى ولِمَ؟

غالباً ما يُنعَتُ التّحرّكُ البشريّ المتصلُ بالهجرةِ بأنّه تدفُّقٌ من الجَنـــوبِ إلى الشّمالِ، ولكنّ للتّحرُّكِ أنماطاً عديدةً أبرزُها تحرُّكُ الأشـــخاصِ داخـــلَ حُدودِ بلَدِهِم[1]، وقابليةُ التّحرُّك داخلَ البَلَدِ أمرٌ حيويّ ضروريّ للتنميـــة، ويُعبّرُ عن رغبةِ الأفرادِ الرّاحلينَ أو المُتحرّكين في اختيارِ أنماطِ عيشٍ أنـــسَبَ لَهُم ممّا هُم فيه أو البحْثِ عن فُرصِ عملٍ.

ولكنّنا عندَما نتحدّثُ عن الهجرة البشريّة من بلدٍ إلى بَلدٍ آخَر، فإنّمـــا نَعْني الهجراتِ الكُبْرى، وكذلك الشأنُ في هجراتِ المَهـــاراتِ والعُقـــول، وتتّصلُ الهجرةُ على وجه العُمومِ بوجهٍ طبيعيٍّ تشتركُ فيه كلُّ أنماطِ التّحرُّكِ البشريّ، ووجهٍ آخرَ يقتصرُ على الهجراتِ الاضطراريّةِ كزَحْفِ العُمّالِ إلى المُدنِ الكُبْرى والبُلدانِ الغنيّةِ للبَحْثِ عن عَمَلٍ خارجَ الـــوَطَنِ أو كهجـــرةِ العُلَماءِ إلى الخارجِ للبَحْثِ عن وضْعٍ أفضلَ.

---

(١) تقرير التّنمية البشريّة ٢٠٠٩، التّغلّب على الحَواجز: قابليّة التّنقّل البَشريّ والتّنمية، نشْر: برنامج الأمم المتّحدة الإنمائي، الطّبعة العربيّة (القاهرة: مركز معلومات قُـرّاء الشّرق الأوسط، ٢٠٠٩م) الفصلُ الثاني، ص٢١.

وأمّا الوجه الأولُ فتأتي أهميتُه أيضاً من أنّ التغيُّرَ يُصيبُ حياةَ الإنسان في جوانبِها كافّةً، في الأدواتِ ووَسائلِ الاتّصالِ، في العمارَةِ والعُمرانِ ونموّ المُدنِ، في نمطِ التفكيرِ، في الأذواقِ والفُنونِ ومَذاهبِ الاختيارِ، في مناهجِ الدّراسَةِ والتّعليم، في العَلاقاتِ الاجتماعيّةِ والمَكاناتِ والأدوارِ[1].

ولكنّ التّغيُّراتِ الخاصّةَ التي تَعنينا ههنا هي النّاتجةُ عن هجرةِ الكَفاءاتِ العلميّةِ والتّقنيّةِ من الطّلاّبِ العَربِ المُتفوّقينَ الذينَ تخرّجوا من الجامعاتِ العربيّةِ الكبرى أو الجامعاتِ الغربيّة. وقد لاحظَ تَقريرُ التنميةِ البشريّةِ لعامِ ٢٠٠٣م[2] أنّ هجرَةَ الكَفاءاتِ العلميّةِ والتقنيّةِ العربيّةِ العاليَةِ، إلى بُلدانِ الغربِ واستقْرارِها فيها، تُسهمُ إلى حدٍّ كبيرٍ في تَقويضِ التنميةِ الاقْتصاديّةِ في المنطقَةِ، والسبَبُ الرّئيسُ لهجرةِ الكَفاءاتِ غيابُ البيئةِ المُجتمَعيّةِ والإمكاناتِ التي يُمكنُ أن تُؤدّيَ إلى قيامِ تلكَ الكَفاءاتِ العاليَةِ بدورِها المَنْشودِ في مَنظومَةِ المَعْرِفَةِ وفي نَهْضةِ بِلادِها، مَع تحقُّقِ الذّاتِ وتَوافُرِ أسبابِ العيْشِ الكَريمِ.

ويَرى التّقريرُ أنّ الخَسارَةَ المترتّبَةَ على هجرةِ الكَفاءاتِ تتمثّلُ في تحمُّلِ الدّولِ العربيّةِ تكاليفَ إعدادِ الكَفاءاتِ والعُقولِ المُهاجرَةِ إلى البُلدانِ المُتقدّمةِ، وهذه مَعونةٌ عكسيّةٌ ودَعمٌ من بُلدانٍ ناميةٍ إلى دولِ الاستقْبالِ

---

(١) إبراهيم عيسى عثمان، مُقدّمة في علم الاجتماع، ص ٣٤٤ وما بعدَها.

(٢) تَقرير التّنمية البشريّة ٢٠٠٣، نحْو إقامَة مُجتمَع المَعْرِفَة، نشْر: برنامَج الأُمم المتّحدَة الإنمائي، الصّندوق العَربيّ للإنماء الاقتصاديّ والاجتماعيّ، الطّبعَة العربيّة (عمّان: المَطْبعَة الوطنيّة، ٢٠٠٣م) الفصلُ السّابع: البِنْيَة الاجتماعيّةُ والاقْتصاديّة: الهجْرَة، ص ١٤٢.

الغنيّة. والأهمُّ من ذلكَ تكلفةُ الفُرصةِ المُضاعفةِ التي تتمثّلُ في فُقدانِ العائدِ المُنتَظَرِ لمُساهمةِ أصحابِ الكَفاءاتِ المُهاجرة، في تَنميةِ أوطانهم، خاصّةً أنّ لهُم أثراً كبيراً في نشاطِ مَنظومةِ المَعْرِفَةِ ونموِّها. وتكلفةُ الفُرصَةِ المُضاعَفَةِ خَسارَةٌ أكْبَرُ يُمْنَى بِها وَطَنُ المَنْشَأ.

٤- ظاهرةُ الهجرَةِ العربيّة:

هجـرةُ الكفـاءات تعـكسُ أزمَةَ حاملِ المعْرفَةِ في الوَطنِ العربيّ، أو عَواملُ الدّفعِ والجذْبِ في الهجراتِ:

ظاهرةُ هجرَةِ الكَفاءاتِ لَها تسمياتٌ واصطلاحاتٌ كـثيرةٌ والمُـسمّى واحدٌ، سُمّيَ العُلَماءُ العربُ المُهاجرونَ بالمغتربين، وبالشّتاتِ العربي لأنهم نازحونَ من البُلدانِ العربية إلى بلدانِ المَهجَرِ غيرِ العربيّة، ممّن هاجَروا طوعاً من بلادهم الأصلية، ومنهُم مَن كانَ هاجَرَ مُضطرّاً على سـبيلِ اللّجـوءِ السّياسيّ، وأغلبُ دولِ المَهْجَرِ من أوربّا وأمريكا بعدْوَتَيْها، ثُمّ أجزاء مـن آسيا، وغيرها.

ويميلُ كثيرٌ من الباحثينَ المُحدَثينَ إلى النّظرِ إلى أنماطِ الهجرةِ العالميّـة، ومنها هجرةُ العُقولِ والكَفاءاتِ، بوصفِها أنساقاً أو نُظُماً تنجُمُ عن التّفاعُلِ بينَ الظّـواهرِ الكـلّيّةِ (macro) والظّواهرِ الجُزئيّـةِ (micro). وتُـشيرُ العَواملُ الكلّيّةُ في هذه الحالَة، إلى المؤثّراتِ التي تفعلُ فعلَها على الصّعيدِ العامِّ مثلِ الوَضعِ السّياسيّ في المَنطقَةِ والقَوانينِ التي تُـنظّمُ الهجـراتِ وتـضبطُ التّغيّراتِ في الوضعِ الاقتصاديّ العالَميّ. أمّا العَواملُ الصُّغرى فهي التي تكونُ

ألصقَ بواقعِ النّاسِ الذينَ يعتزمونَ الهجرةَ، وهي ما يملكونَه من مـــوارِدَ بشـــريّةٍ واجتمـــاعيّةٍ ومَعـــارفَ وصنـــاعـــاتٍ وخـــبراتٍ في موطنِهم الأصليّ، وما يتمتّعونَ به من «رَأسمال اجتماعيّ» يُقـــوّي التّـــضامُنَ بـــينَ المُهاجرينَ في بلدِ المَهْجرِ وبينَ وطنهم الأصليّ[1].

وتُعدُّ ظاهرة هجرة الخبراتِ والمَهاراتِ العلمية نوعاً سلبياً من أنـــواع التّبادُل العلمي بين الدُّوَل، لأنّه يمتازُ بتريفِ الخبراتِ وتدفُّقها في اتجاه الدول المتقدّمَة، فتستفيدُ بُلدان المَهجرِ من العُقولِ وتتضرَّرُ بُلدانُ الوَطَنِ الأصـــليّ، وتختلُّ شُروطُ التّنمية البَشريّةِ التي هي حقٌّ من حُقوقِ كلِّ مواطنٍ في بَلَـــده؛ لأنّ من حقِّ كلِّ مواطنٍ – خاصّةً إذا كانَ يحملُ خبرةً أو مَهارةً أو كَفـــاءةً عاليةً يُفيدُ بها وَطَنَه – أن يستمتعَ بالحرّيّاتِ العامّة، وأن يعيشَ نمطَ الحيـــاةِ التي يَختارُها ويَنْشُدُها، إنّ التنميةَ البشريّةَ تتجاوزُ حدودَ الحاجاتِ الضّروريّةِ إلى غاياتٍ أخرى تتحقّقُ بها الحياةُ الكريمَة اللاّئقة[2].

والجَديرُ بالذّكْرِ أنّنا لا نتحدّثُ عن مَخاطرِ هجرَةِ الكَفاءاتِ العربيّة إلى أوطانٍ عربيّةٍ أخرى كبُلدانِ الخَليجِ[3]، ذلِكَ أنّ مثلَ هـــذه الهجـــراتِ قـــد

---

(١) أنطوني غدنز، علم الاجتماع، ترجمة: فايز الصيّاغ، ص ٣٣٤ وما بعدها.

(٢) تقرير التّنمية البشريّة ٢٠١١، الاستدامَة والإنـــصاف: مُـــستقبَل أفـــضَل للجَميـــع، المُقدّمَة، نَشْر: برنامَج الأمم المتّحدَة الإنمائي، ٢٠١١م، المُقدّمَة: لَمحة عامّة، ص١.

(٣) انظرْ ما كُتبَ في الموضوع من إحصاءاتٍ رقميّة لهذه الهجراتِ بنوعَيْهـــا الوفـــادَة العُمّاليّة وهجرة الكفاءات، ومن وصفٍ لخصائصها، مثل: حُلم الهِجْرَة للثّروَة، بـــاقِر سَلمان النّجّار (بيْروت: مَركز دراسات الوحدَة العربيّة، ٢٠٠١م).

أنتجَت إسهاماً كبيراً في اكتسابِ المَعْرِفَةِ بين دُوَلِ مَنْشأ ودُوَلِ مَقْصد، تؤلّفُ جَميعاً وطناً عربيّاً كَبيراً تتعاوَنُ أجزاؤُه على تَبادُلِ الخبراتِ والمَنافِعِ وتُسهمُ في تَوْثيقِ عُرى العَلاقاتِ العربيّةِ، وفي بناءِ المُجتمَعِ العربيّ الكَبير.

أمّا الهجرةُ إلى الغربِ فلا شكّ أنّها تَنطوي على اكتسابِ خبراتٍ ومَعارِفَ جَديدة، وعلى الانفتاحِ على أنموذَجٍ معرفيٍّ أرْقى لَدى المُهاجِرينَ. ولكنّه لا يُنكرُ أحدٌ أنّ هجرةَ هذه الكَفاءاتِ العربيّةِ ذاتِ التأهيلِ العالي إلى الغربِ تُعدّ من أخطَرِ الظّواهِرِ المُؤثّرَةِ في جسمِ الوَطنِ العربيّ، وامْتصاصِ الغربِ لمنافذِ المعرفَةِ ونتائجِها العلميّةِ والاقتصاديّة. وفي هذا السّياقِ أوْرَدَ تَقْريرُ الأمم المتّحدَةِ للتّنميةِ البشريّةِ أرقاماً إحصائيّةً تُفيدُ أنّه بحُلولِ سنَةِ ١٩٧٦م، كانَ قَد غادرَ البُلدانَ العربيّةَ نحوُ ثَلاثةٍ وعِشْرينَ بالمائَةِ من المُهندِسينَ، وخَمْسينَ بالمائَةِ من الأطبّاءِ، من جَميعِ حَمَلَةِ الشّهاداتِ العُلْيا إلى المَهْجَرِ، فَمن أصْلِ ثَلاثمائَة ألفٍ من خرّيجي المَرْحَلَةِ الجامعيّةِ الأولى في العامِ الدّراسيّ ١٩٩٥-١٩٩٦م يُقدّرُ أنّ نَحواً من خَمْسةٍ وعِشْرينَ بالمائةِ هاجَروا إلى أمريكا الشّماليّةِ ودُولِ المَجْموعةِ الأوربيّةِ، وغادَرَ بين عامَيْ ١٩٩٨ و٢٠٠٠م أكثَر من خَمْسَةَ عَشَرَ ألْفِ طَبيبٍ عربيٍّ إلى الخارِجِ.

وتُقدّمُ لَنا قِراءَةُ هذه الأرقامِ خَطَرَ حجْمِ هذه الظّاهرَةِ وتَفاقُمَها عبْرَ الزّمَنِ، فالمُتأمّلُ في أسْبابِها يتبيّنُ لَه كَم يتعذّرُ قِيامُ مُجتَمَعٍ عربيٍّ للمعْرِفَةِ، وهي نتيجةٌ أشدّ على الأمّةِ وأخْطَرُ من نَزيفِ الكَفاءاتِ وهجْرَةِ العُقولِ

ذاتِها، فوُجودُ بيئةٍ مُجتمعيّةٍ عربيّةٍ غيْرِ مُهيّأةٍ لِتَوظيفِ الكَفاءاتِ العربيّةِ في أوطانِها وحُسْنِ الاسْتفادَةِ منها عائقٌ يَكادُ يَكونُ مانعاً قيامَ مُجْتَمَعِ المَعْرِفَةِ المَنْشودِ في البِلادِ العربيّةِ. وبزيادَةِ فَقْدِ البلادِ العربيّةِ لكَفاءاتِها وعُقولِها المُفكِّرَةِ العالِيَةِ يزدادُ ضعفُ إنتاجِ المَعْرِفَةِ وقُصورُ الطّلَبِ على إنتاجِها.

لقَد فرّطَت فئةٌ كبيرةٌ من المُثقّفينَ العربِ في استقلالِ المَجالِ المعرِفيّ، وأدّى التّفريطُ إلى هيْمَنَةِ الأنظمةِ السّياسيّةِ على نُخبةِ المُثقّفينَ[1]، واستقْطابِهم وتَسخيرِهم لخدمةِ أهدافِها، وأفْضى هذا الاستقطابُ والتّسخيرُ

(١) الاستبْدادُ السّياسيُّ قَديمٌ، وُجِدَ على مرِّ التّاريخِ كلّما وُجِدَ الظّلْمُ والجَهلُ بالحُقوقِ، وقَد كتَبَ جَمالُ الدّينِ الأفغاني [ت.١٨٩٧م] مقالةً مَشهورةً عنوانُها: الأمّةُ وسُلطَةُ الحاكمِ المُستَبِدّ، بيّنَ فيها أنّ الأمّةَ التي ليسَ لَها حلٌّ ولا عقْدٌ في شُؤونها ولا تُستَشارُ في مَصالحِها ولا أثرَ لإرادتِها في مَنافعِها العُموميّةِ، وإنّما هي خاضعةٌ لحاكمٍ واحدٍ إرادَتُه قانونٌ ومَشيئتُه نظامٌ، فتلكَ أمّةٌ لا تَثبُتُ على حالٍ واحد... وإن كانَ حاكمُها جاهلاً سيّئَ الطّبعِ... أسقطَ الأمّةَ إلى مَهاوي الخُسرانِ... فيتغلّبُ القَويُّ على حُقوقِ الضّعيفِ ويختلُّ النّظامُ وتفسُدُ الأخلاقُ وتنخفضُ الكلمةُ ويغلبُ اليأسُ، فتمتدُّ إليها أنظارُ الطّامعينَ.
انظُرْ: العُروَةَ الوُثْقى، جَمال الدّين الأفغاني ومحمّد عَبْدُه، الآثار الكامِلَة (١)، إعداد وتَقْديم: سيّد هادي خسرو شاه، ط٢ (بيروت: نَشْر دار الكِتاب العربيّ، ١٩٨٠م).
وألّفَ عبدُ الرّحمن الكَواكبيّ [ت.١٩٠٢م]، طَبائع الاستبْداد ومَصارِع الاستعْباد، ومن المَعْلوم أنّ عبدَ الرّحمن الكَواكبيّ اضطرَّ هو نفسَه إلى الهجرةِ سنةَ ١٩٠٠م، من بلدِه نحو مصرَ، وكتبَ كتابَه وأخفى اسمَه حتّى لا يلحَقَه أذىً بسببِ أفكارِه. وقد تمحّصَ عندَه أنّ أصلَ الدّاءِ الاستبْدادُ السّياسيّ، ودَواؤُه دَفْعُه بالشّورى. انظُر: طَبائع الاستبْداد ومَصارِع الاستعْباد، تَقْديم أحمد السّحمراني، ط٣ (دار النّفائس للطّباعة والنّشر والتوزيع، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م).

إلى ظهورِ نزعاتٍ تَسويغيّةٍ تَسْعى إلى مَنْحِ الشّرعيّةِ السّياسيّةِ والتّاريخيّةِ للسّلطةِ القائمَة ودَعْمِها.

ويُلاحظُ المُراقبونَ لتطوُّرِ السّاحة الفكريّة العربيّة[1] أنّ المُثقّفينَ العربَ الذينَ تمكّنوا من الوُصولِ إلى دائرةِ صُنْعِ القَرارِ، لم يتمكّنوا من ذلكَ بفضلِ علمِهم أو استقْلالِهم الفكريّ، وإنّما تمكّنوا من الوُصولِ بقُدرتِهم ومَهارتِهم في التّغلغُلِ والانخراطِ في السُّلطةِ السّياسيّة، وقَدْ ينتهي المَطافُ بهؤلاءِ المُثقّفينَ خُدّامِ السّلطةِ المركزيّةِ إلى إهْمالِهم واستبْعادِ مَشورتِهم عندَما تتجاوزَهُم وتَحْتاجُ إلى مَشورةِ غيْرِهم بشأنِ الخياراتِ السياسيّةِ التي تَقومُ على الدّرايَةِ والخبرَةِ والعلمِ، فتَجدُ السّلطةَ تُفضّلُ في مثلِ هذه الأحوالِ ولأسبابٍ تاريخيّةٍ واقتصاديّةٍ وسياسيّةٍ استشارةَ عُلَماءَ وخُبراءَ من خارجِ البَلَدِ؛ ومَعْنى ذلكَ أنّ هذه الأنظمةَ السّياسيّةَ تستبْعدُ التعاملَ مع المَعْرفةِ الوطنيّةِ بوصفِها قيمةً في حدّ ذاتها، ولا تعتمدُ عليْها ولا تُوظّفُها إلاّ لتركيزِ سُلطتِها، وقد ارتفعَت أصواتٌ ثقافيّةٌ تعبّرُ عن اغْترابِ الفلسفةِ والسياسَةِ في المُجتمعاتِ العربيّة، فاعْتَزَلَ أصحابُها أو عُزلوا، وكثيرٌ منهُم من المُثقّفينَ الأكاديميّينَ الذينَ فضّلوا الاغترابَ المَعْرفيّ في أوطانهم الأصليّة والانطواءَ، أو اضطُرّوا إلى الهجرةِ إلى الخارجِ، من أجلِ البَحثِ عن مَجالٍ لتنميةِ المَعارفِ وتطويرِها، بَعيداً عن أجواءِ الضّغطِ أو الاحتواءِ السّياسيّ، وهذا مظهَرٌ من مَظاهرِ هجرةِ العُقولِ العربيّة.

---

(١) تقرير التّنمية البشريّة ٢٠٠٣، نحو إقامةِ مُجتمَع المَعْرفَة، ص ١٤٦.

٥- التّعليمُ العالي وهجرةُ العُقول:

وفي سياقِ الحَديثِ عن إنتاجِ المَعْرِفَة وأثرِ ذلِك في هجـرةِ العُقـولِ، نتساءَلُ عن نوْعِ التّعليمِ العالي في العالَم العربيّ، الذي يُخرّجُ فئاتِ العُلمـاءِ والباحثِينَ وحاملي المَعْرِفَةِ.

أوّلُ ما يُلاحَظُ في هذا السّياقِ أنّ مُؤسَّساتِ التّعليمِ العالي في البُلـدانِ العربيّة حَديثةُ العهد بالنّشأة؛ فأكثرُ من نصفِ الجامعاتِ العربيّة أنـشئَت في النّصفِ الثّاني من القرنِ الماضي، وللنـشأة الحَديثـة دلالَـةٌ مهمّـةٌ؛ لأنّ المؤسَّساتِ الجامعيّةَ تستغرقُ زمناً لكي تُرسِّخَ بنيَتَهـا بوصـفها مؤسّـسةً ولتُحسّنَ قيمتَها المعرفيّةَ. أمّا المُؤسّساتُ الجامعيّـةُ العربيّـةُ فقَـد تـأثّرَت بظروفِ المُجتَمعاتِ العربيّةِ والسياساتِ المُتّبَعَة[1]؛ فأنتَجَت تلـكَ العوامـلُ جامعاتٍ من غيْرِ رُؤىً واضحةٍ وسياساتٍ مُحكمة تُدبِّرُ شـؤونَ التّعلـيمِ العالي، واضطرَبَت غاياتُها بينَ خدمةِ الأهدافِ الوطنيّة وبناءِ هويّاتِ الـبلادِ العربيّةِ الإسلاميّةِ وبينَ استلهامِ الأنموذَجِ الغربيّ استلهاماً كلّيـاً؛ فتـأثّرَت النّيّاتُ وتعدّدَت المَصالحُ وأسفرَ التّعدُّدُ والاضطِرابُ عَن خلَـلٍ في المَـسارِ الجامعيّ منذُ البَدْءِ، نَعمْ، لَقَد حاولَ جيلُ النّهضة أن يُرسِّخَ ويُثبّتَ أسـسَ البَحثِ العلميّ في الجامعـاتِ العربيّةِ، ووُفّقَ إلى حدٍّ ما ولكنّ المُحـاولاتِ لم يُكتبْ لَها الاستمرارُ.

---

(١) أنتوني غِدِنز، علم الاجتماع، ص ٥٤٨-٥٤٩.

من آفاتِ الجامعاتِ العربيّةِ في عُمومِها قلّةُ استقْلالِها، وخُضوعُها لقبضةِ السّياساتِ الحاكمَةِ وهيْمَنةِ الأنظمَةِ، فتَحوّلَ كثيرٌ منها إلى ساحاتٍ للصّراعِ السّياسيّ والعَقَديّ، وغَدَت فَضاءً لخدمَةِ أغراضِ السّلطةِ السياسيّةِ، فانحَسَرَت حرّيةُ التّفكيرِ بانْحسارِ استقْلالِ الجامعاتِ. أمّا الفُرصُ القليلةُ التي تُتاحُ فيها معرفةٌ جيّدَةٌ وتكوينٌ علميّ مهمٌّ للباحثينَ، فإنّها تُفضي بالمُتخرّجينَ إلى الهجرَةِ الْتماساً لما افْتقَدوه في مُجتَمعاتِهم وجامعاتِهم.

٦- من أسْبابِ هِجرةِ الكَفاءاتِ العلميةِ العَربيةِ:

ظاهرةُ هجرةِ العُقولِ العربيّةِ إلى الغَربِ، وارْتضائها الاسْتقْرارَ فيه، تُعبّرُ عن أزمةٍ في حَياةِ بُلدانِ المَنْشأ، في جَوانبِها الاقْتصادية والسياسية والاجتماعية والتعليمية والثّقافيّةِ، وتُسهمُ في نَبْذِ العُقولِ. ومن أهمّ أسبابِ الهجرة حاجةُ العُلماءِ والباحثينَ والمُثقّفينَ إلى حريّةِ البَحْثِ العلميّ، ولا يُلبّي هذه الحاجةَ إلاّ بُلدانُ المهجرِ التي تُنفقُ مبالغَ كبيرةً للبحثِ العلميّ، وتُوفّرُ البيئةَ العلميّةَ المُناسِبَةَ والأجهزةَ والأدواتِ والمُخْتبَراتِ والمَراجعَ اللاّزمَةَ لتطويرِ الأبحاثِ وإخْراجِ المَشاريعِ العلميّةِ إلى حيزِ الوُجودِ للإفادةِ منها واستِثْمارِها.

من الأسبابِ أيضاً اختلالُ تَوازنِ العَلاقةِ بين أنظمَةِ التّعليمِ ومَشاريعِ التّنميةِ الاقْتصاديّة[1]؛ فكثيراً ما تَجدُ في بعضِ بَرامجِ التعليمِ هوّةً بينَ مُقرّراتِ التّعليمِ النّظريّة، ومَطالبِ عالَمِ الاقْتصادِ والمالِ والأعمالِ، على الرّغمِ من أنّ بعضَ البُلدانِ العربيّةِ ترفَعُ شِعارَ إدْماجِ الجامعَةِ في المُحيطِ الاقْتصاديّ والاجتماعيّ.

ومن أسبابِ الهجرةِ أيضاً ضعفُ مُستوى الدّخل المالي وانْخفاضُ رَواتبِ ذَوي الكَفاءاتِ العلمية في البلدان العربية. وقد سبّبَ هذا النّقصُ في تدفّقِ كثيرٍ منهُم إلى الغربِ لالْتماس مُستوىً أفضلَ في المَعيشَةِ وأجورٍ أعلى.

ومن الأسبابِ أيضاً عدمُ إسْنادِ العَمَلِ المُناسبِ للمُتخرّجِ المُتخصّص؛ فيترتّبُ على ذلكَ أنّ كثيراً من ذوي الكَفاءات يُستعْمَلونَ في غيْرِ ما تخصّصوا فيه ودَرَسوا لأجله، وتنقطِعُ بذلكَ فُرَصُ تطويرِ مَجالاتِ التّخصُّصِ وتتوارى.

ومن الأسبابِ أيضاً الحَجْرُ على حريّةِ الفكْرِ وهَيْمَنَةُ سياسةِ التّحكُّمِ في شؤونِ البلادِ بقبضةٍ من حَديدٍ، تتفاوتُ بحسبِ سياساتِ الدّولِ العربيّة،

(١) للتّوسُّعِ في مَعرفَةِ تَزايُدِ الطّلَبِ على التّعليمِ الجيِّد، يُنظَرُ التّقْرير المُفصّلُ الذي نَشَرتْه منظمَةُ التَربيَةِ والعُلومِ والثّقافة (اليونسكو)، ويُنظرُ على وجه الخُصوصِ البابُ الثّاني المتعلّق بازْدياد الطّلب العالَميّ على التّعليم ذي الجَوْدَة والكَفاءَة.

- ***World Atlas, of Gender Equality in Education,*** Published in 2012 by Unesco, Paris, France 2012 , pp: 10-20

وهذا الوضعُ السياسيّ الخانقُ يضطرُّ العُلَماءَ العرَبَ والمُثقّفينَ إلى الْتماسِ أجواءِ الحرّيّةِ واحترامِ الرأيِ وحُقوقِ الإنسانِ وإتاحَةِ الفُرَصِ ورَفع القيود عن الأفكار والبحوث العلميّة.

من الأسبابِ أيضاً انصرافُ كثيرٍ من الدّولِ العربيّة لاستيرادِ التقنيّة الغربيّةِ الجاهزَةِ وتَبْديدُ الأموالِ الوطنيّةِ في ذلِك، بَدلاً من تشجيعِ البحث العلميّ وبِناءِ أساسٍ تقنيّ عربيّ يُعتَمَدُ عليْه لسدّ حاجاتِ الأمّة في هذا الميدان.

ويُقابِلُ هذا الوضْعَ المُزْرِيَ في بُلدانِ المَنْشأ تُقدُّمٌ علميّ في بُلدانِ المَهْجَر واستقرارٌ سياسيّ وحُريةُ رأيٍ، وتَشْجيعٌ على البحثِ العلميّ وفَتْحٌ لفُرَصِ الابتكارِ والتّطويرِ للأبحاثِ والمَشاريعِ.

٧- الآثار السلبية لهجرة الكَفاءات:

تُعدُّ هجرةُ الكفاءات العلمية عائقاً من عَوائقِ التنمية في بَلَد المَنْشأ؛ لأنّه لا تنميةَ من دونِ المَهارات العلميّة، فهي سنَدُ التّقدُّمِ وأساسُ التّحديثِ والتّطويرِ في سائرِ المجالاتِ الحيّةِ التي يَقومُ بها كلُّ بلد، أمّا الهجرةُ فتُبْقي البلَدَ في حالة التّأخُّرِ، في زَمَنٍ تتقدّمُ فيه كلُّ الأمم وتتنافسُ لتكسبَ الرِّهانَ وتستقلَّ بنفْسِها وتسْلَمَ من الاتِّباعيّة. وما تَفاقَمَ تخلفُ العَرب إلاّ بسببِ نزيفِ الكَفاءاتِ إلى دُولِ الغربِ المُتقدِّمَة، وكُلّما ارتَفَعَت نسبةُ الهجرَة ازْدادَت الهُوّةُ بين العربِ والغربِ عُمْقاً، لأنّ هجرةَ كلِّ عقْلٍ تَعْني نُقْصانَ فُرصةٍ من فُرَصِ النّموِّ في بَلَدِ المنشأ وزِيادَتَها لدُوَلِ المُغْتَرَبِ والمَلْجأ، وحرمانَ

البَلَدِ الأصليّ من عَقلٍ مُخطِّطٍ مُدبّرٍ وهي زيادةٌ تَعْني إضافةَ طاقــةٍ بــشريّةٍ جَديدة تُجدّدُ حيويّةَ العالَم الغربيّ. وكُلّما ازدادَ إهمالُ هذه العُقولِ في عُقرِ دارِها ونَبْذِها والتّوجُّسِ منها، ازْدادَت عَواملُ الجَذبِ والاستقطابِ في بلادِ الغَرْب، لهذه المَهارات العربيّة .

- مَخاطِرُ الهجرَةِ وَمَساوئُ الإهمال:

أخطرُ من ذلكَ كلِّه أنّ البلادَ العربيّةَ تُحْرَمُ بهجرةِ الكَفاءاتِ والعُقــولِ العربيّةِ من أنْفَسِ الفُرَصِ، في مَجالِ التربيّةِ والتّعليمِ، تُحْرَمُ إعــدادَ الخَلَــفِ الذي سيخلُفُها، أي تَهيئ الأجيالِ التي تنهضُ بأمانَــةِ التنميــةِ وتــستأنفُ مَشْروعَ الأمّةِ الحَضاريَّ.

ومن مَخاطِرِ الهجرةِ زيادَةُ الاعتمادِ على دُولِ الغــربِ وكَفاءاتــه في استيرادِ مُستلْزَماتِ الحَياةِ وأدواتِ التنميةِ، بمَبالِغَ ماليّةٍ عاليةٍ، وفي الاعتمــادِ الكلّيّ تَوطينٌ للتبعيّةِ واستئنافٌ للمَشْروعِ الاستعماريّ القَديمِ. فتُصبحُ بُلدانُ المَنْشأ مَوارِدَ بشريّةً وطبيعيّةً يستغلُّها الغربُ، وتُصبحُ بُلدانُ المَقْصدِ المُتحكِّمَ الرّئيسَ في السياساتِ العربيّةِ والمُخطِّطَ الأوّلَ لاقتصادِها وتعليمِها وتنميتِها، بل مُصمِّمَ صورةِ مُستقْبلِها في ميادينِ الحياةِ كلّها، حتّى تظَلَّ تحتَ هيمنتِــه ورَهْنَ إشارتِه في تلبيةِ حاجاتِه.

وكُلّما تَمادى الغربُ في إغراءِ العُقولِ وجَذبِها، وتَمــادى المَنْــشأ في إهمالِها ونبذِها، خَسرَت الأمّةُ أبْناءَها وظلّتْ تَدورُ في فَلَكِ غيرِها، لا تملــكُ لنفسِها قراراً ولا تعرفُ لأمنِها استِقْراراً.

٨- حلولٌ ومُقْتَرَحاتٌ:

- هَلْ من حُلولٍ للإفادَةِ من الكَفاءاتِ ووَقْفِ نَزيفِها؟

- خططٌ للحدّ من الهجراتِ العلميّة:

يَدْعو الخُبَراءُ العربُ واضعو تَقريرِ التَنميةِ البَشريّة[١] إلى وضعِ خطّةٍ منسَّقَة وعَملٍ جادٍّ لتَقْليلِ الخَسارةِ إلى أدْنى حَدٍّ مُمكنٍ، وذلك بالاسْتفادةِ من الكَفاءاتِ العربيّةِ المُهاجرَةِ أثْناءَ وُجودِها في المُغْتَرَب، أو تَحْويلِها إلى مَكْسبٍ هائلٍ وذلك باجْتِذابِها إلى العَودَةِ إلى أوطانها، ولا يَكونُ ذلكَ إلاّ بتقْديمِ المُحفزاتِ اللاّزِمَةِ لَها، مُحمَّلةً برأسِ مالٍ مَعرفيٍّ كبيرٍ. ويَعْني ذلكَ إتاحَةَ الشّروطِ الكَفيلةِ بأن يكونَ رأسُ المالِ المعرفيّ هذا مُنتجاً ومُحقّقاً للذّاتِ الفَرْديّة ولنهضةِ الأوطانِ والمُجْتَمعاتِ العربيّةِ في آن. وليسَ ذاكَ بالأمرِ العَزيزِ؛ إذْ يُشترَطُ قيامُ مَشْروعٍ جادٍّ لبناءِ نَهْضةٍ إنسانيّة في الوَطنِ العربيِّ يَجذبُ الكَفاءاتِ المُهاجرَةَ ويُغْريها بالعَوْدَةِ إلى بَلَدِ المَنْشأ؛ لتَنالَ شرَفَ المُشارَكَةِ في مَسيرةِ المَعرفَةِ والتّنميةِ في أوطانِها الأصليّة.

ولكن لا بُدّ قَبْلَ الشّروعِ في هذه الخُطواتِ البانيَةِ من مُعالَجَةِ بعضِ الأسبابِ الاجتماعيّةِ والسّياسيّةِ والاقْتصاديّةِ التي تَقفُ عائقاً أمامَ اكْتسابِ المَعرفَةِ في الوَطنِ العربيّ، وهي سماتٌ تطلُبُ إصلاحاً أبْعَدَ

---

(١) تَقرير التّنمية البشريّة ٢٠٠٣، نَحْو إقامَةِ مُجتَمَع المَعْرِفَة، ص ١٤٣.

مَدىً حتّى تَصفُوَ أجْواءُ اكتساب المعْرِفَة وتَخلُوَ الطّريقُ من الحَواجزِ، وتَعُمَّ حُرّيةُ التّفكيرِ والتّعبيرِ ويُشْرَكَ المُجتَمَعُ في صُنعِ قراراته، بعيداً عن الاسْتِبْداد والتّسلُّط.

ذلكَ أنّ السّياسةَ في الوَطنِ العربيّ إطارٌ مرجعيٌّ أبْعدُ أثراً في تَحْليلِ مُحدِّدات اكْتساب المعْرِفَةِ في البُلدان العربيّة؛ وأساسٌ لتَهْيئَة مُتطلّبات نَشْرِ المَعرِفَة وإنتاجها بكفاءةٍ وجَوْدة. وكلّما ازدادَت أهمّيّةُ المعرِفَة للوُجود البشريّ وازدادَ دُخولُ العالَم في مَرْحلةٍ من تَداعي الحُدود أمامَ المَعارِفِ والمَعْلومات والعُلوم، وتَلاشي المَسافاتِ واحتدامِ المُنافَسَةِ في الاقتصاد وإنتاجِ المعارِف، فُتِحَت فُرصٌ وتحدّياتٌ لمنظومةِ المَعْرِفَة الوطنيّة وازدادَ الميلُ إلى قيامِ تجمُّعات إقليميّة تُساعدُ على النّهوضِ بمنظومة المَعْرِفَة، وإقامة مُجتمَعِ المعْرِفَة، وكُلُّ ذلكَ يُؤثّرُ في تَدبيرِ الشّأن السّياسيّ ويُكسبُ السّلطَةَ السّياسيّةَ حَمولةً معرفيّةً علميّةً وخلفيّةً فكريّةً تنسجمُ مع الأمّة وتُواكبُ آمالَ الشّعوبِ ولا تُعارِضُها، فإذا ما تأسّسَت هذه السّلطَةُ على احترامِ الحُرّياتِ العامّة وجَلْبِ مَصالحِ أبناءِ الأمّة ودَفْعِ مَضارِّها فستَكونَ عاملاً من عَواملِ الجَذْبِ والإغراءِ للنّخبَة المُثقّفَة وللكَفاءاتِ العلميّة العاليَة، وتَكونُ عنصراً من عَناصِرِ تَحْبيبِ الوطَنِ وخِدْمَته ووضعِ مَصالحه في مُقدّمة الأهداف، وتُقلّلُ من نَزيفِ العُقول؛ لأنّ نَزيفَها يُهدّدُ اسْتقْرارَ بلَد المَنشأ ويُعجّلُ بتخلّفِه وسُقوطِه في مَهاوي الأمراضِ الاجتماعيّة والمَعاطبِ الاقْتصاديّة.

فإذا تعيّنتْ أسبابُ استفحالِ ظاهرةِ الهجرَةِ العلميّةِ إلى الغَربِ، واقْتنعَت دُولُ المنشأ بوُجوبِ مُعالَجَةِ هذه المُشكلةِ التي لا تزدادُ مع الأيّامِ إلاّ تَفاقُماً، فعليْها أن تخطوَ خطواتٍ عمليّةً لوقْفِ النّزيفِ قبلَ فَـوْتِ الأوانِ، وذلـك باتخاذ قرارٍ سياسيٍّ جَريءٍ، يَرمي إلى تحسين البيئـة العلميّـةِ والاقتـصاديّةِ والثقافية، حتّى نضمنَ المحافظةَ على الكفاءات العلمية العربيـة، واسـتردادَ الكفاءات التي سبقَ لَها أن هاجَرَت.

ومن ثَمراتِ هذا القرارِ السياسيّ الجريءِ تثْبيتُ قاعدةٍ علميّـةٍ عربيّـةٍ للبحثِ العلميّ وتأمينُها حتّى تُصبحَ قادرةً على سدّ حاجاتِ الأمّـةِ مـن المنتوجاتِ، مع تطوير هذا الإنتاجِ وتحسينه حتّى يُضاهيَ النـاتجَ العـامَّ في الدول المتقدمة، ولا تُؤمَّنُ هذه القاعدَةُ العلميّةُ الأساسُ إلاّ برَفْـعِ حـصَصِ ميزانياتِ البحثِ العلميِّ في العالَمِ العربيِّ.

ولا تُبْنى هذه القاعدَةُ العلميّةُ العربيّةُ إلاّ بالعنايَةِ بجوهَرِ التنميةِ وأساسِها وهو الباحثُ العربي، وذلكَ بسدّ حاجاتِه وتحسين أوضاعه ورَفْعِ مـستوى مَعيشته، وتأمين استقْرارِه النّفسيّ والفكريّ وكُلّ ما يَلْزَمُه للقيام بالبحـث العلمي والتّفرُّغِ له في بلدِه.

هذا الباحثُ العربيُّ الذي تتوقُ نفْسُه إلى مُغادرَةِ الوَطنِ والاغترابِ في الخارجِ طلباً للحرّيّةِ والكَرامَةِ وأسبابِ العيشِ المناسبِ، لم يأتِ من فَـراغٍ، ولكنّه انبثقَ من نسَقٍ تعليميّ مُعيّنٍ في بَلَدِه، وعليْه لا يُتصوّرُ تَصحيحٌ للوَضعِ إلاّ بإصلاحِ التّعليمِ وتَجْويدِه:

- سياسةُ نَشْرِ التّعليمِ وتَجْويدِه في الوَطنِ العربيّ:

أصبحَت الحاجةُ ماسّةً لإخْراجِ التّعليمِ من حالتِه التي هـــو عليْهـــا[1]، والتي تؤدّي إلى هجرةِ المُتخرِّجينَ، وذلكَ لتَجديدِ بنيةِ هذا التّعليمِ ومُحْتـــواه وأدواته ومَناهجه تجديداً كاملاً مُتَكاملاً، يُتيحُ للمتعلّمينَ أن تتفتّقَ طاقـــاتُهُم المُبدعَةُ وتنبثقَ مَهاراتُهُم الخاصّةُ، من أجلِ بناءِ مُجتمَعٍ عـــربيّ جديـــدٍ ذي نَشاطٍ واقْتدارٍ.

ومن شأنِ المُتخرِّجينَ أن يستَفيدوا كَمّاً وعُمقاً من التّعليمِ الـــذي تلقَّوْه فيُسهِمَ ذلكَ التّكوينُ في تخريجِ أجيالٍ تُفيدُ وَطَنها بما اكْتسبتْه من خبرَةٍ وترتبطُ بِه ارتباطاً قويّاً وتعَملَ على ابتكارِ صيَغٍ للتنميةِ والتّطويرِ، وتسْتغْني عن هَجْرِ وَطنِها إلى الخارِج؛ لأنّها ستعلَمُ أنّ في تلك الهجـــرَةِ تَضييعاً للأمّةِ وحِرْماناً لَها من فرصِ الإفادَةِ من بَنيها وهَـــدْراً وإبْطـــالاً لطاقاتِها، لِمَصْلحةِ المُسْتَفيدِ الأجنبيّ.

وقد حدّدَ بَرْنامَجُ المنظّمةِ العربيّة للتربيـــةِ والعُلـــوم والثّقافـــة[2] سياساتِ نَشرِ التّعليمِ وتَجْويدِه، وتتلخصُ هذه السّياساتُ في سَبْعٍ:

---

(١) عبد العَزيز بن عثْمان التّويجري: التّعليمُ العربيّ: الواقـــع والمُـــستَقبَل، المُنظّمَـــة الإسلاميّة للتّربيّة والعُلوم والثّقافَة، الإيسيسكو، منشورات المنظمة الإسلامية للتربيـــة والعلوم والثقافة (إيسيسكو) ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

(٢) المنظّمةُ العربيّةُ للتربيةِ والعُلوم والثّقافةِ (اليونسكو): الكتابُ الإحـــصائيّ الـــسّنويّ، ١٩٩٦-١٩٩٨م.

أوّلُها: التّعلُّم الذّاتي، ويَعْني حَمْلَ المُتعلّمِ على التّركيزِ على أدواتِ التّعلُّم، وتتضمّنُ هذه الأدواتُ في حالَةِ التّعليمِ الأساسِ القراءةَ والكتابةَ والتّعبيرَ الشّفَهيَّ، والحسابَ وحلَّ المسائلِ، والمَعارفَ العلميّةَ والاجتماعيّةَ الضّروريّةَ، وتَكوينَ الدّوافعِ والمَضامينِ الأساسِ للتّعلُّم كالمَهاراتِ اليدويّةِ والتّقنيّةِ، والقِيَم والاتّجاهاتِ المُلائمَة للعَمَلِ والإنتاجِ، والقُدرة على البَحْثِ الذّاتيّ عن المعرِفَةِ، بحيثُ يَهدي التّعلُّم الذّاتيّ في نهاية المَطاف إلى تَزويدِ المُتعلّمِ بالمَعارِفِ والقُدراتِ والمَواقفِ والاتّجاهاتِ التي تُمكّنُه من أن يُعلّمَ نفسَه طوالَ الحياةِ، وأن يُجدّدَ نفسَه بصفةٍ مُستدامة.

ثانيها: تَنويعُ التّعليم وتَجْديدُ إطارِه، ويعني ذلكَ أموراً كَثيرةً منها تَوفيرُ فُرصِ التّعليمِ لجميعِ فِئاتِ العُمرِ، وفَتحُ بابِ التّعليمِ النّظاميّ لمُختلفِ الأعمارِ، وفَسْحُ التّعليمِ للعاملينَ داخلَ مواقعِ عَمَلِهم، وفي ذلِك تَعميمٌ للتّعليمِ على الجَميعِ، وعدمُ اقتصارٍ على مبدأ الاصطفاء.

ثالثُها: استغلالُ التّقاناتِ التّربويّةِ الحَديثَة ووسائلِ الاتّصالِ والإعلامِ المتطوِّرَةِ، ومن شأن هذه الوَسائلِ أن تزوِّدَ المتعلّمَ بأدواتٍ قويّةٍ تُساعدُه على أن يكونَ مُعلّمَ نفسِه، مُحبّاً للعلمِ والتّعلُّم.

رابعُها: التّقويمُ المُستمرُّ للتّعليم، وذلك بتَجديدِ التّربيّةِ تجديداً يَستجيبُ لحاجاتِ نموِّ المتعلّم والمُجتمَعِ ومُستلزَماتِ التّنميةِ الشّاملةِ، وتَقْويمِ حصيلةِ التّجديدِ نفْسِه وقياسِ مَدى نَجاحِ العملِ التّربويّ.

خامسُها: المُعلّمُ محورُ التّجديدِ، تعقِدُ السّياساتُ التي ذُكِرَتْ آنفاً، أهمّيّةً قُصوى على قيمةِ المُعلّمِ ومَهامّه الوظيفيّةِ؛ لأنّه يتحوّلُ إلى مُرشدٍ إلى مَصادرِ المعرِفَةِ والتّعلّمِ، ومُصحّحٍ لأخطاءِ التّعلُّم ومقوِّمٍ لنتائجِ التّعلّم، وموجّهٍ إلى ما يُناسبُ قُدراتِ كلِّ متعلّمٍ.

سادسُها: إدارةُ تَطويرٍ لا إدارةُ تَسييرٍ، لا بدّ من إدارةٍ تربويّةٍ مُجدِّدةٍ وقادرةٍ على قيادَةِ عمليّةِ التّجديدِ. ويتطلّبُ ذلكَ اعْتمادَ سياسَةِ «عدَمِ المركزيّة» في الإدارةِ، وإخْراجِها من مَركزيّتِها المُفرطَةِ وذلكَ بتوسيعِ سُلطاتِ الإدارةِ في المَناطقِ، وفَسْحِ قدرٍ واسعٍ من الحرّيّةِ التربويّةِ للإدارةِ، وإطْلاعِها دَوْماً على جَديدِ التّربيَةِ، والعنايَةِ بتَدريبِ الإدارةِ على الوَسائلِ المُناسبةِ لتنميةِ روحِ التّعاوُنِ والتّضامُنِ، وربْطِ التّعليمِ بالعملِ وبالمُجتمَعِ عموماً.

سابعُها: المُشاركَةُ المُؤثِّرةُ، لمُختلفِ الفئاتِ الاجتماعيّةِ في التّعليمِ، كَمُشاركَةِ الأُسَرِ والمُنظّماتِ غيرِ الحُكوميّةِ والقطاعِ الخاصِّ، في صنعِ السّياساتِ وفي التّمويلِ والإشْرافِ.

وعليْه، يَظلُّ النهوضُ بالتّعْليمِ في الوطَنِ العربيّ حلاًّ استراتيجياً؛ لأنّه إذا حُلّت مُعْضلَةُ التّعليمِ حُلّتْ مَعها كثيرٌ من المُعْضلاتِ الاجْتماعيّةِ والثّقافيّةِ والسّياسيّةِ والاقْتصاديّةِ، ويَزْدادُ حلُّ التّعليمِ أهمّيّةً إذا شُرِعَ فيه في إطارِ تَعاونٍ عَربيٍّ شاملٍ وسعيٍ دَؤوبٍ لبناءِ مُحيطٍ عَربيٍّ للتّعليمِ والبَحثِ العلميِّ يَحْمي المصالحَ الثّقافيّةَ والحَضاريّةَ والوَطنيةَ للأمّةِ العربيّةِ الإسْلاميّةِ، في

مُواجهة قُوى العَولمة، ويَضعُ ضَوابطَ للتَّعاوُنِ مع الخارجِ وضَوابِطَ لـدُخولِ مُؤسَّساتِ التَعليمِ العـالي الأجنبيةِ في مجالِ التَعليمِ العَربيِّ، وتحديدِ مَوقـفٍ عَربيٍّ مُشـتركٍ بشأنِ التّعامُلِ مَع القَضايا الرَّئيسَةِ التي لا يُمكنُ كُلّ قطـرٍ عَربي أن يُواجهَها منفرداً[1].

- من هجرَةِ الكَفاءاتِ إلى استِرْدادِها:

اتّخاذُ مُبادراتٍ وسياساتٍ تعليميّةٍ لاستقبالِ العُقولِ وإغنائهـا عـن الهجرَةِ، أو تَحويلِ اتّجاه الهجرَةِ باستثْمارِ عُقولِ أصحابِها:

أمّا الكَفـاءاتُ العـربيّةُ التي سَبَـقَ لَهـا أن استوطَنَـت ديـارَ الغربِ واتّخذَت المَهْجَرَ مُستقرّاً لَها، فمن المُمكنِ جذبُها بواسـطةِ عَقْـدِ مؤتمراتٍ ونـدواتٍ واستشاراتٍ، لإعادَةِ بناءِ الثّقـةِ وكَسْـبِ العُقـولِ المُهاجرةِ وتَحْويلِ البلادِ العربيّةِ من أماكنِ نبذٍ للكَفاءاتِ إلى أوطانٍ جاذبـةٍ مُستقطِبَةٍ لأبنائها.

ويستطيعُ أهلُ الحَلِّ والعَقْدِ وأصحابُ القَرارِ السياسيِّ في العالَمِ العربيِّ أن يعقدوا اتّفاقياتٍ مع منظّماتٍ دوليّةٍ وإقليميّةٍ، لبناءِ مَشاريعَ ومَراكزَ بحثيّةٍ أكاديميّةٍ، الغايةُ منها جذبُ العُقولِ المُهاجرةِ لتَولّي قيـادَةِ هـذه المَراكـزِ والإشرافِ عليْها حتّى تَصيرَ «مُولّداتٍ» لطاقةِ التنميـةِ الذّاتيّـةِ، وبـذلكَ

---

(١) للتوسُّعِ في هذا الموضوعِ يُطّلَعُ على كتاب د. محيا زيتون: التَّعليم في الوطَن العربيّ في ظلّ العَولَمَةِ وثقافةِ السّوق، ط١ (مَركَز دراساتِ الوَحدَةِ العربيّةِ، ٢٠٠٥م).

التّعاوُن تستَطيعُ الدّولُ العربيّةُ أن تستثمرَ عُقولَ أبنائها من المَهجَر، بل تتمكّنُ من ذلكَ أيضاً بوَسائط الاتّصالِ الرّقميّ مِن بَعيد[1]، هذا النّوع من الاتّصالِ الذي يَنفَعُ كثيراً مع المُهاجرينَ الذينَ حَصَلوا عَلى نَمَطٍ خاصٍّ من التّنشئة الاجْتماعيةِ هو النّمَطُ الغربيُّ، ونَوعٍ خاصٍّ من الانْدماج التّدريجيّ في مَراحلِ الجَذْبِ والاستقْطابِ الأولى في دِيارِ الغرب.

---

(١) في سياقِ إصلاحِ التعليمِ العالي واستِرْدادِ الكفاءات العربيّة المُهاجِرَة، ولو بالاتّصالِ بها وبالإفادَةِ منها من بَعيد، أقيمَتْ مُبادرةٌ دوليّةٌ لكَسْب الأدْمغــة تــربطُ الجامعــاتِ الإفريقيّةَ والعربيةَ بالمعارفِ العالمية، وفي هذا الشّأنِ عُقِدَ اتّفاقُ تَعاونٍ سَنَةَ ٢٠٠٣م بينَ مُنظّمَةِ الأمم المُتّحدَةِ للتّربيَةِ والعُلومِ والثّقافَةِ (اليونسكو) وبينَ شــركَةِ هيوليــت باكارْد (*HP*) لتطويرِ مَشاريعَ بواسطةِ استخدام تكنولوجيا مُبتكَرَة، وذلك بُغيَةَ كَــسْب الأدمغَةِ المُهاجرَةِ وخدْمتِها لبيئتِها ومُجتَمعاتِها، وبناءً على الاتّفاقِ ومَقاصــدِه العامّــةِ يستطيعُ كثيرٌ من العُلماءِ والباحثينَ، حيثُما وُجِدوا، أن يُسهموا بحظٍّ وافرٍ فــي تنميــةِ بلدانهم الأصلية، وإن لم يُريدوا أن يتنقّلوا، فقَد استطاعَت وسائلُ الاتّصالِ الرّقميّةُ أن تتحكّمَ في حركةِ اتّجاهِ الهجرَةِ وتُقلّلَ منْ عواقِبِها السّلبيّةِ ما دامَ الأصلُ هو الوُصــولَ إلى خبْراتِ أولئكَ المُهاجرين العَربِ للاستفادَةِ منهُم. وسَــيتمكّنُ الــشّبّانُ ذوو العلــمِ باستخدامِ الوَسائطِ الرّقميّةِ من أن يَستفيدوا من فُرَصِ الانتفاعِ منَ الفصولِ الدراســيةِ الافتراضيّةِ ومن المختَبَراتِ العلميّة، عن بُعد، ويتوصّلُ إلــى مُــساعدةِ الجامعــاتِ الصغيرةِ ذاتِ الميزانيات المنخفضةِ للحُصولِ على بنيةٍ رقميّةٍ أساسيةٍ تماثــلُ فــي جودتِها ما تحصلُ عليه الجامعاتُ الكبيرةُ ذاتُ الميزانياتِ المهمّة. ثُمّ شهدت الاتّفاقيّةُ المَذْكورَة، سَنَةَ ٢٠٠٩م توسيعاً لنطاقِ المبادرةِ المذكورَة، وذلك للمُساعَدةِ على إنشاءِ «بنيةٍ رقميّةٍ أساسٍ جامعيّةٍ مُستدامةٍ للعلوم» تجمعُ المؤسّساتِ التّعليميــةَ ومَراكــزَ البُحوثِ في إفريقيا والدّولِ العَربيّة، وتتيحُ لها مُتابعَةَ تنفيذِ مَشاريعَ تجديديّةٍ في مَجالِ التّعليم. انظرْ مَنشور منظّمَةِ اليونسكو:

- ***Brain Gain Initiative. A digital infrastructure linking African and Arab Region universities to global knowledge. A Unesco /HP project.* United Nations Educational; Scientific and Cultural Organization, Word Conference on Higher Education; 2009 HP. Printed in France**

مَصادرُ البحث ومَراجعُه

- إبراهيم سَعد الدّين: **اتّجاهات الرأي العامّ العربيّ نحو مسألة الوحدَة (دِراسَة مَيْدانيّة)**، مَنشورات مَركَز دراساتِ الوحدَة العربيّة، بيروت، ط.١، يوليو ١٩٨٠م.

- إبراهيم عيسى عُثمان: **مُقدّمة في علم الاجتماع**، دار الشّروق للنّشر والتّوزيع، الأردنّ، ط.١، ٢٠٠٩م.

- الأفغاني (جَمالُ الدّين): **الأمّةُ وسُلطَةُ الحاكمُ المُستبِدّ**، العُروَة الوُثْقى، جَمال الدّين الأفغاني ومحمّد عَبْدُه، الآثار الكاملَة (١)، إعداد وتَقْديم: سيّد هادي خسرو شاه، نَشْر دار الكِتاب العربيّ، بيروت، ط.٢، ١٩٨٠م.

- أنتوني غِدِنْز: **علم الاجتماع**، ترجمة فايز الصُيّاغ، نشر المنظّمَة العربيّة للتّرجمَة، بيروت، مؤسّسة تُرجمان، الأردن، وتَوزيع: مَركز دراسات الوحدَة العربيّة، بيروت، ط.١، أكتوبر: ٢٠٠٥م.

- باقِر سَلمان النّجّار: **حُلم الهِجْرَة للثّروَة**، مَركز دراسات الوحدَة العربيّة، بَيْروت، ٢٠٠١م.

- التّويجري (عبد العَزيز بن عُثمان): **التّعليمُ العربيّ: الواقــع والمُــسْتقْبَل**، المُنظَّمَة الإسلاميّة للتّربيّة والعُلوم والثّقافَة، الإيسيسكو، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة – إيسيسكو- ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- زيْتون (محيا): **التّعْليم في الوَطَن العربيّ في ظلّ العَوْلَمَة وثقافة الــسّوق**، مَرْكَز دِراساتِ الوَحْدَةِ العربيّة، ط.١، ٢٠٠٥م.
- عبد العَزيز بن عَبْد الله بــن طالــب: **الابْتعــاث إلى الخــارِج، أبْعــادٌ تنمويّة.تَجارِبُ دوليّةٌ.خطواتٌ عمليّة**، ط.٦، شَرِكَة مَكْتبَة العَبيْكان
- كَمال عبد اللّطيف: **المَعــرفيّ، الإيــديولوجيّ، الــشّبَكيّ، تَقاطُعــات ورِهانات**، مَنشورات المَركَز العربيّ للأبحاث ودراسَة الــسّياسات، ط. الدّار العربيّة للعلوم، ناشرون، ط.١، ٢٠١٢م
- الكَواكبيّ (عبدُ الرّحمن)، **طَبائع الاسْتبْداد ومَصارِع الاستعْباد**، تَقْــديم أحمد السّحمراني، دار النّفائس للطّباعــة والنّــشر والتوزيــع، ط.٣، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
- (ابن) منظور: **لسان العَرَب**، دار صادر، بيروت.
- تَقرير التّنمية البشريّة ٢٠٠٣، **نَحْو إقامَةِ مُجتَمَع المَعْرِفَة**، **نَشْر**: برنــامَج الأمم المتّحدَة الإنمائي، الصّندوق العَربيّ للإنماءِ الاقتصاديّ والاجتماعيّ، الطّبعَة العربيّة، المَطْبَعَة الوطنيّة، عَمّان، ٢٠٠٣م.

- تَقرير التّنمية البشريّة ٢٠٠٩، **التّغلّب على الحَواجِز: قابليّة التّنقّل البَشريّ والتّنمية**، نَشْر: برنامَج الأمم المتّحدَة الإنمائي، الطّبعَة العربيّة، مَركز مَعْلومات قُرّاء الشّرق الأوسَط، القاهِرَة، ٢٠٠٩م
- تَقرير التّنمية البشريّة ٢٠١١، **الاستدامَة والإنصاف: مُستقبَل أفضَل للجَميع**، **المُقدّمة**، نَشْر: برنامَج الأمم المتّحدَة الإنمائي، ٢٠١١م
- المنظّمةُ العربيّةُ للتربيةِ والعُلوم والثّقافةِ (اليونسكو): **الكتابُ الإحصائيّ السّنويّ**، ١٩٩٦-١٩٩٨

- Giddens (Anthony), Sociology. Polity Press in association with Blackwell Publishers Ltd; 4th edition, 2001
- Unesco, ***World Atlas, of Gender Equality in Education,*** Published in 2012 by Unesco, Paris, France 2012
- Unesco /HP, *Brain Gain Initiative, A digital infrastructure linking African and Arab Region universities to global knowledge, A Unesco /HP project.* **United Nations Educational; Scientific and Cultural Organization, Word Conference on Higher Education;** 2009 HP. Printed in France.

الأبعاد الاقتصادية في هجرة الكفاءات
أسبابها وآثارها

د. عبد الستار الهيتي

- المقدمة:

اقتضت الطبيعة البشرية منذ بدء الخليقة أن يستقر الإنسان مع مجموعة من بني جنسه في منطقة معينة من الأرض تتناسب مع إمكاناته وقدراته، ليتحول هذا التجمع البسيط مع مرور الأيام إلى مكون اجتماعي يمثل الوطن الأم لكل إنسان، يتواصل فيه مع الآخرين، وينصهر في بوتقة تكوينه الديني والثقافي والفكري، وكنتيجة طبيعية لذلك يتفاعل هذا المورد البشري مع الموارد الطبيعية المحيطة به والمتمثلة في الأرض والنبات والمعادن ليستغلها ويقوم باستثمارها وتعميرها، وهو الذي أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود:٦١)،

وبذلك يتم ارتباط الإنسان بالأرض لتكون وطناً له ينتمي إليها وينتسب إلى مجتمعها عرقاً وديناً وثقافة وانتماء.

ومع تزايد الحاجات وتعدد المتطلبات الحياتية وتجدد أنماطها ولدت لدى الإنسان الرغبة في الهجرة من موقع إلى موقع آخر، ومن بيئة اجتماعية إلى بيئة اجتماعية أخرى، طلباً للرزق ورغبة في التطوير، وطموحاً للوصول إلى الأفضل، بحيث مثلت تلك الهجرة ظاهرة فردية في بعض الأحيان، وظواهر جماعية في أحيان أخرى، عرفتها البشرية منذ تاريخها القديم، وتواصلت أشكالها مع تطور العصور والأزمان، وها هي اليوم تمثل إحدى ظواهر العصور الحديثة التي نعيشها، وستظل سارية مستمرة ما وجد الإنسان على هذه البسيطة باعتبارها سنة كونية من سنن التكامل البشري والسكاني، وقانوناً من قوانينه التي لا تتخلف مهما تغيرت الظروف وتعددت الدوافع.

نشير هنا إلى أن الهجرة من الأوطان الأصلية إلى الأوطان البديلة ليست في جميع حالتها وليدة الرغبة الذاتية للإنسان، وإنما هي في أغلب حالاتها تحمل معاني القسوة والاضطرار وتنشأ عنها آلام الفرقة والحنين من جهة ومشاكل الاغتراب من جهة أخرى، لكنها مع ذلك تعتبر أحد العوامل المهمة في التقدم الإنساني، وسبباً من أسباب التطور الحضاري بجميع مجالاته

العلمية والفنية والأدبية والفكرية، فمن خلالها يتم تلاقح الأفكار وتزاوج الطروحات، ونتيجة لها تتعدد الرؤى وتتفاعل الخبرات والتجارب، مما يعد سبباً أساسياً من أسباب النمو الحضاري للأمم والمجتمعات.

وبالعودة إلى المجتمعات العربية والإسلامية نجد أن للهجرة في التاريخ الإسلامي معاني خاصة ومفاهيم متميزة مرتبطة بالمفاهيم الشرعية والنصوص الدينية التي تحث على الهجرة، وتعتبرها صيغة من صيغ الدعوة ومنهجاً من مناهج تبليغ أحكامه وتوصيل تشريعاته إلى الناس كافة، عملاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ﴾ (النساء:٩٧)، وعلى هذا الأساس كانت هجرة النبي ﷺ وصحابته، رضوان الله عليهم، من مكة إلى المدينة فتحاً للدعوة ونصراً لمفاهيمها، وتوالت بعد ذلك هجرات المسلمين إلى كافة بقاع العالم لنشر الدين مما أسهم في إحداث تلاقح فكري وحضاري بينهم وبين الأمم الأخرى، بالإضافة إلى الآثار الاقتصادية المرتبطة فيها والتي أشار إليها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ١٠٠)، فهي في المفهوم الإسلامي دعوة إلى الله ونشر لدينه وأحكامه، وسعة في الرزق، وتواصل مع الخلق لغرض التعارف والتفاعل والبناء.

ومن خلال هذه المعطيات المتقدمة يتضح لنا أهمية بحث هذا الموضوع ودراسته للوقوف على الأبعاد المختلفة التي تحملها هجرة الكفاءات العربية والإسلامية من بلدانهم الأصلية إلى البلدان والدول الأخرى، وسنحاول هنا التركيز على البعد الاقتصادي لهجرة الكفاءات باعتباره واحداً من الأبعاد المهمة المرتبطة بالهجرة، ودافعاً من دوافعها الأساسية، وقد اقتضى ذلك أن توزع هذه الدراسة إلى المباحث التالية:

المبحث الأول: أسباب ودوافع هجرة الكفاءات العلمية:

المبحث الثاني: الآثار المترتبة على هجرة الكفاءات العلمية:

الخاتمة: النتائج والتوصيات:

أملي كبير أن أكون موفقاً في دراسة هذا الموضوع بما يتناسب مع أهميته وخطورته في حياة الأمة وتكوينها المعاصر.

المبحث الأول

أسباب ودوافع هجرة الكفاءات العلمية

يطلق مصطلح هجرة الكفاءات ويراد به: نزوح حملة الشهادات الجامعية العلمية والتقنية والفنية، كالأطباء والعلماء والمهندسين والتكنولوجيين والباحثين، ويشمل أيضاً علماء الاقتصاد والرياضيات والاجتماع وعلم النفس والتربية والتعليم والآداب والفنون والزراعة والكيمياء والجيولوجيا وجميع أصحاب المهارات والمواهب، مما يعني أن مفهوم الكفاءة لا يعني فقط أصحاب الشهادات الجامعية بل أيضاً أصحاب المؤهلات والخبرات على اختلاف أنواعها[1].

تعد مسألة هجرة العقول المتميزة من بلدانها الأصلية إلى بلدان المهجر ظاهرة عالمية وليست حالة مقصورة على العلماء العرب والمسلمين فقط، فهناك هجرة للعقول المتميزة من الهند وباكستان والصين واليابان والعديد من الدول النامية في كل من آسيا وأفريقيا، بحيث يكون اتجاهها بشكل ملحوظ إلى الدول الصناعية الكبرى مثل بريطانيا وفرنسا وألمانيا وبالأخص الولايات المتحدة الأمريكية.

---

(١) إلياس زين، هجرة الأدمغة العربية (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٢م) ص ١٣.

والمتابع لحياة الأمة خلال القرن الماضي «القرن العشرين» وبالذات خلال النصف الثاني منه يجد أنه قد شهد هجرة أعداد ليست بالقليلة من أبناء المسلمين إلى الدول الغربية تحت وطأة دوافع متعددة سياسية واقتصادية واجتماعية حتى وصل عدد المهاجرين من العرب والمسلمين إلى الملايين في كل من الولايات المتحدة الأمريكية والمنظومة الأوروبية الغربية عموماً، فقد أوضح تقرير منظمة الهجرة الدولية لعام ٢٠٠٥م أن حجم الهجرة الدولية بصفة عامة بلغ (٦٤,٦) مليون نسمة في عام ٢٠٠٠م[1]، وكان من بين تلك الملايين كفاءات وعقول آثرت أن تهاجر طلباً للرزق أو رغبة في التطوير أو فراراً من الواقع المرير.

هذه الأعداد الهائلة التي خرجت من العلماء والمفكرين العرب والمسلمين في مختلف تخصصاتهم، اتجهوا إلى بلاد الغرب بفعل النقلة الحضارية التي حصلت لتلك البلاد، حيث استقروا هناك للعمل والإقامة، فذهبوا يضيفون إلى تقدم الغرب تقدماً ورفاهية، تاركين مجتمعاتهم الأصلية وبلدانهم التي هي بأمس الحاجة إليهم، حتى ضاعت هوية بعض منهم، وأصبح من البديهي أن الأجيال التالية من أبنائهم وأحفادهم سوف يذوبون في تيار الحضارة الغربية الجارف.

---

(١) هجرة الكفاءات وأثرها على التنمية الاقتصادية، عدنان فرحان الجوارين، موقع الحوار المتمدن على الإنترنيت، العدد ٣٣٨٩، بتاريخ ٧ / ٦ / ٢٠٠١م
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=262278

وقد أثبت الواقع المعاصر أنه متى ما يتم اكتشاف كفاءة عربية أو مسلمة شاب أو فتاة في الجامعات والمراكز العلمية العربية والإسلامية، حتى يتم العمل على ابتعاثه إلى جامعة عالمية لتنمية إمكاناته العلمية والحصول على درجة علمية متقدمة، ومع مرور الأيام يزداد ارتباطه بواقعه الجديد أرض المهجر عندما يلحظ اهتماماً متزايداً بفكره وطروحاته حتى يتخذ قراره بعدم العودة إلى بلده الأصلي، ويفضل البقاء والاستمرار في المجتمع الغربي، الأمر الذي يفوت على الأمة فرصة الإفادة من إمكانية أبنائها وتطلعاتهم الفكرية والعلمية في خدمة مجتمعاتهم وبلدانهم الأصلية، وبذلك تقدم الأمة هدية مجانية للأمم الأخرى، وتساهم بقصد وبدون قصد في توسيع الفجوة العلمية بينها وبين الآخر.

- أرقام وإحصاءات مخيفة:

تعتبر ظاهرة هجرة الكفاءات من أهم العوامل المؤثرة على المجال الاقتصادي للبلدان الأصلية وعلى التركيبة السكانية والقوى البشرية لتلك الدول، خاصة بعد تزايد أعداد المهاجرين من الكوادر العلمية المتخصصة، مما أدى أن ينعكس ذلك سلباً على خطط التنمية العلمية والاقتصادية والاجتماعية في الوطن العربي[1]. وبالعودة إلى التقارير الصادرة من الجهات

---

(١) هجرة العقول العربية، خضير عباس النداوي، موقع منبر الكاتب العراقي على الانترنيت (مقالات وحوارات)٢/٢/ ٢٠٠٧م..
http://www.iraqiwriters.com/inp/view.asp?ID=67

المعنية بهذا الأمر يتضح لنا حجم الأرقام المذهلة والمخيفة المرتبطة بهجرة العقول والأدمغة العربية والمسلمة، فقد أشارت تقارير صادرة عن الجامعة العربية ومؤسسة العمل العربية ومنظمة الأمم المتحدة إلى أن المجتمعات العربية والإسلامية أصبحت بيئة طاردة للكفاءات العلمية، حيث تشير الدراسات المتخصصة إلى جملة من المعطيات مفادها أن ما يزيد عن «١٠٠,٠٠٠» مائة ألف من المختصين والمهنيين وعلى رأسهم العلماء والمهندسين والأطباء والخبراء يهاجرون كل عام من ثمانية أقطار عربية هي لبنان وسوريا والعراق والأردن ومصر وتونس والمغرب والجزائر، وأن ٧٠% من هؤلاء العلماء الذين يسافرون للدول الرأسمالية للتخصص لا يعودون إلى بلدانهم، وأن ٥٠% من الأطباء، و٢٣% من المهندسين، و١٥% من العلماء من مجموع الكفاءات العربية يهاجرون إلى أوروبا والولايات المتحدة الأميركية وكندا، إذ يساهم الوطن العربي في ثلث هجرة الكفاءات من البلدان النامية خاصة، وأن ٥٤% من الطلاب العرب الذين يدرسون في الخارج لا يعودون إلى بلدانهم، ونتيجة لذلك يشكل الأطباء العرب العاملون في بريطانيا نحو ٣٤% من مجموع الأطباء العاملين فيها[١].

وتشير تلك التقارير إلى أن مصر وحدها قدمت في السنوات الأخيرة ٦٠% من العلماء العرب والمهندسين إلى الدول الغربية في حين كان إسهام

---

(١) نفس المصدر السابق.

كل من العراق ولبنان ١٥%، وشهدت العراق ما بين (١٩٩١-١٩٩٨م) هجرة (٧٣٥٠) عالماً تركوا بلادهم نتيجة الأحداث السياسية والأمنية وبسبب الحصار الدولي الذي كان مفروضاً على العراق، وتشير هذه التقارير إلى عمل عدد كبير من العقول العربية في اختصاصات حساسة في بلاد الغرب مثل: الجراحات الدقيقة، والطب والهندسة النووية وعلوم الليزر، وعلوم الفضاء وغيرها من الاختصاصات عالية التقنية، وتشير دراسة أعدتها كلية الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة القاهرة إلى وجود (٤١٠٢) عالم إسلامي في مختلف علوم المعرفة في مؤسسات ومراكز أبحاث غربية[1].

وفي تقرير آخر أعدته الجامعة العربية بدعم من صندوق الأمم المتحدة للسكان في حزيران ٢٠٠٩م يتضح أن فرنسا تستقبل ٤٠% من العقول العربية المهاجرة، وأن أمريكا ٢٣%، وكندا ١٠%، وتشير دراسات أخرى للجامعة العربية أن الوطن العربي يُسهم بنحو ٣١% من الكفاءات والعقول المهاجرة من الدول النامية[2]، ويذكر التقرير أن الكفاءات العربية المهاجرة إلى دول منظمة التعاون الاقتصادي تفوق أعداد المهاجرين إليها من الصين والهند.

---

(١) محمد عبد الله المنصوري وعبد العالي بو حويش الدايخ، هجرة العقول العربية: أسبابها وآثارها الاقتصادية، جامعة عمر المختار، موقع مؤسسة الفكر العربي على الإنترنيت www.arabthought.org

(٢) الأدمغة العربية المهاجرة : خرج ولم يعد، نشرة أفق الإلكترونية الصادرة عن مؤسسة الفكر العربي، http://www.arabthought.org/

ويشير تقرير آخر حول العمالة العربية المهاجرة أعدته مؤسسة العمل العربية أن عدد حملة الشهادات العليا فقط من العرب المهاجرين إلى أمريكا وأوروبا يبلغ ٤٥٠ ألف عربي، ما يعني أن الولايات المتحدة ودول المنظمة الغربية الأوربية توفر مليارات الدولارات نتيجة هجرة الكفاءات والمهارات إليها، حيث لم تبذل تلك الدول أي تكلفة اقتصادية ومالية في تدريب وتعليم تلك العقول والكفاءات، في الوقت الذي تتحمل الدول الأصلية كلفة تنشئتها وتدريبها وتعليمها، ونتيجة لذلك يصب إنتاج هذه الكفاءات في خدمة البلدان المتقدمة وإثراء عمليات التطور ودفع مسيرة التقدم والتنمية فيها، في الوقت الذي تخسر الأوطان الأصلية ما تنفقه عليهم، وتخسر فرصة التقدم العلمي والتنمية الاقتصادية الموازية التي كان بالإمكان أن تسهم تلك الكفاءات والخبرات العلمية في إيجادها وتطويرها[1].

وذكر تقرير صادر عن برنامج التنمية التابع للأمم المتحدة أن الهند تخسر حوالي (٢) مليار دولار سنوياً نتيجة لهجرة المهنيين من ذوي الخبرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية[2].

نشير هنا إلى أن العقول والكفاءات الإسلامية تمثل أضخم هجرة قادمة من دول الجنوب إلى دول الشمال، فقد أثبتت الإحصاءات أنه في فرنسا

---

(١) العالم الإسلامي ونزيف الأدمغة، نايف كريم، موقع البلاغ على الإنترنيت (قضايا معاصرة) http://www.balagh.com/oldsite2/islam/6a0jz0pc.htm

(٢) هجرة العقول البشرية وأضرارها الاقتصادية، سمير فؤاد، الموقع العالمي للاقتصاد الإسلامي http://www.isegs.com/forum/showthread.php?t=795

مثلاً يشكل الطلبة المهاجرون من أصل بلدان المغرب العربي أكثر من نصف مجموع الطلبة الأجانب، وتستوعب مؤسسات الغرب البحثية حوالي ٧٠% من الباحثين ذوي الأصول الجنوبية[١].

ويتوقع أن يكون أغلب الباحثين الفيزيائيين والمهندسين المستقرين في ديار الغرب في المستقبل القريب من أصل مناطق الجنوب، وإن كان قد بدأ الاهتمام في السنوات الأخيرة يتجه نحو تشجيع تبادل الخبرات بين الدول الأوربية نفسها بعد دخولها تجربة وحدتها الاقتصادية والنقدية، وبعد التنسيق العلمي في مجال الدراسات الجامعية والمؤسسات التعليمية الأخرى، حيث يتم الآن الاستفادة من الخبرات والكفاءات العلمية القادمة من دول أوربا الشرقية بعد توسيع مجموعة الاتحاد الأوربي.

وإذا أردنا تحديد الأسباب والدوافع التي تقف وراء هجرة الكفاءات والخبرات فإن أغلب الدراسات التي اهتمت بهذا الموضوع تجمع على أن هذه الهجرة هي نتيجة لتشابك جملة من الأسباب والدوافع والعوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ولذلك سنقوم بتوزيع تلك الأسباب إلى أسباب اقتصادية، واجتماعية، وسياسية، وهو ما سنتعرض له بشيء من التفصيل في المحور التالي من هذه الدراسة.

---

(١) د. عبد المجيد النجار ود. محمد الغمقي ود. محمد المستيري، البعد الحضاري لهجرة الكفاءات، سلسلة كتاب الأمة، قطر، العدد ٨٩، جمادى الأولى ١٤٢٣هـ.

- الأسباب الاقتصادية لهجرة الكفاءات العلمية:

يمكن تحديد الأسباب الاقتصادية التي تقف وراء ظاهرة هجرة الكفاءات بما يلي:

١ - عدم توفر فرص العمل في البلدان الأصلية:

يرى كثير من الباحثين أن من أبرز الأسباب التي تدفع الكفاءات العلمية للهجرة من بلدانهم الأصلية عدم توفر فرص العمل المناسبة لهم ولمستواهم العلمي والمهني، وأن أكثر الذين يستجيبون للهجرة هم من فئة الشباب بسبب عدم توافر فرص عمل تناسب مستوياتهم العلمية وخبراتهم العملية، ذلك أن الدول التي تمثل بلاد المهجر لديها طلب متزايد للكفاءات والمتعلمين والمهرة في معظم التخصصات، وبالتالي تحدث هجرة العقول من الدول التي يرتفع فيها العرض إلى الدول التي يتزايد فيها الطلب، فالبطالة أو عدم توفر فرص العمل المناسبة في الدولة الأم هي التي تدفع بالعقول إلى الهجرة إلى الدول التي يزداد فيها الطلب عليهم، وتتوفر فيها فرص عمل وظروف حياة أفضل، كما أن تدني وهبوط معدلات الأجور لعمال الدول النامية تساهم في ازدياد حالات الهجرة من قبل الكفاءات المهنية والفنية[1]، وهو ما يتضح جلياً في السبب الثاني من أسباب الهجرة.

---

(١) محمد عبد العليم مرسي، كارثة العالم الإسلامي، مأساة النزيف البشري وهجرة العقول، ط١ (القاهرة: دار الصحوة للنشر، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م) ص٨٢-٨٥.

٢- تباين مستوى الدخل بين الوطن الأصلي ووطن المهجر:

فقد أثبت الواقع المعاصر انخفاض مستوى الدخل وتدني مستوى المعيشة في البلدان الأصلية، في مقابل ارتفاع مستوى الدخل وتوفير الحياة الرغيدة في بلدان المهجر، ففي الوقت الذي لا يتقاضى فيه العالم أو المفكر أو المهني سوى ما يسد به رمقه وبما لا يتجاوز حد الكفاف في بلده الأصلي، يجد نفسه في حالة من الرفاهية عند وصوله إلى بلد المهجر، ويشير أحد الكتاب من واقع الخبرة الشخصية التي عاشها فيقول: إن أحد الزملاء رجع من الولايات المتحدة الأمريكية إلى بلده الأصلي كطبيب جراح أعطي راتب ما يعادل (١٠) عشرة آلاف دولار أمريكي شهرياً وله (٤) أربع عيادات أسبوعياً، ولديه خمس أسرة للتنويم في جناح فيه (٢٥) خمسة وعشرون سريراً يتشارك فيه هو وزملاؤه من الجراحيين الآخرين، ويوم ونصف في الأسبوع للعمليات، وقد عمل في بلده الأصلي مدة سنة ونصف، ثم رجع للولايات المتحدة الأمريكية مره ثانية، فحصل على راتب بما يعادل (٤٠) أربعين ألف دولار معفي من الضرائب، وعلى سكن مناسب، وسيارة، ومدارس خاصة للأبناء، وتأمين صحي كامل، وتذاكر سفر سنوية درجة أولى لأي مكان في العالم، بالإضافة إلى قسم طبي كامل يحتوي على (٦٠) ستين سريراً يمكن له القيام بإجراء عملية في أي وقت يشاء، مع طاقم كامل للتمريض والرعاية الصحية[١]، مما يوضح الفرق الكبير بين الوفرة المالية بين البلد الأصلي وبلد المهجر.

---

(١) أوقفوا هجرة العقول المسلمة، منتديات طلاب الجامعة العربية المفتوحة على الإنترنيت، منتدى المواضيع العامة، http://www.aoua.com/vb/showthread.php?p=250795

٣- الإحباط العلمي والمهني للباحثين في مجالات البحث العلمي:

حيث أدى النقص الواضح في أدوات الدراسات الأكاديمية في الأوطان الأصلية للباحثين إلى الإحباط العلمي والمهني بسبب عدم توفر إمكانات وأدوات البحث العلمي المتمثلة في الكتب والمجلات العلمية المتخصصة، والمعدات والأجهزة، والوقت اللازم للبحث، والبنيان المؤسسي للبحث العلمي، والاتصال العلمي الدولي[1].

ويتمثل هذا الإحباط في تدني نسبة الإنفاق على البحث العلمي والدراسات الأكاديمية من الناتج القومي، مما يشكّل عقبة أمام العلماء والباحثين في إنتاجهم العلمي وفي سبل معاشهم ووضعهم المالي وعدم قدرتهم على نشر أبحاثهم العلمية[2].

فقد ورد في دليل الأمم المتحدة للتنمية البشرية في الفترة من (١٩٩٦-٢٠٠٢م) أن ما ينفق على الباحث العربي سنوياً من الناتج القومي لا يتجاوز (٢٤) أربعة وعشرين دولاراً في حين يصل إلى (١٢٤) مائة وعشرين دولاراً في الدول الصناعية، ويشير نفس الدليل أن الدول العربية تصرف أقل من ٠,٠٣% من ناتجها القومي على البحث العلمي والتطوير الأكاديمي، في حين نجد أن العالم الغربي (أوروبا وأمريكا) قد صرفت خلال عام ١٩٩٦م

---

(١) هجرة الكفاءات من الوطن العربي في منظور استراتيجية لتطوير التعليم العالي، د.نادر فرجاني، موقع المشكاة للبحث على الانترنيت، http://www.mafhoum.com/press2/79S24.htm .

(٢) هجرة الأدمغة العربية بين الهدر والكسب، د. عبد المنعم عبد الرحمن محمد، موقع مؤسسة الفكر العربي على الإنترنيت www.arabthought.org

فقط ما يقارب (٤١٧) أربعمائة وسبعة عشر بليون دولار، وهو ما يتجاوز ٧٥% من الإنفاق المالي على البحث العلمي[1].

أما في مجال النشر العلمي فيشير التقرير أنه في الأعوام ما بين (٢٠٠٠-٢٠٠٥م) وصل عدد الأوراق المنشورة في دول العالم العربي ما يزيد قليلاً على (١٠,٠٠٠) عشرة آلاف ورقة بحثية سنوياً، بينما بلغ ذلك في إسرائيل وحدها (٦٧,٠٠٠) ورقة بحثية[2]، مما يشكل عامل إحباط للباحث العربي، ويدفع المفكرين والعلماء إلى البحث عن وطن بديل، في مقابل عوامل الجذب المغرية في بلاد المهجر الذي توفر له كافة الأدوات والمتطلبات لتحقيق طموحه العلمي، وتحسين وضعه المادي، واحترام ذاته وشخصه وعلمه.

ومن أشكال الإحباط النفسي والإداري أن يكون الأقل منه كفاءة وعلماً وخبرة هو المسؤول عن تسيير دفة العمل في المؤسسات التنموية والاستثمارية، وهو المسؤول عن برامج التخطيط في المراكز العلمية مثل الجامعات ومراكز الأبحاث وغيرها، الأمر الذي يجعل المسؤول غير المؤهل مدركاً للنقص الحقيقي في داخله، فيعتبر كل متميز وخبير عقبة في طريقه؛ لأن وجوده يظهر نقصه وخلله أمام الآخرين، فيلجأ إلى التخلص منه وإبعاده عن مصدر القرار، ولا يتيح له فرصة التخطيط أو التنفيذ، مما يحدث إحباطاً كبيراً في نفسيته ويجعله يفكر بجدية في ترك العمل والهجرة إلى بلاد المهجر.

---

(١) دليل التنمية البشرية في برنامج الأمم المتحدة ١٩٩٦ - ٢٠٠٢، عرض : فريال عثمان الفريح، معهد الأبحاث العلمية، الكويت، نشر سلسلة كتاب العربي، العدد٦٧، يناير٢٠٠٧م.

(٢) نفس المصدر.

٤- سيطرة النظام الاقتصادي الرأسمالي على جميع دول العالم:

ذلك أن المتابع للسياسات الاقتصادية العالمية يدرك ارتباط جميع دول العالم وبخاصة دول العالم الثالث والتي منها الدول العربية والإسلامية بمنظومة النظام الاقتصادي الرأسمالي(١)، حيث أدى هذا الارتباط بمركز النظام الرأسمالي العالمي في دول الغرب المصنعة إلى خلق علاقة تخلف وتبعية من قبل دول العالم الثالث للدول الصناعية المتقدمة، وفقاً لنظرية الأمة الغالبة والأمة المغلوبة، مما أدى إلى النظر إلى تلك الدول المتقدمة على أنها حلم كثير من أبناء الدول النامية، فهي تحمل مزايا فردية ضخمة للمهاجر، تجعله متميزاً عن أقرانه في وطنه الأصلي، خاصة في ظل التفكير الأناني الذي صنعته الحضارة المادية المعاصرة، والذي يدفع الفرد للسعي لتحقيق أعلى مستوى من الرفاه الخاص، بصرف النظر عن الرفاه الجمعي الذي يحقق المصلحة العامة للأمة.

ونتيجة لهذه السيطرة الرأسمالية على العالم في المجال الاقتصادي، فقد حصلت عمليات إغراء وسرقة متعمدة من قبل بعض المراكز المتخصصة في دول المهجر لاستقطاب خيرة الكفاءات العلمية في بلدان العالم الثالث، حيث أتاحت لها إمكانية الاندماج في النشاط العلمي والمهني القائم في الدول الغربية المصنعة، وقد قامت بهذه العمليات المشبوهة بعض الشركات متعددة الجنسيات وعابرة القارات التي تشكل القطب الرئيس لنظام العولمة.

---

(١) د. نادر فرجاني، هجرة الكفاءات من الوطن العربي في منظور استراتيجية لتطوير التعليم العالي، موقع المشكاة للبحث على الانترنيت، http://www.mafhoum.com/press2/79S24.htm

- الأسباب الاجتماعية لهجرة الكفاءات:

يمكن تحديد أبرز الأسباب الاجتماعية التي تدفع الكفـــاءات العلميـــة للهجرة من بلدالها الأصلية والاستقرار في بلد المهجر بما يلي:

١- انتشار الأمية العلمية:

حيث يعاني العلماء والمفكرون في العالم الثالث من انتشار الأمية العلمية بين المجتمعات التي يعيشون فيها، المتمثلة في عدم تقدير الكفاءات العلمية وعدم الاهتمام بأصحابها، اللهم إلا من دخل منهم ميدان السياسة أو المال، الأمـــر الذي جعلهم يشعرون بالغربة وهم في أوطالهم في الوقت الـــذي يـــرون أن المجتمعات الغربية تعنى بالكفاءات العلمية وتهتم بشأنها، سواء كان ذلك على مستوى المجتمع أو الدولة، حيث يتم تخصيص المكافاءات المجزية لهم، ويـــتم التركيز عليهم إعلامياً واجتماعياً، وبهذا يكون مركز القرار السياسي في أعلى هرم الدولة معتمداً على البحث العلمي ورأي المختصين فيه، بحيث يكـــون للكفاءات العلمية دور أساسي في صنع القرار واتخاذه، وهو ما ليس متوفراً في البلدان الأصلية التي يهاجر منها الخبراء والمفكرون من الكفاءات العلمية.

٢- ضعف الانتماء الوطني:

ويتمثل ذلك في ضعف انتماء الكفاءات العلمية لحضارة بلد الأصـــل بسبب تأثير الحضارة الغربية السائدة التي يعيشون في ظلالها، وربمـــا يكـــون سبب ضعف علاقات الانتماء إلى بلد الأصل عائداً إلى الضغوط التي يتعرض

لها أصحاب الكفاءات العلمية بسبب انتمائهم إلى أقليات دينية أو مذهبية أو عرقية، مما يؤثر سلباً على تماسك العلاقات الاجتماعية في البلدان الأصلية، فيدفعهم ذلك إلى التفكير بالهجرة.

٣- الزواج من بلاد المهجر:

حيث يعمل الارتباط الأسري الذي يتم بين بعض طلاب البعثات الدراسية القادمة من بلدان العالم الثالث وبين فتيات من أبناء المجتمعات في بلاد المهجر إلى الاستقرار مع الزوجة في بلدها الأصلي، وعدم التفكير في العودة إلى البلدان الأصلية، الأمر الذي يؤدي إلى خسارة الوطن الأصلي للمبتعث إلى جهوده وإمكاناته العلمية[١].

فقد تزايدت في الآونة الأخيرة ظاهرة الزواج من الأجنبيات بين فئات الدارسين والمبتعثين في الدول الغربية، حيث يجد الشباب أن هذا الزواج سيؤدي إلى تحقيق الاستقرار المالي والنفسي، وإلى التعرف على الثقافات والعادات الأخرى، وإلى تحسين الدخل المادي، وسيكون عاملاً مساعداً في إنجاز مهمته العلمية التي قدم من أجلها. لكن هذه الإيجابيات تتلاشى في ظل سلبيات كثيرة تتمثل في ابتعاد الفرد عن موطنه الأصلي، وإلى هجرة العقول والأيدي الماهرة المدربة، بفعل اندماجه في مجتمع بلاد المهجر، وعدم التفكير في العودة إلى بلده الأصلي.

---

(١) محمد عبد العليم مرسي، كارثة العالم الإسلامي، مأساة النزيف البشري وهجرة العقول، ص١٠٠-١٠١.

- الأسباب السياسية لهجرة الكفاءات:

هناك جملة من الأسباب السياسية التي تدفع الكفاءات العلمية والمهنية والفنية إلى ترك البلد الأصلي والانتقال إلى بلد المهجر، وأبرز تلك الأسباب السياسية ما يلي[1]:

١- القمع والاستبداد السياسي:

يمثل الاضطهاد السياسي القائم على خلفيات ثقافية أو عرقية أو حزبية أو فئوية، وكذلك كبت الحريات الفكرية من أبرز الأسباب الرئيسة لهجرة الكفاءات العلمية، فكثير من الحركات التحررية والوطنية لم تتح لها الفرصة في أن تمارس نشاطها في البلاد الأصلية، و لم تستطع إثبات وجودها وتفعيل قدراتها إلا بعد الهجرة، ذلك أن القمع والاستبداد السياسي الذي تمارسه بعض أنظمة الحكم في البلدان النامية وانعدام الحقوق السياسية للمواطن، كلها كانت عوامل تشجع الهجرة وتدفع إليها، فالواقع يثبت أن الكثير من الكفاءات العربية هاجرت بسبب عدم انسجامها وتوافقها مع المناهج التي تتخذها أنظمة الحكم للإمساك بدفة الحكم.

إن عدم الاستقرار السياسي في العديد من الدول العربية والإسلامية، ابتداء من الاضطهاد وانعدام الحقوق السياسية، ومروراً بالاعتقال دون قوانين واضحة وكبت الحريات، وختاماً بالتصفيات الجسدية جعلت المواطن في تلك الدول وخاصة صاحب الكفاءة العلمية يفكر في الهجرة ويسعى إليها للتخلص من هذا الكبت والاضطهاد.

---

(١) نفس المصدر السابق، ص ٧٦-٨١ .

والمتابع لطبيعة وأوضاع المهاجرين يجد أن أكثر العلماء المهاجرين ينتمون إلى دول غير مستقرة سياسياً بسبب وجود نزاعات عرقية أو طائفية أو مذهبية، أو بسبب عدم التوافق إيديولوجياً مع النظام القائم في بلده مما يدفعه إلى البحث عن وطن يهاجر إليه[1].

٢- المحسوبية في تبوء المناصب:

تعتبر المحسوبية أسوأ وأخطر أنواع الفساد الإداري والسياسي، لأنها تعني محاباة شخص أو جهة ما على شخص أو جهة أخرى في تقديم فائدة معينة كان من الأولى أن تذهب إلى من هو أحق بها من الباقين، وكان أبرز معالمها القيام بإسناد الوظائف المرموقة لأبناء الشخصيات المعروفة أو لأصحاب انتماءات معينة، وينتج عن ذلك عدم وضع الشخص المناسب في المكان المناسب، الأمر الذي يؤدي في أغلب الأحيان إلى استبعاد الكفاءات العلمية والمهنية من مركز القرار الإداري أو السياسي، وهذا يعني أنه لم يعد التعليم والشهادة والكفاءة هي التي تحكم آلية الاختيار والتنافس، وإنما يتم ذلك عن طريق العلاقات والارتباطات الاجتماعية والفئوية.

وبهذا تكون المحسوبية مرض خطير ينهش الوطن، ويضيع ثرواته ويبدد أمواله، ويقتل روح المنافسة، ويؤدي إلى عدم تحمل المسؤولية.

---

(١) لمزيد من التفصيل ينظر: تقرير مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، موقع الجزيرة نت على الإنترنيت-الأخبار http://www.aljazeera.net/news/pages

وبناء على ذلك يربط كثير من الباحثين بين انتشار قيم الفساد وعدم الكفاءة، وانتشار ظاهرة المحسوبية والمحاباة، وبين هجرة الكفاءات العلمية والفنية، لأن تلك الكفاءات لا تتمكن من تبوء المناصب القيادية في الجوانب الإدارية أو السياسية بسبب عدم توفر المحسوبية والمحاباة لديهم، الأمر الذي يضطرهم إلى ترك أوطانهم الأصلية والانتقال إلى بلاد المهجر.

وقد لعبت المحسوبية دوراً حاسماً في التقدم الوظيفي في المجتمعات العربية، أما التقدم العلمي فهو أمر هامشي بالمقارنة بالمحسوبية التي أوجدت نوعاً من عدم التوازن الاجتماعي في المجتمع، ولذلك فإن عدم تحقيق العدالة الاجتماعية بالصورة المطلوبة دفع بالكفاءات العلمية للبحث عن دور لها في بلاد المهجر، مما جعلها تتجه نحو العالم الخارجي المتقدم باحثة لها عن مكان لم تجده في مجتمعاتها.

٣- الاستقطاب الطائفي والتوظيف السياسي:

الطائفية نهج سياسي يقصد به توظيف المذهب أو العرق أو الجنس لهدف سياسي ومطمع شخصي، وهي بالنتيجة حالة انتهاز سياسي من قبل ساسة وأطراف بعينها تريد أن تصبغ أطماعها السياسية بالدفاع عن حقوق الطائفة أو العرق أو الملة أو اللغة واللسان[1]، وبذلك تكون الطائفية حالة

---

(١) الطائفية في الدولة والمجتمع، برهان غليون، موقع الحوار المتمدن على الإنترنيت، العدد: (١٦٤٩)، ٢٠٠٦/٨/٢١م..
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=73336

من الانكفاء على الذات والاعتداد بها تهدف إلى الاستحواذ على كل شيء وإقصاء الآخرين وتهميشهم ورفض التعايش معهم، بناء على اعتبارات دينية أو مذهبية أو سياسية.

هذا الاستقطاب الطائفي إنما هو عامل من عوامل هدم العلاقة مع الآخرين، وتقويض لعرى التواصل والتكامل بين بني البشر، وينتج عنه بروز الطائفية السياسية التي تأخذ شكل التعصب وعدم الاعتراف بالآخر ومحاولة إقصائه وتهميشه من قبل أشخاص وأطراف همهم الوحيد تحقيق مكاسب شخصية أو فئوية على حساب المكونات الأخرى للمجتمع.

ومن أبرز سلبيات هذا الاستقطاب الطائفي الفشل في بناء الأمة وإدارة الدولة، فقد أثبتت الأحداث التي تعيشها بعض بلدان العالم الإسلامي أن انتشار داء الطائفية يعد أكبر عائق في بناء الدولة وتنظيم أعمالها، بسبب الاستقطاب الطائفي والبحث عن مصلحة الفئة قبل مصلحة الأمة، ذلك أنه غالباً ما يتم استغلال الطائفية سياسياً، فيؤدي ذلك إلى عدم استقرار وأمن المجتمع، في حين أن الأمة بحاجة إلى دولة يشعر فيها الجميع بأنهم مواطنون، ولا يشعرون بأنهم أتباع مذاهب أو طوائف أو أي انتماء آخر.

وقد أثبتت التجارب التي تمر بها بعض المجتمعات المعاصرة فشل النظام الطائفي في إقامة دولة حديثة، ففي لبنان تم اعتماد كيان سياسي يعتمد المحاصصة بين الطوائف والأديان فغابت لديهم الهوية الوطنية، وسعت كل فرقة ومذهب إلى زيادة غلتها من الغنائم والمكاسب لأتباعها وليس لعموم المواطنين.

- عوامل الجذب للكفاءات العلمية:

وبعد هذا التفصيل في ذكر أسباب هجرة الكفاءات العلمية موزعة على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، نشير هنا إلى أن هناك حوافز وعوامل جذب لهجرة العقول والخبرات العلمية إلى بلاد المهجر، يمكن إجمالها بما يلي:

١- ارتفاع مستويات الأجور في بلاد المهجر، لتحقيق مستوى معيشي لائق ومقبول لها ولأسرها.

٢- اعتماد التقدم العلمي هو المعيار الأساسي للتوظيف والمنافسة.

٣ - الاهتمام بتطوير التعليم والبحث العلمي ومنح الحوافز الكافية للبحث والتطوير، من خلال وجود أنظمة تعليمية حديثة ومتطورة تفتقدها الأوطان الأصلية.

٤- الاستقرار السياسي وحرية الفكر والبحث وممارسة المهنة، بما يوفر المناخ الملائم للبحث العلمي والدراسة الأكاديمية المتخصصة، وتوافر ما يحتاجه الباحث من الاستقرار والأجواء العلمية المواتية.

٥- التشجيع الذي تمنحه الدول المتقدمة لجذب الكفاءات إليها من توفير الموارد المالية الضخمة التي تمكنها من توفير فرص عمل مجزية.

المبحث الثاني

الآثار المترتبة على هجرة الكفاءات العلمية

تختلف آراء الباحثين حول آثار ونتائج هجرة الكفاءات العلمية، فهناك من يرى فيها ثماراً إيجابية للدول الأصلية المصدرة، وهناك من يرى أنها تحمل نتائج إيجابية للشخص نفسه من خلال كونها حقاً إنسانياً للعالم والباحث، وأنها تعمل على تحقيق المشاركة في إنتاج المعرفة الإنسانية وتطويرها باعتبار أن العلم لا وطن له ولا جنس ولا عرق، وهناك من يرى أن هجرة العقول استنزاف لموارد التنمية للدول الأصلية، مما ينتج عنها آثار سلبية كثيرة، وبين هذا وذاك طروحات وآراء متعددة تختلف في تحديد إيجابيات وسلبيات تلك الهجرات إلى دول العالم المختلفة.

ونحن نرى أن كل عمل أو خطوة يقدم عليها الناس في هذا الكون يمكن أن تحمل قدراً معيناً من الإيجابيات، ويمكن أن تحوي قدراً من السلبيات، فليس هناك في هذا الكون شر محض ولا خير محض، ولذلك سنحاول في هذا المبحث تسليط الضوء على الآثار الإيجابية التي يمكن أن تحققها هجرة الكفاءات العلمية على دول المصدر وعلى دول المهجر، حيث أن لهذه الظاهرة نتائج إيجابية لعدة اعتبارات منها أن الكفاءات المهاجرة

تنتقل إلى مجتمع أكثر تقدماً يوفر لها ظروف عمل ومعيشة أفضل مما يؤدى إلى ارتفاع إنتاجها ويساهم في تطوير المعرفة والتقدم البشرى، علاوة على أن وجود العلماء العرب في الخارج يعد مكسباً علمياً وحضارياً، لأنه يفتح قنوات للأمة العربية والإسلامية كي تتقدم من الناحية العلمية والإدارية والتنفيذية، وسنحاول التركيز على أبرز الآثار المترتبة على هجرة الكفاءات العلمية، سواء كانت إيجابية أو سلبية بقدر تعلق الأمر بموضوع البحث.

- الآثار الإيجابية لهجرة الكفاءات العلمية:

مع بروز ظاهرة العولمة وانتشار ثورة المعلومات، حيث أصبح العالم كله قرية واحدة نتيجة للتطور الهائل في وسائل الاتصال، وحيث تميزت السنوات الأخيرة باختزال الزمن وتقارب المسافات، فإنه يمكن النظر إلى هجرة الكفاءات العلمية نظرة موضوعية تختلف عن النظرة التقليدية لها، فهي تحمل اليوم بعضاً من الجوانب الإيجابية و لم تعد جميع جوانبها سلبية ومؤذية، خاصة بعدما أصبح الناس وكأنهم يعيشون في غرفة واحدة، حتى وإن تباعدت ديارهم ومؤسساتهم ومراكزهم العلمية، إذ لم يعد للتكدس السكاني أثر في تكامل المعلومة وتواصلها، حيث يمكن الإفادة من الخبرات العلمية والبحثية والمهنية في أي مكان بالعالم، دون الحاجة إلى الانتقال والهجرة وترك الأوطان.

وبناء على ذلك فإن هجرة الكفاءات العلمية رغم خطورتها على حاضر ومستقبل الأمم، فإنها لا تخلو من بعض الآثار الإيجابية، ومن أبرزها:

١- تنمية العنصر البشري علمياً ومهنياً:

ذلك أن هجرة الكفاءات العلمية تعمل على تفاعل العنصر البشري في البلاد الأصلية مع ما توصلت إليه الحضارة الغربية في بلاد المهجر من العلوم والتقنيات والاختراعات والنظم الإدارية المتطورة، وذلك عن طريق نقل هذه المكتسبات العلمية المتوفرة في بلاد المهجر من قبل المهاجرين إلى بلدانهم الأصلية، وتيسير سبل الاستفادة منها.

وقد أدى ذلك إلى تطوير وتنمية العنصر البشري في البلاد الأصلية، وإلى نشر المكاسب العلمية في أوساط المهتمين في البلاد الأصلية، وتيسير وصولها إليها عن طريق التأليف أو التعليم المباشر، أو من خلال مساعدة المؤسسات المختصة بأي وجه من وجوه المساعدة للحصول على برامج التطوير والتنمية.

ولعل أبرز الأمثلة على ذلك صناعة المعلوماتية والاتصالات في الهند، فقد أظهرت دراسة علمية أن أبناء الأقلية الهندية المهاجرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية يشاركون إلى حد كبير في بناء هذه الصناعة عالمياً، وأن هناك عشر شركات من بين العشرين شركة الأكثر تفوقاً في إعداد البرامج الإلكترونية عالمياً يديرها كفاءات هندية مهاجرة عادوا من الولايات المتحدة الأمريكية أو قاموا هم بتأسيسها[١].

---

(١) سلبيات وإيجابيات ظاهرة الهجرة، د. هانس فرنر موند، موقع قنطرة
http:// ar.qantara.de.

٢- التحويلات المالية من بلاد المهجر إلى الوطن الأصلي:

ذلك أن البلدان الأصلية تستفيد مالياً نتيجة عمل أبنائها من ذوي الكفاءات العلمية والمهنية في بلاد المهجر، مما يدفع باتجاه القيام بنشاطات تنموية واستثمارية في الوطن الأصلي، وقد أثبت تقرير البنك الدولي الصادر سنة٢٠٠٦م أن حوالي (٢٠٠) مائتي مليون شخص من الدول النامية يعيشون خارج أوطانهم الأصلية، وتبلغ تقديرات تحويلاتهم المالية إلى تلك الدول حوالي (٢٢٥) مائتين وخمسة وعشرين مليار دولار فقط لسنة ٢٠٠٥م[1]، مما يساهم في إحداث حركة استثمارية داخل الوطن الأم، خاصة إذا علمنا أن هذا الرقم أكثر بكثير من المساعدات الأجنبية التي تتلقاها الدول النامية.

وقد أوضح تقرير صادر عن بنك النقد الدولي بعنوان «تمويل التنمية العالمي» لعام ٢٠٠٣م «Finance Global Development» أن الحوالات المالية التي يحوّلها المهاجرون إلى ذويهم من دخل متلقيها ومن احتياطي العملات الأجنبية في البلد المتلقي في زيادة مطردة، وإذا ما استثمرت هذه الأموال بالشكل الصحيح فإنها ستساهم في رفع القدرات الاقتصادية لتلك البلدان، أما إذا استهلكت استهلاكاً خدمياً فإنها ستحدث تأثيرات سلبية مضاعفة، في الوقت الذي اعتبرت فيه مجلة «نيوزويك» الأمريكية في عددها الصادر بتاريخ ١٩ يناير ٢٠٠٤م أن الحوالات المالية

---

(١) تقرير البنك الدولي لسنة ٢٠٠٦م ، الدلالات الاقتصادية للتحويلات المالية والهجرة.

التي يحوّلها المهاجرون إلى ذويهم تعد شكلاً جديداً لمساعدة خارجية لتلك الدول التي يتم التحويل إليها[1].

ومن نتائج هذه التحويلات المالية المساهمة في تقليل حالات الفقر في الأوطان الأصلية للمهاجرين، ذلك أن التحويلات التي تتلقاها الأسر من أبنائها المهاجرين تعمل على تخفيض عمالة الأطفال وتقلل من حالات استغلالهم، وتؤدي إلى زيادة التحاقهم ببرامج التعليم والتدريب، كما أن تلك التحويلات تؤدي إلى زيادة المشاريع الاستثمارية باستخدام رؤوس الأموال القادمة من تحويلات الكفاءات المهاجرة، حيث يشير تقرير الأمم المتحدة أن هذه التحويلات ستتزايد خلال السنوات القادمة، إذ يتوقع أن تصل بحلول عام ٢٠٢٥م إلى (٣٥٦) ثلاثمائة وستة وخمسين مليار دولار، مما يعتبر مكسباً لا يستهان به للدول الأصلية للمهاجرين، كما يتوقع أن يتم إنفاقها في مجالات تنموية مختلفة كالصحة والتعليم والخدمات التنموية الأخرى[2]، ومما لاشك فيه فإن هذه التحويلات المالية تشكل مصدراً مهماً للعملات الصعبة، وتنعكس آثارها على الاقتصاد المحلي للبلدان الأصلية[3].

---

(١) د. هانس فرنر موند، سلبيات وإيجابيات ظاهرة الهجرة، موقع قنطرة
http:// ar.qantara.de.

(٢) هجرة العقول البشرية وأضرارها الاقتصادية، سمير فؤاد، الموقع العالمي للاقتصاد الإسلامي http://www.isegs.com/forum/showthread.php?t=795

(٣) الآثار الاقتصادية والاجتماعية للهجرة الدولية، محمد عبد الهادي العكل، بحث ضمن أعمال الندوة حول الآثار الديمغرافية والاجتماعية والاقتصادية للهجرة الدولية للوطن العربي، عمان- الأردن، ديسمبر ١٩٨٩م، ص٥٠٥-٥٠٧.

٣- المساهمة في الحد من مشكلة البطالة:

تساهم هجرة الكفاءات العلمية والمهنية في الحد من مشكلة البطالة في الدول الأصلية، ذلك أن تلك الدول النامية غالباً ما تعاني من ارتفاع معدلات النمو السكاني وانخفاض معدلات النمو الاقتصادي، لذلك تكون الهجرة واحدة من الأسباب التي تعمل على حل ولو مؤقت وجزئي لهذه الظاهرة الخطيرة في مجتمعات الدول النامية.

٤- المساهمة في التقدم الصناعي والتكنولوجي:

فقد ساهمت الكفاءات العلمية والمهنية إسهاماً فاعلاً في التقدم الصناعي والتكونولوجي العالمي، وعملت على تسريع حركة التنمية الشاملة في بلاد المهجر وعلى المستوى العالمي أيضاً، ولعل أكبر دليل على ذلك حصول بعض العلماء المهاجرين ممن يتمتعون بالكفاءة العلمية على جوائز عالمية متخصصة، ومنها جائزة نوبل، في تخصصاتهم الدقيقة، ونذكر منهم على سبيل المثال الدكتور أحمد زويل الحاصل على جائزة نوبل في الكيمياء لعام ١٩٩٩م لإنجازاته العلمية الهائلة في دراسة ذرات المواد المختلفة.

٥- تحقيق التفاعل الحضاري:

تؤدي هجرة الكفاءات إلى الانفتاح على (الآخر) والتواصل معه، وكذلك التفاعل الحضاري بين الأمم، إذ يتم الإفادة من الناتج العلمي والتقني للأمم والحضارات الأخرى بسهولة ويسر، حيث يتم من خلالها

استيعاب ما لدى الحضارة الغربية من معارف علمية ومكاسب من منابعها خاصة وأن الفئة المهاجرة تحمل عقولاً ناضجة ووعياً علمياً متميزاً، وهي بذلك تستطيع فرز الأوراق بدقة وغربلة المعارف المكتسبة من الغرب، وتوظيفها توظيفاً يتلائم مع عقيدة وقيم الأمة العربية والإسلامية، والبعد عما يتنافى مع تلك العقيدة والقيم فيما يتعلق بالعلوم الإنسانية من سياسة واقتصاد واجتماع، وقد قامت المراكز الفكرية الإسلامية الموجودة في بلاد المهجر بهذا الدور التمحيصي لتقديم المعلومة وبما يتفق مع ثقافة الأمة وطروحاتها الفكرية.

وقد أدى ذلك إلى تحقيق تقارب ثقافي وحوار حضاري بين العالمين الإسلامي والغربي، حيث مثلت الطليعة المسلمة من المثقفين والخبراء جسر علاقة بين الثقافتين والحضارتين، وكان ذلك الخطوة الأولي في حراك التصالح والتفاعل بينهما، والعامل الأساسي في نزع فتيل الصراع الحضاري، ونقله إلى صيغة من صيغ التحاور والتفاعل، الأمر الذي أدى إلى تقديم رسالة الإسلام الإنسانية العالمية بصورتها السمحة ودخولها إلى عمق المجتمعات الغربية، وتقليص أسباب التوتر وسوء التفاهم بين العالم الإسلامي والغربي.

ومن خلال هذه النتائج الإيجابية للهجرة فإنه يمكن القول: إن بإمكان البلدان الأصلية للمهاجرين أن تفيد من هذا الرصيد المهاجر من الكفاءات العلمية عن طريق الارتقاء بالواقع العربي والإسلامي على جميع المستويات، باعتبار أن الخبراء والعلماء ومواقعهم العلمية ومراكزهم البحثية التي ينتسبون

إليها يمكن أن تكون ميادين خبرة ودراية وتخصص تصب نتائجها في العــالم الإسلامي وتساهم بنهضته، وتعمل على مد أوطانهم الأصلية بمقومات تلك النهضة العلمية، ونقل المعارف والتقنيات الفنية والمهنية إلى بلدانهم، لتمكينها من تحقيق حضور علمي وعملي واستشاري في مجتمعها وبين أبنائها.

- الآثار السلبية لهجرة الكفاءات العلمية:

رغم ما ينتج عن هجرة الكفاءات العلمية من بعض الآثــار الإيجابيــة للبلدان الأصلية أو لبلد المهجــر، في كونها توفر ظروف عمــل ومعيــشة أفضل للمهاجرين، مما يؤدى إلى أن ترتفع إنتاجيتها وأن تساهم بدرجة أكبر في الناتج الاقتصادي العــام، باعتبار ذلك معيناً عاماً تــشترك فيــه كــل البشرية، سواء منها البلــدان الأصلية أم بلد المهجر، فإن تلك الهجرة تعــد نزيفاً لمورد حيوي يؤدي إلى إضعاف فرص التنمية للبلدان الأصــلية مــن الناحية الاقتصادية.

إن من البديهي أن هجرة فرد يتمتــع بكفاءة علمية أو مهنية يــنجم عنها خسارة لبلده الأصــلي، تتمثل في التكلفة التاريخية والعلمية والماديــة التي تكبدها المجتمع في تكوين وتعليم هذا العالم والخبير، في مقابل حــصول بلد المهجر علي مكسب كبير يعادل التكلفة التي كان سيتكبدها لو كــان المهاجر إليه قد تكون أساساً داخل حدوده أو ضــمن مؤســساته العلميــة والمهنية، ولا شك أن هذه التــكلفة التاريخية والمادية ترتفــع كلمــا زادت درجة تأهيل المهاجر.

وبذلك تُفرز هجرة العقول والكفاءات العلمية إلى البلدان المتقدمة عدّة آثار سلبية على واقع التنمية في بلدانها الأصلية، بحيث تؤثر على واقع ومستقبل التنمية الاقتصادية والاجتماعية العربية، وتمتد كذلك إلى التعليم والتدريب، وبناء على ذلك فإن المخاطر المترتبة على هجرة العقول والكفاءات العلمية ذات تأثيرات مركبة، كونها تعد خسارة فادحة في ميادين عديدة، من أهمها:

١- استنزاف العقول المتميزة:

تمثل هجرة العقول العربية استنزافاً لشريحة متميزة ومؤثرة وفاعلة في المجتمع، خاصة في هذه الفترة الحرجة من تاريخ بلدانها، التي بدأت بتنفيذ خطط تنموية واسعة النطاق، فهي في هذه المرحلة بأمس الحاجة إلى الكفاءات العلمية والأيدي العاملة المدربة القادرة على النهوض بالأعباء الملقاة على عاتقها للوصول بمجتمعاتها إلى مستوى الطموح والتقدم العلمي والتطور المهني.

٢- خسارة في مجال التعليم:

تعتبر هجرة العقول والكفاءات العلمية خسارة للبلدان الأصلية في مجال التعليم في جميع مراحله، باعتبار أن تلك البلدان تعاني أصلاً من الأمية العلمية والتقنية، وأن هجرة الكفاءات العلمية يمثل أحد المعوقات الرئيسة أمام التنمية والتقدم العلمي، في عصر تمثل فيه الكفاءات العلمية والتقنية التي تتمتع بالمعرفة والخبرة المصدر الرئيس للقضاء على الأمية العلمية والنهوض بالأمة العربية والإسلامية لتكون منافسة لغيرها من الأمم.

٣- الخسائر الاقتصادية للبلدان الأصلية:

تؤدي هجرة الكفاءات العلمية إلى خسائر اقتصادية كبيرة للبلدان الأصلية، تتمثل في هدر الأموال الطائلة على الطلبة الذين نالوا هذه الكفاءات المتقدمة، حيث تتحمل دولهم، سواء أكان الطالب يدرس على حسابه الخاص أو على حساب حكومته، فإن رأس المال المصروف يمثل خسارة للاقتصاد الوطني، ذلك أن تعليم وتدريب العالم الواحد لا يقل بحدوده الدنيا عن (٥٠٠,٠٠٠) خمسمائة ألف دولار أمريكي[1]، بالإضافة إلى الخسارة الناتجة عن فقدان الدور التنموي لتلك الكفاءات العلمية في رفع المستوى الاقتصادي والاجتماعي والصحي في البلد الأصلي من خلال إنتاجاتهم العلمية.

٤- توسيع الهوة بين الدول الغنية والفقيرة:

تؤدي هجرة العقول العربية إلى توسيع الهوة بين الدول الغنية المتقدمة علمياً واقتصادياً وبين الدول الفقيرة التي تعاني من التخلف العلمي والاقتصادي، ذلك أن هجرة الأدمغة إلى الدول المتقدمة تعطي تلك الدول فوائد كبيرة ذات مردود اقتصادي مباشر، بينما تشكل بالمقابل خسارة مضاعفة للبلدان التي نزح منها أولئك العلماء، خاصة وأن التقنيات والاختراعات المتطورة التي يبدعها أو يسهم فيها العلماء

---

(١) هجرة الأدمغة العربية وأثرها على المجتمع العربي، موقع منتدى ستار تايمز على الإنترنيت، http://www.startimes.com/f.aspx?t=6051801.

المهاجرون تعتبر ملكاً خاصاً لدول المهجر الجاذبة لهم، في الوقت الـذي تحرم دولهم الأصلية من الاستفادة من إبداعاتهم الفكرية والعلمية في مختلف المجالات.

٥- تكريس فكرة التبعية للبلدان المتقدمة:

حيث تكرس ظاهرة هجرة الكفاءات العلمية فكرة التبعية للبلدان المتقدمة، وتبرز مظاهر التبعية في هذا المجال بالاعتماد على التكنولوجيا المستوردة، وكذلك من خلال تكريس التبعية الثقافية والاندماج في سياسات تعليمية غير متوافقة مع خطط التنمية من خلال تفضيل (الكم) على (النوع) في هذا الميدان[١]، مما يتسبب في اتساع الهوة العلمية بين مستويات تطور المجتمعات العربية بالمقارنة مع مجتمعات الدول المتقدمة.

٦- تبديد الموارد البشرية:

حيث تؤدي هذه الهجرة إلى تبديد الموارد البشرية وإهمالها، الأمر الذي يوصل إلى ضعف وتدهور الإنتاج العلمي والبحثي في البلدان الأصلية، بالمقارنة مع الإنتاج العلمي والبحثي في دول المهجر، مما يعني بالنتيجة ضياع الجهود والطاقات الإنتاجية والعلمية لهذه العقول، التي تصب في شرايين البلدان الغربية، بينما تحتاج التنمية الوطنية لمثل هذه العقول في مجالات الاقتصاد والتعليم والصحة والتخطيط والبحث العلمي في بلدانها الأصلية.

---

(١) الهجرة العلمية واستنزاف الكفاءات، محمد رياض، مجلة النبأ الإلكترونية، العدد ٥٧، صفر ١٤٢٢هـ/أيار ٢٠٠١م، موقع المجلة على الإنترنيت، http://annabaa.org/nba57/hijrailmia.htm.

- حجم الخسائر الاقتصادية لهجرة الكفاءات العلمية:

مما لاشك فيه أن خسارة القدرات البشرية المتخصصة تفقد البلدان الأصلية التي تصدر المهاجرين مورداً أساسياً متمثلاً بخسارة القواعـد العلميـة للبحـث العلمي والتقني، كما أنها تؤدي إلى تبديد الموارد المالية التي أنفقت على تكـوين تلك القدرات العلمية، فقد بلغت الخسائر التي مُنيت بها البلدان العربية من جراء هجرة الأدمغة العربية في عقد السبعينيات فقط (١١) أحد عشر مليـار دولار، فيما يقدّر الخبراء إجمالي الخسائر نتيجة هذه الظاهرة اليوم بـأكثر مـن (٢٠٠) مائتي مليار دولار[١]، كما تتحمل الدول العربية والإسلامية بـسبب الهجـرة خسارة مزدوجة، من خلال ضياع ما أنفقته من أموال وجهود في تعليم وإعداد وتدريب الكفاءات العربية المهاجرة من جهة، وكذلك مواجهة نقص الكفاءات أو بالأحرى سوء استغلالها والإفادة منها من جهة أخرى، حيث يتم اسـتقدام الكفاءات الغربية للتدريب والتأهيل بتكلفة كبيرة[٢].

لابد من الإشارة إلى أن مجمل هذه الخسائر الباهظة التي تتحملها الـدول العربية والإسلامية إنما تصب في خدمة دول المهجر، وأن المـستفيد الأول مـن ظاهرة هجرة العقول عالية التأهيل الدول الأوربية وأمريكيا وإسرائيل.

---

(١) العقول العربية المهاجرة: مكاسب قليلة وخسائر فادحة، حوار مع الخبير عبد السلام نوير، موقع سويس إنفوعلى الانترنيت:
http://www.swissinfo.ch/ara/detail/content.html?cid=301014

(٢) أحمد إبراهيم، العرب وهجرة العقول، مجلة الـوعي الإسـلامي، وزارة الأوقـاف والشؤون الإسلامية، الكويت، العدد (٥٣٢)، سبتمبر ٢٠١٠م.

- معالجة ظاهرة هجرة الكفاءات العلمية:

بعد أن حددنا أبرز الأسباب التي تدفع الكفاءات العلمية للهجرة وترك أوطانهم الأصلية في المبحث الأول من هذه الدراسة، وبعد أن ذكرنا الآثار الإيجابية والسلبية الناتجة عن الهجرة في هذا المبحث، نشير هنا إلى أبرز السبل والجهات التي يمكن من خلالها معالجة هذه الظاهرة للحد من هجرة العقول البشرية، حيث تأخذ تلك المعالجة وسائل متعددة، تقوم بها جهات متعددة ممثلة بالدولة في إطارها العام والمؤسسات الحكومية الخدمية، وكذلك الجامعات والمراكز العلمية، وبقية المنظمات المجتمعية، وفقاً للتفصيل التالي(١):

أولاً: دور الدولة في معالجة ظاهرة الهجرة:

إن بإمكان الدولة بإطارها العام السياسي والاقتصادي والخدمي أن تنهض بمهمة معالجة ظاهرة هجرة الكفاءات العلمية للحد من هجرة العقول والخبرات عن طريق جملة من الإجراءات والسياسات العليا تجاه تلك الكفاءات، منها:

١- تقديم برامج دقيقة متعلقة بسياسة التوظيف في مؤسسات الدولة، من حيث الأجور والمرتبات المجزية لتحقيق الكفاية الاقتصادية لتلك الكفاءات، وتوفير مستقبل آمن لهم ولأسرهم، ووضع برامج أخرى على مستوى الترويح والراحة والرفاهية، ليكونوا مطمئنين على مستقبل أبنائهم وليتفرغوا للإنتاج والإبداع العلمي والتقني.

---

(١) د. محمد عبد العليم مرسي، كارثة العالم الإسلامي (مأساة النزيف البشري وهجرة العقول) ص١٥٩وما بعدها.

٢- اختيار المكان المناسب للكفاءات العلمية، بما يتفق مع مؤهلاتهم وإمكاناتهم، وبما يتناسب مع تخصصاتهم وخبراتهم، بحيث يحقق لهم شعور الجدية بالعمل والاهتمام بالقدرات العلمية والفنية، الأمر الذي يؤدي إلى رفع كفاءة وقدرة الأشخاص بممارستهم لتخصصاتهم التي قضوا سنين طويلة في دراستها، كما أنه يحقق الفائدة المرجوة منه ويدفع العمل إلى الإمام للنهوض بالأمة والدولة على حد سواء.

٣- توفير المناخ السياسي الذي يمنحهم المشاركة الفعلية في اتخاذ القرار، ويتيح لهم حرية الفكر والرأي والتعبير، بما ينعكس إيجاباً على تقدم البحث العلمي وتشجيع الباحثين والكفاءات على خدمة المجتمع وتطوير أدواته العلمية.

٤- إتاحة الفرصة لأصحاب الكفاءات والخبرات العلمية والمهنية والفنية للمشاركة في قيادة أوطانهم، بما يحقق الفائدة على تلك المجتمعات وعلى العلماء أنفسهم الذي يشعرون أنهم جزء مهم في المجتمع وأن عليهم الإسهام في تطوير الأمة وتقدمها.

٥- اعتماد ميزانيات مجزية لمؤسسات البحث العلمي، لغرض النهوض بالجامعات والمراكز البحثية، وتقديم إغراءات مالية ومعنوية للكفاءات العلمية، من خلال منحها مناصب مرموقة وظيفياً واجتماعياً على مستوى البحث العلمي ومؤسسات الدولة الأخرى.

ثانياً: دور المؤسسات الحكومية والجامعات والمنظمات في معالجة هجرة الكفاءات:

وتشمل هذه المؤسسات قطاعات التربية والتعليم، وقطاعات الشباب والرياضة، وقطاعات الخدمة الاجتماعية، والتشغيل والقوى العاملة، ويمكن لهذه المؤسسات والقطاعات أن تساهم في معالجة ظاهرة الهجرة وفقاً لما يلي:

١- نشر ثقافة الولاء الوطني والابتعاد عن الولاءات الضيقة حزبياً أو عرقياً أو مذهبياً.

٢- احترام الحريات الأكاديمية وصيانتها وعدم تسييس التعليم، من خلال بناء المناخات العلمية لتشجيع المواهب المتميزة، وإعطاء أعضاء الهيئات الأكاديمية والعلمية حرية الوصول إلى مختلف علوم المعرفة والتطورات العلمية وتبادل المعلومات والأفكار.

٣- إعداد خطة منهجية لتطوير مناهج التعليم، بما يتناسب مع حاجة المجتمع المحلي للاختصاصات المختلفة وبالأعداد المطلوبة لتلبية تلك الاحتياجات، بحيث تكون مخرجات الأنظمة التعليمية متفقة مع الحاجة الفعلية للمجتمع.

٤- التركيز على طرح برامج الدراسات العليا في جميع التخصصات العلمية، وتوفير الإمكانات المادية والعلمية لتلك البرامج، وتحسين ظروف الباحثين، ودمجهم بمؤسسات الدولة الأخرى، لتقديم المشورة العلمية والمساهمة في حل المشاكل التي تعترض تلك المؤسسات.

٥- تفعيل دور الشباب في حرية إبداء آرائهم وأفكارهم من خلال المنتديات والمراكز الثقافية والشبابية والمؤسسات الحكومية والجامعات العلمية.

٦- تشجيع الشركات والمؤسسات الخاصة للمشاركة في تمويل البحوث العلمية والإفادة منها، عن طريق تحويلها إلى برامج تنفيذية ومخترعات صناعية.

٧- تطوير نظام الرواتب والأجور والمكافئات الخاصة بالمهنيين والفنيين من أصحاب الخبرة والكفاءة، وإعادة النظر في سلم رواتبـــهم وأجـــورهم، وتقديم حوافز مادية ترتبط بالبحث والنتاج العلمي، وخاصة فئة الـــشباب، حتى لا يضطروا إلى التفكير بالهجرة[١].

٨- توفير أدوات وأجهزة البحث العلمي من قبـــل الجامعـــات العلميـــة للباحثين، وتشجيعهم على نشر بحوثهم ودراساتهم في الدوريات والمجلات العالمية.

٩- عقد المؤتمرات والندوات وورش العمل العلمية التي لهـــا ارتبـــاط بالواقع الصناعي والاقتصادي والعلمي، ودعم العلماء والخبراء للمشاركة في هذه المؤتمرات، من أجل إحداث احتكاك علمي بين الخبرات المحلية والعالمية، وصولاً إلى الإبداع والابتكار.

١٠- وأخيراً: يمكن أن تشارك المجتمعات العربية والمسلمة ممثلة بمنظماتها المحلية في العمل على الحد من ظاهرة هجرة العقول والكفاءات العلمية، عن طريق توجيه رسائل ونداءات إلى المواهب الوطنية المهاجرة للعودة إلى الوطن الأم، والمساهمة في تنمية تلك الأوطان وتطورها وتقدمها، ويمكن أن يتم ذلك عن طريق ميثاق شرف مشترك يهدف إلى توظيف العقول والكفاءات العلمية وعدم إهمالها وتهميشها، وصولاً إلى وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، مع عدم التفريق بين أجور الخبراء المحليين من أبناء البلد وبين الخبراء الأجانب، مادامت المؤهلات متساوية والخبرات متوافقة.

---

(١) انطوان زحلان، الطبيعة الشاملة للتحدي الثقافي، مجلة المستقبل العربي، العـــدد(١)، كانون الثاني / يناير ٢٠٠١م، ص٥٧.

النتائج والتوصيات

وبعد هذا التطواف السريع مع الأبعاد الاقتصادية في هجرة الكفاءات العلمية، فقد توصلت الدراسة إلى جملة من النتائج والتوصيات، أهمها:

١- إن مجمل الإحصاءات التي تمت الإشارة إليها في هذه الدراسة تشير بعمومها إلى أن ٦٠% ممن درسوا في الولايات المتحدة خلال العقود الثلاثة الأخيرة لم يعودوا إلى بلادهم الأصلية، وأن ٥٠% ممن درسوا في فرنسا لم يعودوا إلى بلدانهم الأصلية، وأن ما يقرب من (٧٥٠) سبعمائة وخمسين ألف شخص من ذوي الكفاءات والخبرة العلمية قد هاجروا من البلدان النامية إلى البلدان المتقدمة في العقدين الماضيين فقط، ومن المتوقع أن تتزايد ظاهرة هجرة العقول إلى تلك الدول المتقدمة في المستقبل القريب، نتيجة لنظام العولمة والقوى المحركة لها، التي تريد أن تكرس العقول والكفاءات المبدعة في سوق عالمية واحدة.

٢- حددت الدراسة الدوافع الاقتصادية التي تقف وراء ظاهرة هجرة الكفاءات بعدة أسباب، أبرزها: عدم توفر فرص العمل المناسبة لهم ولمستواهم العلمي والمهني، وكذلك انخفاض مستوى الدخل وتدني مستوى المعيشة في البلدان الأصلية، في مقابل ارتفاع مستوى الدخل وتوفير الحياة الرغيدة في بلدان المهجر، ومن تلك الأسباب الإحباط العلمي والمهني للباحثين من أصحاب الكفاءات العلمية بسبب عدم توفر إمكانات وأدوات البحث العلمي من الكتب والمجلات والمعدات والأجهزة والبنيان المؤسسي للبحث العلمي،

وكذلك تدني نسبة الإنفاق على البحث والدراسات الأكاديمية من مجمل الناتج القومي، وأن من أشكال الإحباط النفسي أن يكون الأقل منه كفاءة وعلماً وخبرة هو المسؤول عن تسيير دفة العمل في المؤسسات التنموية والاستثمارية، وهو المسؤول عن برامج التخطيط في المراكز العلمية مثل الجامعات ومراكز الأبحاث وغيرها.

٣- إن ارتباط جميع دول العالم وبخاصة دول العالم الثالث والتي منها الدول العربية والإسلامية بمنظومة النظام الاقتصادي الرأسمالي أدى إلى خلق علاقة تخلف وتبعية من قبل دول العالم الثالث للدول الصناعية المتقدمة، حيث أصبح الوصول إلى الدول المتقدمة حلم كثير من أبناء الدول النامية، لما تحمله من مزايا فردية للمهاجر تجعله متميزاً عن أقرانه في وطنه الأصلي، ونتيجة لذلك حصلت عمليات إغراء وسرقة متعمدة من قبل بعض المراكز المتخصصة في دول المهجر لاستقطاب خبرة الكفاءات العلمية في بلدان العالم الثالث، ومنها العديد من الدول العربية والإسلامية.

٤- إن أبرز الأسباب الاجتماعية لهجرة الكفاءات العلمية هي انتشار الأمية العلمية بين المجتمعات التي يعيشون فيها، المتمثلة في عدم تقدير الكفاءات العلمية وعدم الاهتمام بأصحابها، الأمر الذي جعلهم يشعرون بالغربة وهم في أوطانهم، وكذلك ضعف الانتماء الوطني لحضارة البلد الأصلي بسبب تأثير الحضارة الغربية السائدة أو بسبب الضغوط التي يتعرضون لها عرقياً أو مذهبياً أو دينياً، مما يؤثر سلباً على تماسك العلاقات الاجتماعية في البلدان الأصلية، فيدفعهم ذلك إلى التفكير بالهجرة.

٥- حددت الدراسة بعض الأسباب السياسية لهجرة الكفاءات العلمية، من أبرزها القمع والاضطهاد وعدم الاستقرار السياسي، وكبت الحريات الفكرية، كما تعتبر المحسوبية أسوأ وأخطر أنواع الفساد الإداري والسياسي، الأمر الذي يؤدي إلى استبعاد الكفاءات العلمية والمهنية من مركز القرار، الأمر الذي يدفع تلك الكفاءات للبحث عن دور لها في بلاد المهجر، وقد كان الاستقطاب الطائفي والتوظيف السياسي له أحد الأسباب التي أدت إلى هجرة تلك الكفاءات، بسبب غياب الهوية الوطنية وبسبب سياسة الإقصاء والتهميش لأبناء المجتمع بناء على خلفيتهم المذهبية والطائفية، الأمر الذي دفع تلك الكفاءات إلى ترك الوطن الأصلي والبحث عن حياة جديدة في وطن المهجر.

٦- ترى الدراسة أن من المنطقي النظر إلى هجرة الكفاءات نظرة موضوعية، باعتبارها تحمل بعضاً من الجوانب الإيجابية و لم تعد جميع جوانبها سلبية ومؤذية، وبناء على ذلك فإن هجرة الكفاءات العلمية رغم خطورتها على حاضر ومستقبل الأمم، فإنها لا تخلو من بعض الآثار الإيجابية، منها تنمية العنصر البشري علمياً ومهنياً، والإفادة من عوائد التحويلات المالية من بلاد المهجر إلى الوطن الأصلي، والمساهمة في الحد من مشكلة البطالة، وكذلك المساهمة في التقدم الصناعي والتكنولوجي للبلد الأصلي، وتحقيق التفاعل الحضاري بين الأمم والحضارات، إذ يمكن للبلدان الأصلية أن تفيد من هذا الرصيد المهاجر من الكفاءات العلمية للارتقاء بواقع البلدان الأصلية، والإفادة من مواقعهم العلمية ومراكزهم البحثية، لتكون ميادين خبرة ودراية تصب نتائجها في العالم الإسلامي وتساهم بنهضته.

٧- من أبرز النتائج السلبية لهجرة الكفاءات العلمية أنها تمثل عملية استنزاف للعقول المتميزة، كما أنها تمثل خسارة في مجال التعليم، وخسائر اقتصادية فادحة للبلدان الأصلية، وتعمل على توسيع الهوة بين الدول الغنية والفقيرة، وتكريس فكرة التبعية للبلدان المتقدمة، وتبديد الموارد البشرية، الأمر الذي يوصل إلى ضعف وتدهور الإنتاج العلمي والبحثي في البلدان الأصلية، بالمقارنة مع الإنتاج العلمي والبحثي في دول المهجر، مما يعني بالنتيجة ضياع الجهود والطاقات الإنتاجية والعلمية لهذه العقول، التي تصب في شرايين البلدان الغربية، بينما تحتاج التنمية الوطنية لمثل هذه العقول في مجالات الاقتصاد والتعليم والصحة والتخطيط والبحث العلمي في بلدانها الأصلية.

٨- توصي الدراسة بالعمل على معالجة ظاهرة هجرة الكفاءات للحد من هجرة العقول البشرية، من خلال تقديم برامج دقيقة متعلقة بسياسة التوظيف في مؤسسات الدولة، من حيث الأجور والمرتبات المجزية لتحقيق الكفاية الاقتصادية، واختيار المكان المناسب لتلك الكفاءات العلمية، بما يتفق مع مؤهلاتهم وإمكاناتهم، وتوفير المناخ السياسي الذي يمنحهم المشاركة الفعلية في اتخاذ القرار، والعمل على نشر ثقافة الولاء الوطني والابتعاد عن الولاءات الضيقة حزبياً أو عرقياً أو مذهبياً، وإعداد خطة منهجية لتطوير مناهج التعليم، بما يتناسب مع حاجة المجتمع المحلي للاختصاصات المختلفة، وتفعيل دور الشباب في حرية إبداء آرائهم وأفكارهم من خلال المنتديات والمراكز الثقافية والشبابية، وتشجيع الشركات والمؤسسات الخاصة للمشاركة في تمويل البحوث العلمية والإفادة منها، وتوفير أدوات وأجهزة البحث العلمي من قبل الجامعات العلمية للباحثين، وعقد المؤتمرات والندوات وورش العمل

العلمية التي لها ارتباط بالواقع الصناعي والاقتصادي والعلمي، من أجل إحداث احتكاك علمي بين الخبرات المحلية والعالمية، وصولاً إلى الإبداع والابتكار، ووصولاً إلى وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، مع عدم التفريق بين أجور الخبراء المحليين من أبناء البلد وبين الخبراء الأجانب، مادامت المؤهلات متساوية والخبرات متوافقة.

٩- توصي الدراسة بضرورة إقرار استراتيجية عربية وإسلامية تعمل على وضع ظاهرة هجرة الكفاءات العلمية على جدول أعمال اجتماعات جامعة الدول العربية ومنظمة التعاون الإسلامي، من خلال مؤسساتها ووحداتها المختلفة، من أجل رصد إحصاءاتها الدقيقة والتنبيه إلى خطورتها، وتقديمها إلى اجتماعات القمة عربياً وإسلامياً، ووضع برامج عملية لمعالجتها، وتبني مشروعات طموحة تدعو من خلالها هؤلاء العلماء الموجودين بالخارج إلى العودة إلى بلدانهم الأصلية والإسهام في بناء نهضتها وتطورها العلمي والتقني، باعتبارها قضية من قضايا الأمن القومي؛ لأن تفريغ أي أمة من عقولها يعني تركها أمة خاملة وتابعة وغير قادرة على الابتكار.

١٠- توصي الدراسة بضرورة تبني المواهب العلمية المختلفة، وعدم إهمال المخترعات التقنية التي يتقدم بها أعداد من الطلبة والباحثين العرب والمسلمين إلى الجامعات ومراكز البحث العلمي، دون أن تجد طريقها للتنفيذ والمتابعة، حيث يتحمل مسؤولية هذه المهمة كل من الدولة والقطاع الخاص على حد سواء، من أجل تبني المخترعات العلمية التي تساعد على تطوير المنتج الصناعي كما يحدث في الدول المتقدمة.

١١- توصي الدراسة بضرورة رعاية الجامعات العربية والإسلامية للعلماء والخبراء المنتسبين إليها، والحرص عليهم وتوفير كل السبل التي تتيح لهم الابتكار والإبداع، والعمل على تقديرهم مادياً أو أدبياً -بدلاً من الوقوف بوجه طموحاتهم العلمية والمهنية-والتوسع في إنشاء الأكاديميات التكنولوجية والبحثية، لإتاحة الفرصة لهذه الكفاءات أن تمارس دورها العلمي والقيادي في نهضة الأمة وتقدمها.

وأخيراً، فإن هجرة العقول -كما أشرنا- سنة كونية من سنن الله الطبيعية، إذا ما أحسن استثمارها وتوظيفها لكانت خيراً وبركة على الأمة، ولكانت كسباً حضارياً وعلمياً وتقنياً يسهم في تقدم الأمة وازدهارها، وزيادة تجاربها وتواصلها مادياً ومعنوياً، وبالعكس تماماً إذا ما أسيء استخدامها فإنها ستكون عامل تقويض وضعف للأمة.

وإن ما تم ذكره أو الإشارة إليه في هذه الدراسة لا يمثل الرؤية الشاملة الكاملة لظاهرة هجرة الكفاءات العلمية، وإنما هي مجموعة أفكار وإشارات ونوافذ يتم من خلالها النظر والتفكير في أبعاد هذه الظاهرة، تم الاعتماد فيها على مجموعة من الأرقام والإحصاءات، لتكون جهداً مضافاً ومكملاً لجهد السابقين في هذا المجال، فإن كان صواباً فهو ما وفقني الله إليه، وإن كان غير ذلك فحسبي أنني لم آلُ جهداً في مراجعة هذا الموضوع ودراسة أبرز جوانبه وأبعاده الاقتصادية، للوقوف على أبرز أسبابه وآثاره وبعض من معالجاته.

والله من وراء القصد.

حسبي أنني اجتهدت، ومن الله التوفيق.

الفهرس

وكـــــلاء التــوزيـــع

البلد	اسم الوكيل	رقم الهاتف	عنوانه
قطـــــر	دار الثقافـــــــــة دار الثقافة «قسم توزيع الكتاب»	٤٤٦٢٢١٨٢ ٤٤٤١٣٤٧١	ص.ب: ٨١٥٠ – الدوحة فاكس: ٤٤٤٣٦٨٠٠-بجوار سوق الجبر
البحـــرين	مكتبـــــــة الآداب	٢٣١٠٦٢ ٢١٠٧٦٨(المنامة) ٦٨١٢٤٣ (مدينة عيسى)	ص.ب: ٢٨٧ – البحرين فاكس: ٢١٠٧٦٦
الكويـــت	مكتبة دار المنـــار الإســـلامية	٢٦١٥٠٤٥	ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي شارع المثنى رمز بريدي: ٢٣٠٤٥ فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤
سلطنة عمان	مكتبـــة علـــوم القـــرآن	٧٨٣٥٦٧٧	ص.ب: ١٩٦٠ روي ١١٢ فاكس: ٧٨٣٥٦٨
الأردن	شركة وكالة التوزيع الأردنية	٥٣٥٨٨٥٥	ص.ب: ٣٣٧١ – عمان ١١١٨١ فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣
الـــيمن	مجموعـــة الجيـــل الجديـــد	٧١٣٦٣-٧٨٠٤٠ ٧٥٨١١- ٢٧٠٣٨	ص.ب: ٥٤٤- صنعاء فاكس: ٢١٣١٦٣
الـــسودان	دار الريـــان للثقافـــة والنـــشر والتوزيع	٤٦٦٣٥٧	ص.ب: ١١١٦٦- الخرطوم فاكس: ٤٦٦٩٥١
مـــــصر	دار السلام للطباعـــة والنـــشر والتوزيـــــع والترجمــــــة	٢٧٤١٥٧٨ ٢٧٠٤٢٨٠ ٥٩٣٢٨٢٠	ص.ب: ١٦١ غورية ١٢٠ ش الأزهر – القاهرة فاكس: ٢٧٤١٧٥٠
المغـــرب	مكتبة منار العرفان للنشر والتوزيع	٧٣٣٣٢٩	نهج موناستير رقم ١٦- الرباط
الجزائـــر	دار الوعي للنـــشر والتوزيـــع	٠٢١٣١٧٠١٣٦٤٦ ٠٢١٣٥٤٥١١٠١٥	القطعة رقم ١٤٢ ب حي الثانوية – الروبة -الجزائر
إنكلتـــرا	دار الرعايـــة الإســـلامية	(01) 272-5170/ 263-3071	Muslim welfare House, 233. Seven Sisters Road, London N4 2DA. Fax: (071) 2812687 Registered Charity No:271680

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

هاتف: ٤٤٤٤٧٣٠٠

فاكس: ٤٤٤٤٧٠٢٢

برقياً: الأمة - الدوحة

ص.ب: ٨٩٣ - الدوحة - قطر

موقعنا على الإنترنت:
www. sheikhali-waqfiah.org.qa
www.Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني: E.Mail
M_Dirasat@Islam.gov.qa

ثمن النسخة

الأردن	(٧٠٠) فلس
الإمارات	(٥) دراهم
البحرين	(٥٠٠) فلس
تونس	دينار واحد
السعودية	(٥) ريالات
السودان	(٥٠) قرشاً
عمان	(٥٠٠) بيسة
قطر	(٥) ريالات
الكويت	(٥٠٠) فلس
مصر	(٦) جنيهات
المغرب	(١٠) دراهم
الجزائر	(١٢٠) ديناراً
اليمن	(٤٠) ريالاً

* الأمريكتان وأوروبا وأستراليا وباقي دول آسيا وأفريقيا: دولار أمريكي ونصف، أو ما يعادله.